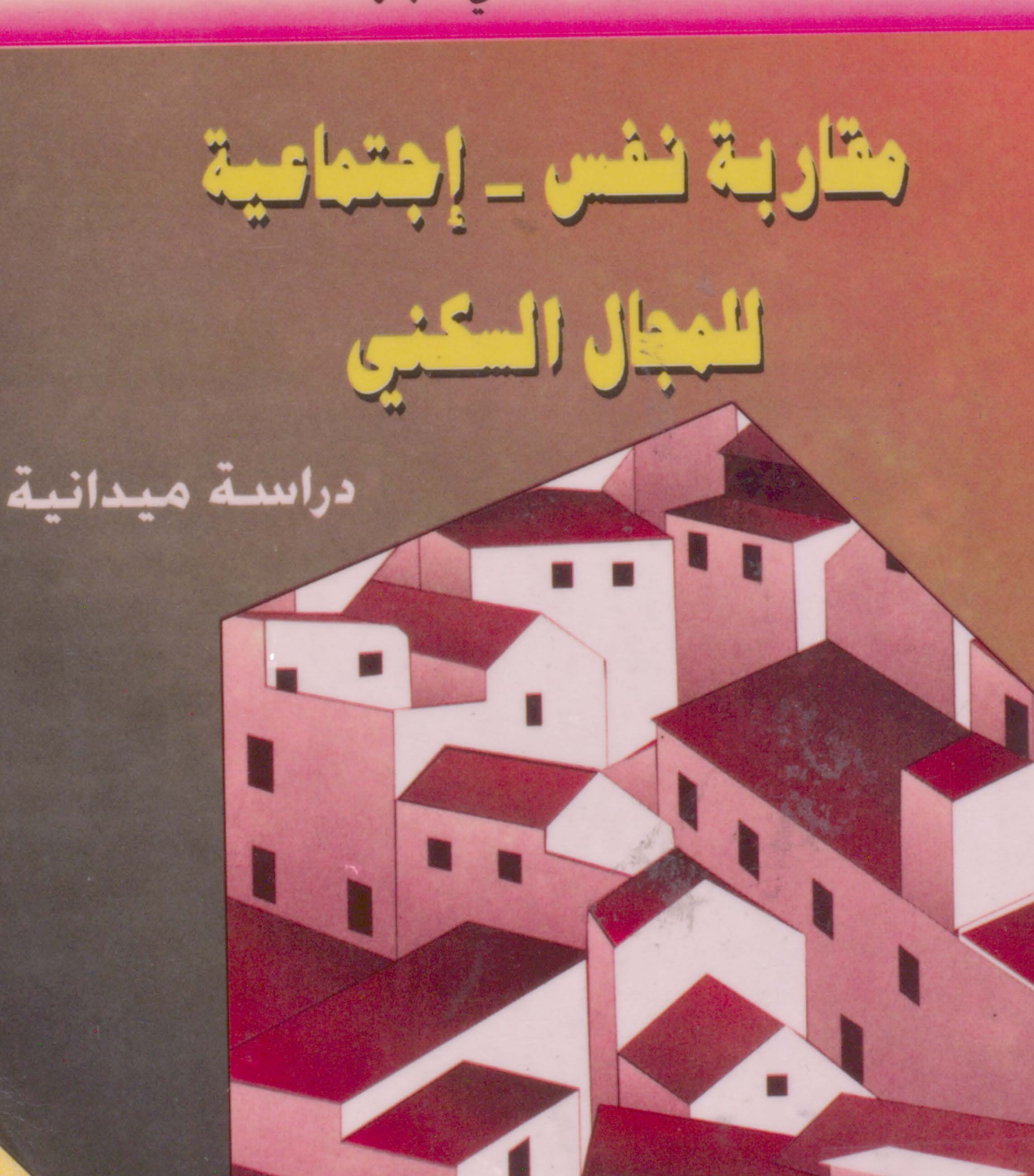
د. رجاء مكي طبارة

مقاربة نفس - إجتماعية للمجال السكني

دراسة ميدانية





مقاربة نفس ـ اجتماعية
للمجال السكني

د. رجاء مكي طبارة

مقاربة نفس ـ اجتماعية للمجال السكني

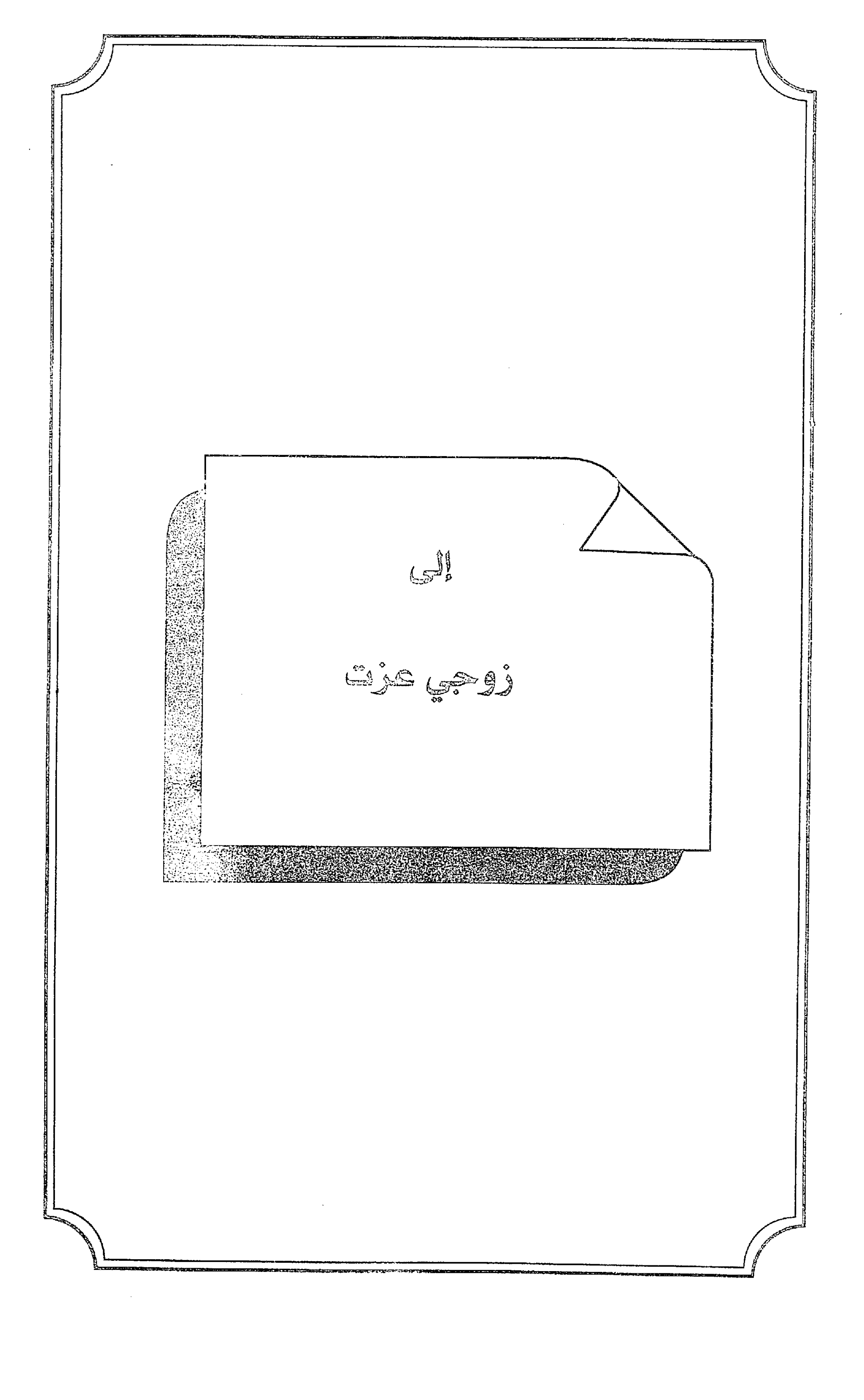
دراسة ميدانية

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1415 هـ ـ 1995 م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام
هاتف : 802296- 802407- 802428
ص. ب : 113/ 6311 ـ بيروت ـ لبنان
تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D


إلى
زوجي عزت

Le quotidien, le banal, le vie des gens... le futur s'y dessine evidemment. L'Industrie, la technique, la recherche.., nos rêves comme nos hantises s'y révèle, évidemment. Alors, regardons notre société où les choses meurent et où elles naissent, où ça continue et où ça change. Alors, lisons attentivement les petites aventures du présent afin que demain soit autant que possible, nôtre..».

J. C. Depaule - A travers le mur

- باب بيتك يحكمك .

Centre de création industrielle.

- Centre G. Pompidou -

Paris 1985

مقدمة

رغم الحرب، ورغم نكباتها التي هزّت كيان بلدنا وضعضعته؛ رغم الويلات الكثيرة التي لحقت بالجميع... رغم كل ذلك، فنحن محاطون بكل حديث. أغلب الأشكال حولنا حديثة... الموضة... الفكر... التربية... التقنية... الفن... المسكن... حتى تيار الاصالة والأصولية يعمل على أن يكون حديثاً في طروحاته وتوجيهاته وتطبيقاته، عله يصل أسرع إلى عقول وأذهان الناس[1]..

أصبحت ظاهرة الحداثة هماً حضارياً تهتم به أغلب الأبحاث الحالية... إنها تعني التغيير والتحول والانعطاف عن القديم. وهي تعني في مواضيع أخرى الانقطاع، وأيضاً الاختلاف، الاختلاف مع القديم؛ مع السائد؛ مع المتأصل. إن «الحداثة هي سياق تاريخي حضاري عالمي، دينامي، تحل سيميولوجيا الأشياء محل سيميولوجيا المفاهيم والتصورات القادرة على تحقيق الاتصال والمشاركة بين الافراد والمجتمعات... لقد غدت الخطابات اللسانية في المجتمع المتقدم أنساقاً رمزية تحيل إلى منظومات الأشياء وحركتها الواقعية في مختلف المجالات الدلالية... وهكذا تحل أدوات الزينة ـ مثلاً ـ والتبرج والأزياء والطراز محل كل خطاب لساني حول الانوثة والجمال»[2].

لفظياً، ترجع الحداثة إلى الحديث أو المعاصر، مع أن مرجعها الحقيقي هو مفهوم التاريخ، الذي يحدد معنى الحديث، كما المعاصرة، في شكله

(1) كمشروع د. محمد أركون الذي يسعى إلى قراءة جديدة للفكر الاسلامي في كافة كتبه وأبحاثه التي نذكر منها على سبيل المثال: الفكر الاسلامي ـ قراءة علمية ـ مركز الانماء القومي ـ ترجمة هاشم صالح ـ بيروت 1987.

(2) د. مطاع صفدي ـ ميتافيزيقيا الشبة والهوية ـ مجلة الفكر العربي المعاصر ـ عدد 17 ـ 1982.

الحقيقي أو في شكله الزائف؛ لأن الحداثة لا تساوي المعاصرة بالضرورة. وقد تعني الحداثة في معناها الظاهري الانفتاح على الزمن الحديث الذي أنتج التكنولوجيا والمستهلك الكوني...»[1] [2].

تاريخياً، ترتبط الحداثة بانعطاف تاريخي شامل، إنها تاريخ مغامرة الانسان وإبداعه وسيطرته على الطبيعة وعلى الكون. «هذه المغامرة هي فعل فكري ومعرفي، سياسي واجتماعي، صناعي وتكنولوجي. وبالتالي فهي نسق حضاري متميز ومتحرك مناقض للنسق التقليدي الساكن، يتسع حتى يشمل كل أرجاء المعمورة كواقع وكأسطورة»[3].

عربياً، عاش وترعرع مفهوم الحداثة في دلالات معرفية متنوعة، وصلت إلى حد الاستنزاف أحياناً والابتذال أحياناً أخرى، وتأثر الشعراء والمفكرون والسوسيولوجيون بآراء دعوات التحديث؛ مما انعكس على رؤى جديدة في كافة ميادين الفكر والاجتماع والتنمية.

نذكر على سبيل المثال[4] «أدونيس» الذي اهتم بالحداثة، ونظر اليها عبر

---

(1) د. فيصل دراج ـ الحداثة والوعي التاريخي: قراءة عبد الله النديم ومحمد المويلحي ـ كتاب قضايا وشهادات عدد 2 ـ 1990. مؤسسة عيبال للنشر ـ دمشق ـ ص 75.

(2) تأتي كلمة الحداثة ـ وكما يحددها د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي ـ 1 ـ دار الكتاب اللبناني بيروت 1971 ـ من الحديث: moderne- modern-modernus، «والحديث في اللغة هو نقيض القديم ويرادفه الجديد، ويطلق على الصفات التي تتضمن معنى المدح أو الذم فالحديث الذي يتضمن معنى المدح صفة الرجل المتفتح الذهن، المحيط بما انتهى اليه العلم من الحقائق، المدرك لما يوافقه روح العصر من الطرق والآراء والمذاهب. واما الحديث الذي يتضمن معنى الذم فهو صفة الرجل القليل الخبرة، السريع التأثر، المقبل على الاغراض التافهة، دون الجواهر العميقة، والمعرض عن القديم لمجرد قدمه لا لخبثه وفساده. ومعنى ذلك أن الحديث ليس خيراً كله، كما أن القديم ليس شراً كله. وخير وسيلة للجمع بين محاسن القديم والحديث أن يتصف أصحاب الحديث بالاصالة والعراقة والقوة والابتكار، وان تتجلى أصحاب القديم عن كل ما لا يوافق روح العصر من التقاليد البالية والأساليب الجامدة.

ويحدد ـ من ناحية أخرى «المعجم العربي الحديث ـ لاروس» الحداثة من حُدث وهي خلاف قديم: فهو حديث. (Larousse ـ كندا 73).

(3) د. أنيسة الأمين ـ امرأة الحداثة العربية ـ قضايا وشهادات (المرجع نفسه) ص 106 ـ 108.

(4) لن نتعرض في مقدمتنا هذه لتاريخ الحداثة أو لفلاسفتها أو لمفاهيمها التفصيلية، بل سنكتفي بعرض سريع نصل بعده إلى صلب موضوع الدراسة.

زاويتي الفن والأدب؛ لأنه يرى أن الفن يمكن أن يقوم بدور الثورة في المجتمعات ذات البنية الاقتصادية المختلفة. لقد درس الشعر العربي الذي على ضوئه درس الثقافة العربية بكاملها، وأرى أن القضية الأساسية في دراسة الثقافة العربية تكمن في فهم طبيعة العلاقة بين رؤيا الثبات ورؤيا التحول، أو بين أهل الاتباع وأهل الابتداع، فالمنحى الثقافي الاتباعي هو منحى ثبات التحول يقابله منحى التحول؛ لأن «الأصل الثقافي العربي ليس واحداً، بل كثير وانه يتضمن بذور جدلية بين القبول والرفض، الراهن والممكن، أو لنقل الثابت والمتحول»[1]... والقديم برأي «أدونيس» طاقة تنبعث منها وظائف ثقافية وبين هذه الوظائف تتولد وظائف أخرى اجتماعية ونفسية... «إنه منحى الثبات بنظرة من يواجه عصراً مقبلاً، ويشعر انه لن يكون له مكان فيه، فيزداد لذلك تمسكاً بالقديم ومحاربة للجديد..»[2].

أما «فتحي ورشيدة التريكي» فيريان أن التحديث مرتبط بمفهوم الانماء والتطور، من حيث البنى المعرفية والعقائدية المتصلة بالعلوم والايديولوجيا والدين، «فالحداثة معضلة يعيشها الفرد اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، ولكنه لا يستطيع الوعي بها والتفكير في مقوماتها ومستتبعاتها بدون الانزلاق في الحيرة والقلق والتخوف... إن التحديث هو قبل كل شيء عملية أو مجموعة من العمليات التراكمية التي تطور، في مجتمع ما، قوى الانتاج، وتعبئة الموارد والثروات، وتنمي انتاجية العمل وتمركز السلطة الاجتماعية والسياسية داخل أجهزة محكمة، وتحرر في الآن نفسه تقاليد الممارسة السياسية من أجل المشاركة في الحياة العامة، وتؤسس القيم والقوانين والنواميس لتجعلها علمانية صرفاً، فلا تخضع لأية عقيدة أو لأي موقف ايديولوجي معين»[3].

وقالا أي (التريكي) أن في الحداثة ثوابت متمثلة في إرادة المعرفة وإرادة التغيير وإرادة الهيمنة التي كانت كالوسيط الكيمائي لهيمنة الغرب على العالم، ولغزوة للفضاءات البعيدة كالقارة الآسيوية والافريقية والاميركية والاسترالية[4].

---

(1) (2) أدونيس ـ الثابت والمتحول ـ 1 الأصول ـ دار العودة ـ بيروت 1974 ـ ص 20.

(3) د. فتحي، ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة ـ مركز الانماء القومي ـ بيروت 1992، ص 9.

(4) المصدر نفسه ـ ص 22.

من ناحية أخرى، يعتمد «هشام شرابي» في تحديده لمفهوم الحداثة على أربع نواح، حددها مارشال برمان في كتابه [All the solid melts into air: the experience of modernity (New York): Simon and Schuster 1982- p 15-36 and 106- 112].

ويختصرها شرابي بالنقاط التالية:

1 - ان الحداثة ظاهرة تتميز بأوروبيتها.
2 - النقطة الثانية تتعلق بالمحتوى التاريخي لمفهوم الحداثة.
3 - النقطة الثالثة لمفهوم الحداثة مستمدة من تحليل ماركس.
4 - إن الحداثة على علاقة وثيقة بسمة المجتمع البرجوازي الجديد، الذي يظهر الآن إلى الوجود، ليحل مكان المجتمع القديم بعد أن نفاه وطمسه[1].

ورأى «شرابي» أن «الأبوية» باعتبارها مقولة اجتماعية/ اقتصادية تشير إلى مجتمع تقليدي وسابق على الحداثة. وتبعاً لذلك، فإن تعبير مجتمع/ ثقافة أبوي، ومجتمع / ثقافة تقليدي (أو سابق على الحداثة) هما تقريباً ذوا دلالة واحدة. وقارن الحداثة بالأبوية مستخدماً عدداً من المقولات الأساسية[2].

المعرفة	فكر / عقل	اسطورة / معتقد
الحقيقة	عملية / نقدية	دينية / مجازية
اللغة	تحليلية	بيانية
السلطة	ديمقراطية - اشتراكية	سلطة أبوية
مستحدثة		العلاقات
الاجتماعية	أفقية	عمودية
التشريع الاجتماعي	طبقة	عائلة / عشيرة / طائفة

(1) د. هشام شرابي: النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي (ترجمة محمود شريح). مركز دراسة الوحدة العربية - بيروت 1992 - ص 36 - 37.
(2) المصدر نفسه - ص 38.

واعتبر شرابي أن إنجاز أوروبا الفريد يعد في مقدرتها على تخطي أبويتها الاقطاعية والانتقال إلى الحداثة بالاعتماد كلياً على نفسها. . . والتنافر الداخلي والتبعية الخارجية دفعا بالحضارات الأخرى أسيرة النظام العالمي الأوروبي إلى اتخاذ أنماط مشوهة مختلفة من النمو التحديثي؛ فالخاصية الأساسية التي يتميز بها الوعي «المحدث» هي ميله إلى تحويل النماذج إلى أصنام. وهذا ما نراه في المجتمع العربي خلال تعامله مع التربية أو الملبس أو الصنيع الفني أو غيره[1].

«إن المشكلة الحقيقية التي يعانيها الوعي النموذجي التبعي ترتبط وثيقاً بنماذج الفكر أكثر من ارتباطها بمحتويات تلك النماذج[2].

وتتميز الحداثة في مجتمعنا العربي، **بمؤشراتها الصدامية**؛ لأنها تعني التواجد أمام قطبين متناقضين: **الهوية** من جهة، **والحداثة** من جهة أخرى. وان تلك الأخيرة تعني أساساً حضور الذاتي الدينامي والفاعل علمياً وسياسياً في هذا العالم؛ وذلك استناداً إلى «التريكي» في كتابهما فلسفة الحداثة.

إن هذا الجدل هو جدل عنفي بين القطبين، **دخل كل الحدود والملاقات والسكن، حيث تبدو إشكالية الحداثة فيه، هي الأكثر لبساً بين الاشكاليات الفكرية والثقافية في لوحة الثقافة العربية**. ذلك أن الثقافة العربية هي ثقافة صراع بين القديم والجديد، مع أن الثقافة العربية ليست جوهرياً «ثقافة تقليدية»، كما قال «د. حليم بركات»، بل هي تمحور حول الصراع بين قوى متناقضة، وليس حول الماضي، أو حول المستقبل، أو حول أي طرف من أطراف الصراع. وبرأيه أن المجتمع «العربي «يعاني من حالة اغتراب مستعصية، تتجلى خاصة في تبعيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي عجزه تجاه التحديات التاريخية، وفي تراوحه بين الخضوع والعزلة من جهة، والمواجهة من جهة أخرى، وفي قهر الانسان وتعطيل إمكاناته وحرمانه من حقوقه الانسانية، وفي سيطرة المؤسسات والجماعات الوسيطة على المجتمع، بالرغم من هيمنة الدولة»[3]. . . من هنا يعتبر ان المجتمع العربي

---

(1) المصدر نفسه ـ ص 42.

(2) المصدر نفسه ـ ص 42.

(3) د. حليم بركات ـ المجتمع العربي المعاصر ـ مركز دراسات الوحدة العربية، الصفحة الأولى ـ بيروت 1984.

هو مجتمع متحرك وممزق بين عدة اتجاهات وقوى متناقضة؛ لذا فهو في حالة عدم استقرار ونزوع دائم، أي في حالة صيرورة وتكوّن وجهاد.

حالة عدم الثبات هذه، يفسرها «أدونيس» «بالماضوية» التي تسود الحياة العربية اليومية، وتنعكس على الصعيد النفسي، وهي تعني «التعلّق بالمعلوم ورفض المجهول بل الخوف منه».

فالعربي «يشعر أن وجوده يتوقف على استمرار على الرموز الماضوية ومنظوماتها. وهو يسلك إزاء من يهددها، شكاً أو رفضاً، مسلكاً عنيفاً»[1].

من ناحية أخرى، وفي المضمار نفسه، يرى «شرابي»، الذي هو من الرعيل الأول لدعاة الحداثة العربية، ان الحياة السياسية في الوطن العربي انحلت، وتفككت، وتعرضت لهزائم (في ظل ما سماه زعامة البرجوازية الصغيرة). وتصارعت الانظمة المتعادية، وتعثرت حركة التغيير الاجتماعي، وتلكأت التنمية وعجزت عن تحقيق الاهداف الاجتماعية الموضوعية، التي تواجدت إلى جانب دوافع نفسية ذاتية، تصنع الهوة بين ما نرمي اليه بالقول وما نفعله بالممارسة. فنبقى غائصين عاجزين عن تغيير وضعنا[2].

الوضعية وضعية مأزقية، وهي أساساً وضعية القهر المفروضة علينا، والتي نحاول في سلوكنا وتوجهاتنا وقيمنا مجابهتها للسيطرة عليها بشكل يحفظ لنا بعض التوازن النفسي الذي لا يمكن الاستمرار في العيش بدونه[3].

ولقد أجمع دعاة الحداثة، من مثقفين ومفكرين وفلاسفة وعلماء اجتماع، على وجوب تحرير الفكر العربي من كل سلفية، ووجوب إزالة القدسية عن الماضي كأساس لتخطي المأزق والصراع. فالتقدم الذي أنجزه الإنسان، حسب رأي أدونيس، «يوضح أن الحاضر يكشف من الحقائق، ما لم يخطر للماضي إطلاقاً، فبالأحرى أن يكون المستقبل أكثر كشفاً عن هذه الحقائق. ولم يكن شجر الأمس أو فضاؤه أجمل من شجر اليوم وفضائه ولم

---

(1) أدونيس ـ المصدر نفسه ـ ص 28.

(2) د. هشام شرابي ـ مقدمات لدراسة المجتمع العربي ـ الطبعة الثانية ـ الدار المتحدة للنشر ـ بيروت 1977.

(3) د. مصطفى حجازي ـ التخلف الاجتماعي ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1989.

يكن شاعر الأمس مخلوقاً من طينة أكثر رهافة من الطينة التي يخلق منها شاعر اليوم»[1].

وبالنسبة «للتريكي»، فإن الحداثة جديرة بأن تكون القضية الأم للعالم العربي حالياً؛ لأنها عقلنة وتحرر، لأنها إنفصال عن التعصب والجهل، إنفصال عن التقليد والنقل. وهي الهيمنة على الذات والهوية والابتعاد بهما عن الماضوية الضيقة. فإثبات الهوية الآن لا يكون إلا بتأصيل الكيان وبتحديثه وجعله قابلاً للتأقلم مع أنماط الحياة الجديدة لتحدي مساوئها.

هذا هو ما أعلنه بشكل أو بآخر «د. هشام شرابي» عن «حتمية نشوء الحداثة». لكن رغم هذه الدعوات المتكررة، فإن أمر الحداثة لم يحسم أمره، لا بل يزداد مع الوقت تأزماً وتصاعدياً بين قطبين متنازعين. إنه تأزم يتجه كي يرسو على حالة من **الارباك و«الرجرجة»**، تظهر بوضوح عندما تطال الحداثة **العمق العاطفي**؛ فالأزمة هي أزمة وجود وذات، تربك الرؤية؛ لأن القديم متجذر، والحديث غير مثبت، والصعوبة هي صعوبة مرجعية ومأزمية حادة، تؤدي في الكثير من الأحيان إلى نوع من الانكفاء المازوشي، الذي يتمثل بتعذيب الذات ومحاسبتها على التخلي عن قديمها وقواعده، وقد تؤدي أيضاً إلى حالة إنفصام[2].

وبما أن الحداثة في بلادنا لم تورث سوى المأزمية، الحادة، فإن هذا

---

(1) أدونيس ـ المصدر نفسه ـ ص 34.

(2) «وضع بلولر» هذا المصطلح عام 1911، للدلالة على مجموعة من الاذهنة التي سبق لكرايبلن أن بين وحدتها من خلال تصنيفها تحت باب «العته المبكر». . . يرمي بوليلر من وراء تقديم هذا المصطلح (المكون من كلمتين يونانيتين Schizo: إنشطاره قسمان وPhrénie: الفكر) إلى إبراز ما يمثل في نظره العارض الأساسي لهذه الأذهنة: أي الانفصام أو التفكك. ولقد فرض هذا المصطلح نفسه في كل من الطب العقلي والتحليل النفسي، رغم الاختلافات بين المؤلفين حول ما يشكل خصوصية الفصام. ويتنوع الفصام عيادياً إلى أشكال متفاوتة ظاهرياً، ويستخلص منها عادة الخصائص التالية: تفكك الفكر والعقل والعاطفة، اللامبالاة تجاه الواقع والانكفاء على الذات مع طغيان حياة داخلية غارقة في النشاط الهوامي: د. مصطفى حجازي: معجم مصطلحات التحليل النفسي، مجد ـ بيروت 1987، ص 395.

ويمكننا استعمال كلمة ازدواجية، إلا أن كلمة انفصام هنا تشير إلى الدلالة المرضية لازدواجية الحداثة ولتحللها ولفقدانها الترابط.

الارباك الذي يشكل أحد خصائصها المحلية، أول ما ينعكس على الأسرة كوحدة انتاجية تشكل نواة ومركزاً **للنشاطات الاجتماعية وللسلوك** وللتثقيف الاجتماعيين. إن تحليل العلاقات التي تقوم عليها الأسرة وكيفية تربية وتثقيف الأولاد مرتبط إلى حد بعيد بطابع السلطة التي يحكمها، والذي يقولبها على نمط الثقافة المسيطرة والمقررة.

ويغلب طابع التمدن والتحديث على أسرنا، لكنها ما تزال تمارس بشكل أو بآخر أساس العلاقات الاجتماعية القديمة (من تساند أو تعاضد أو غيره) للمجتمعات اللاصناعية؛ ما تزال تحافظ على شبه اقطاعية في مؤسساتها، وفي علاقاتها؛ ذلك أن المحافظة على البقاء والاستمرارية يعني الحفاظ على العادات والتقاليد والقيم والعقيدة. بمعنى آخر أنه نوع من المحافظة على العلاقات الانتاجية والاحتكارية كطابع للسلطة الفوقية كما يقول د. هشام شرابي. فالسلطة داخل العائلة كالسلطة خارجها، تعمل على ممارسة الارهاب على أفرادها، ومن ثم الخضوع، فالقهر، فالرضوخ... تلك ملامح التربية الطفولية داخل الاسرة العربية بشكل عام واللبنانية بشكل خاص، حيث الأبوية ما تزال هي السلطة والانتساب.

تطال الحداثة من ناحية أخرى واقع المرأة داخل هذه النواة الأسرية، التي لا يقتصر نشاطها على تنشئة الأولاد، وتعرقل مسيرتها في تحقيق ذاتها «التي تمر وبالضرورة بأزمة للمعاش الجنسي، وللأدوار المرتبطة بها، وللهوية الملتصقة بصورة المرأة. في هذه الأزمة التي تقوم بين الصورة التي تريدها المرأة لنفسها والأخرى المتجذرة في عمق المجتمع وفي أعين الناس والرجال، يتداخل الفردي والاجتماعي في جدل حاد ويتجلى في مستويين: إجتماعي (ظاهرة اجتماعية توزع الأدوار الذكرية والأنثوية) وفردي (معاش نفس ـ جسدي)»[1].

أما مكان الأسرة حيث تدور هذه العلاقات وهذه المآزم، فهي المسكن الذي يغلب عليه طابع الحداثة، إذ إن المسكن الحديث قد أزاح المنزل التقليدي في بلادنا، وأزاح معه كل عتيقه وكل شيوخه، وأزاح ذاكرتهم

(1) د. أنيسة الأمين ـ إمرأة الحداثة العربية ـ قضايا وشهادات ـ مرجع سبق ذكره ـ ص 11.

معه. . . إنه المسكن المستقل، (رغم صعوبة تحقيقه خلال الحرب الأهلية)، الذي حمل معه تغييراً ـ ربما كان تغييراً ثورياً، في المضامين وفي استقلالية العيش والاقتصاد، لكنه لم يتضح أمره بعد في ما خص العادات والتقاليد السائدة! . . . .

ومع ولوج مفهوم الحداثة للمسكن المستقل الحالي، بدا لنا أنه قد أصبح هدفاً نتعامل معه بشكل صنمي[1] دخل إطار وعينا المحدث، الذي يحكي عنه د. شرابي، ودخل إطار المؤشرات الصدامية التي تحدثنا عنها سابقاً. إنّ الصنمية السلعية التي تظهر على شكل عبادة للأشياء وتعزيز لآلية الاقتناء، قد أدخلته عالم الغريزة (تماماً كما يحدث في اللباس والموضة والتقليعات)، حيث تصبح الأشياء كمثالات جنسية ذات توسطات ضرورية بين الأنا والآخر بالمعادلة الطبيعية، وبين الأنا الطبيعية والأنا الاجتماعية»[2].

لقد أصبح المسكن الحديث شكلاً من أشكال الخطاب الأبوي، تسرد الروايات حوله، وينصت للحديث عنه باهتمام في الحياة اليومية. إنه ظاهرة اجتماعية معاصرة، اتسعت في السنوات الأخيرة التي عقبت الاستعمار الفرنسي، حيث بدا لنا أن الكل بدأ يتخلص من الدور القديمة[3] للانتقال إلى شقق حديثة طابقية، ومن المساكن القديمة بمفروشاتها وبأثاثها ذات الطابع الخاص، والتي اقتنيت عبر أجيال عدة، و«صار استبدالها بأخرى غزت الأسواق والأذواق وبيعت، بأسعار التراب، كما يقال، والتخلص من القديم ساد مقابل ثمن الانتماء إلى الحياة الحديثة، حتى وصل ذلك إلى حد الهوس»[4].

(1) حيث يصبح التعامل مع التربية أو الملبس أو المسكن كنماذج وكشعائر مترجمة عن النماذج الغربية.

(2) د. عبد الرزاق عيد ـ عقدة الافاعي ـ قراءة في النموذج السوري للحداثة ـ قضايا وشهادات (مرجع سبق ذكره) ص 275.

(3) حتى لو لم تتداع هذه الدور، إلا أنّ حدوث زلزال سنة 1956 وما لحقه من تزايد عدد السكان والازدهار الاقتصادي وتزايد عدد اللاجئين شجع أيضاً وفي حينه على البناء، وعلى توظيف المال في العقارات.

(4) وليد اخلاصي ـ ارابيك الحداثة ـ قضايا وشهادات، ص 309.

وبناء عليه، فإن المسكن يدخل في صلب المجال النفساني المرّتبط حكماً بالحقل الفيزيائي الطبيعي، (مما يعني أنه متداخل مع المجال الجغرافي ومع المجال التاريخي)...

إن المسكن هو الإطار الطبيعي لنمو الإنسان ولاستقراره. إنه المأوى الذي نلجأ اليه لاشباع الاحتياجات المادية والحاجات الفيزيولوجية والعاطفية والثقافية والعائلية... إنه مستند التخيلات الذي يرتكز بدوره على قطبي الداخل والخارج. إن الداخل هو المحيط العيادي، والخارج هو المحيط الاجتماعي المادي والمعنوي[1]...

والتلازم بين الداخل والخارج هو تلازم بين الذاتي والموضوعي[2]، بين النفسي والاجتماعي. يتحول هذا التلازم إلى مزيج من الخيال والواقع، ينعكس مباشرة على المجال السكني الخاص، حيث يترك التعبير عن مجال الاماني والتخيلات والاحلام والهوامات.

وعليه، فإن المجال النفس - اجتماعي في بلادنا، يخضع ويتبع عموماً لنفس مواصفات المجال النفسي - اجتماعي العربي، حيث تتخبط الحداثة[3]، والذي يعتبر كمجال «مجسم لمساحة ثانية، هي... مساحة مستوى الطموحات والتطلعات، كما تتقاطع مع مبدأ الواقع العربي الراهن على مستوى الفرد العربي أو الجماعة العربية... ومساحة الحياة اليومية هي عبارة عن مجالات عربية حيوية، تطمح إلى أن تصبح مجالاً حيوياً واحداً. على أن هذا الطموح التوحيدي محكوم بتكامل الجغرافيا، وبتجانس التاريخ، وبتشابه ملامح المستقبل»[4].

---

(1) والاجتماعي هنا ليس خارجياً أو «برانياً»، فالانسان كائن اجتماعي بالدرجة الأولى.

(2) تتكرر هذه الفكرة في البحث، وهي تستند على رؤية فرويد لحركية الداخل والخارج، فالذاتي لا يمكن أن يتواجد إلا عبر الداخل، عكس الآخر، الواقعي الذي لا يمكن أن يتواجد إلا عبر الخارج: إنه تعارض يضمن بذلك معرفة الحقيقة الخارجية (التي تفهم بالموضوعية)، ص Fedida: l'absence - Gallimard. 179

(3) علماً أن لبنان أكثر البلدان العربية تأثيراً بالنموذج الغربي، لذا فيمكن القول أنه «يقع في المجال النفستماعي العربي مع تمايزات معينة» لأن الحداثة لا تتخبط بنفس الحدة في جميع الاقطار، بل بمحطات تختلف باختلاف بنية هذه الأقطار.

(4) د. عباس مكي - المجال النفس - اجتماعي العربي - معهد الانماء العربي - بيروت 1991 - ص 80.

هذا المجال النفس ـ اجتماعي العربي هو مجال ذاتي، يرتبط بالنظام الاقليمي العربي الموضوعي، فتأتي العلاقة بين المجال والنظام. . . والمعروف أن العالم العربي هو عالم يعاني، كغيره من بلدان العالم الثالث، أزمات عدة، أهمها الأزمة السكانية[1]، والتي تعتمد إلى حد بعيد على توزيع غير عادل للدخل، (فالذي يتمكن حالياً في لبنان من ترك البناء هو إما صاحب دخل عال أو مردود إضافي أو وريث ارث. . .). مما يقودنا للحكم عن مكان سكني مفكك غير مرجه. . . أتى البناء فيه كأوالية تكيف مع الواقع الجديد المتغير (هجرة ـ غياب مؤسسات الخ. .).

إن المحور الأساسي في هذه الدراسة هي المسكن. إلا أن المسكن التقليدي القديم غاب وانكسف، ليترك المكان للمسكن الحديث ولِتَبوُّء العمارة المعاصرة. . .

لذا فإننا لا بد من أن نطرق باب الحداثة وكيفية ظهورها (عبر المسكن الحالي)، إلى جانب محاولة تجربة الدخول في لاوعي الجماعة عبر سلوكها المعماري، بهدف رصد التغيير والتطور الاجتماعي والتقني الذي أصاب السلوك المعماري داخله.

في الحديث عن السلوك المعماري، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار نقاطاً ثلاثاً:

1 ـ إن العمارة فن له طبيعته؛ فهو شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، وشكل خاص للمعارف. كما أنه فعل إنساني روحي ومادي، إضافة إلى أنه إبداع بمميزات جمالية لخاصية انعكاس الوقائع[2].

2 ـ بترابط فعل مادة الفن مع الدور المبدع للفنان في عكس الوقائع والحقائق ـ بشكل إبداعي .. هكذا فإن القيمة الجمالية للفن أساسها الانسان (وفي العمارة أساسها المهندس المعماري الذي يعكس في عمله الجمالي

(1) كثرت الدراسات حول الأزمة السكانية، لكنها لم تدخل في تفاصيل وخصوصيات ووضعيات السكن في بلدان العالم الثالث.

(2) حبيب ابراهيم صادق ـ العمارة الجديدة والدلالة ـ تاريخية عمارة ما بعد الحداثة ـ كتابات معاصرة ـ عدد 10 ـ 1991 ـ ص 66.

الابداعي قيمتين: قيمة ذاتية تميزه، وقيمة اجتماعية نتيجة انتسابه لبيئة معينة ومحددة).

3 ـ العمارة فن، وظاهرة اجتماعية قديمة منذ نشوء المجتمع الانساني، لها وظيفة اجتماعية وتنظيمية. خاصية محتواها: الشكل؛ لأن الشكل يحمل دلالة، وهو الرمز لفكرة معينة (فكرة لانشاء العمارة)، إنه انعكاسي واخباري (les formes informent) نلتقط عبره حقيقة أو نسقاً اجتماعياً معيناً.

إن فكرة إنشاء المسكن أو ما نسميه، هندسياً، العمارة، نشأت، كما تردد في هولندا، خلال القرن السابع عشر، وربما ارتبط ذلك بالعمارة في أوروبا في فترة ما بعد النهضة، عندما بدأت الطبقة البورجوازية في تعمير منازل خاصة بها، فاتخذ الفرنسيون الخطوة التالية في القرن الثامن عشر، وبدأوا بتصميم أنواع مريحة من الأثاث. لقد كان معظم الناس، ومنهم الطبقة البورجوازية، يسكنون في أبنية مجتمعة، تتكون من صالة رئيسية، يتم فيها الطبخ والأكل واستقبال الضيوف، والأعمال التجارية قبل النوم في آخر الليل، أي أنها كانت أماكن لا يستطيع أي إنسان أن يجد فيها راحته. ومضمون التطورات التي شهدها المسكن بوظيفته الأساسية وبأشكاله الهندسية عبر التاريخ ما هو في الواقع إلا تعبير عن التطورات المادية والفكرية التي حققتها البشرية. هذه المساكن الأولى، يمكن اعتبارها من المحطات الأولى في بناء وإقامة المدينة والقرية.

والحديث عن تاريخ العمارة بحاجة لتسلسل تاريخي، يتابع الفعل المعماري الذي يظهر في مرحلتين: ـ

ـ مرحلة الظهور ونشوء الطراز.

ـ مرحلة إكتمال الطراز ووصوله إلى النتائج التي تعبر عنه.

«وكان لهاتين المرحلتين في تاريخ العمارة ظهور مميز ومرتبط بالحاجات الاجتماعية ـ الاقتصادية والحاجات النفعية ـ الوظيفية».

هذا ولقد أدخل من نصف القرن التاسع عشر حتى الستينات من القرن العشرين العديد من التسميات التي عرفت العمارة «كطراز» أو «Style»، أو

«العمارة الحديثة» Architecture moderne (في بعض الكتابات المتخصصة)، كما يستعمل كذلك عمارة ما بعد الحداثة Postmodernisme «والتي تعني بعض التجارب الطليعية لأعوام السبعينات والثمانينات»[1]. وبالمناسبة، فإن العمارة الحديثة تبدو متنافرة مع التقليدي. من هنا يظهر ويندرج انتشار مستوى **الحداثة والثورة**، الحداثة التي لا يصعب اكتشافها أمام حركة التحديث المعماري الشديدة القوة، والتي تعلن عن تقهقر التقليدي.

ونحن قد اخترنا في هذا البحث الحديث عن المسكن، وفعل السكن وليس العمارة وفن العمارة؛ لأنه (أي السكن) موضوع أكثر تعبيراً وأكثر نتاجاً وأكثر ذاتية». إنه حقل كلي يساعد في تأليف المشاعر والاسقاطات، فهو يبدأ عبر المهندس المعماري، الذي أنتج فعل العمار، ويدخل لاحقاً في صلب عملية الادراك والتشكيلات؛ وهو لا يبتعد في الحالتين عن مسألة الحداثة. إنه ثمار عمل يدخل في ماضي الفرد وحاضره: في ما كان وفي ما يريد أن يكون عليه.

إن المسكن هو المجال المعماري الذي لا يؤخذ إلا بالبنية التي تنتجه بناء لحاجة ولواقع وتاريخ ولأسلوب حياة معين. فالاجتماعي هنا لا يخترق الهندسي فقط، بل يصل إلى اختراق الذاتي؛ فبالاضافة إلى العلاقة التي تجمع بين الفرد والمكان كعلاقة عاطفية وأمنية وتواجدية (وهذا ما يظهر على صعيدي اللغة والممارسة، وعلى صعيد دينامية الداخل والخارج)، هنالك العلاقة التي تربط الساكنين فيما بينهم (أهل ـ أولاد)، وتربط الساكنين بالخارج (التأقلم الاجتماعي والتأثر بالايديولوجيا[2] السائدة وبأنماط التربية[3]»).

المسكن هو المرأة الحقيقية لواقع الأسرة الاقتصادي والسياسي، خاصة وأن الحياة العائلية تركز داخل البيوت. فالناس الذين يعانون حالات سكنية

---

(1) المصدر نفسه ـ ص 67.

(2) لا بد من أن يظهر العامل الايديولوجي وكيفية تنظيمه في إطار السكن وعبر ممارسات أفراد السكن المشترك.

(3) كافة الاعمال التي تحدثت عن المساحة بنت علاقة وطيدة بين البنية الجسدية والبنية المجسدة، وهي علاقة ناتجة عن سير تربوية شاملة عرج عليها H. Raymond وقال بأن السكن ليس مكان إشباع فقط (أكل ـ شرب. . . الخ).

صعبة يعانون من مشاكل علائقية مختلفة؛ وبالعكس فإن الأفراد الذين يعيشون حالات اضطراب نفسي تنعكس على مساكنهم وعلى توزيعها وتقسيمها خارجياً وداخلياً. ومما لا شك فيه أن السكن المريح لا بد من أن ينعكس على ذات الساكن ومشاعره وأحاسيسه، أي على حالته النفسية[1].

البحث الذي نسعى إلى إتمامه، هو بحث نفس - اجتماعي، يلقي الضوء على زمنية ومكان وتوقيت (داخلها)، وبمنهج فرض الواقع أداته وموضوعه، فكانت الحاجة لانفتاح ليس على السوسيولوجيا والسيكولوجيا فقط، بل على التاريخ والانتروبولوجيا والعادات و«الموضة» والايديولوجيا، للاحاطة بمستوى التأثر بالمساحة ومدى محاكاة داخل الأعماق، ومستوى شغل المساحة وترتيبها وتنظيمها وكيفية إدراك الشكل فيها. فموقع السكن الاجتماعي يتمثل بخصوصية ثقافة أصحاب المسكن (كمستوى فردي)، وبخصوصية ثقافية فولكلورية للثقافة العصرية (كمستوى اجتماعي وانتربولوجي)؛ ولعل هذا هو ما يجب البحث عنه... من هنا يمكن التمييز بين شخصية هذا وشخصية ذاك، وعبر مؤشرات ودلالات مبنى سكنه.

نحن بحاجة للارتكاز على فلسفة سكن، إذا ما عدنا اليها وإلى جذورها نلمس تطوراً طرأ عليها بتأثير الثورة الصناعية، وما أنتجته من تقنيات ومن مواد دخلت على بناء السكن وتنظيمه، حيث أصبح فن العمارة فناً يهدف بالدرجة الأولى إلى تحقيق الاستقرار والحماية والأمان النفسي والمستلزمات الانسانية والاجتماعية[2].

---

(1) نلفت النظر إلى أن الاضطرابات النفسية لا تشخص فقط إنطلاقاً من المساكن وتوزيعها وتقسيمها خارجياً وداخلياً، بل هي مؤشر مهم، يضاف إلى بقية المؤشرات، فالمآزم النفسية تظهر أيضاً في المساكن المريحة!

(2) لقد تغير الواقع السكني في لبنان كثيراً، نتيجة التطور الذي طرأ على المفهوم الأساسي للسكن. لكن العوامل تداخلت وتفاعلت كلها، وأدت إلى أزمة سكنية حادة، تبرز خاصة في المدن. هذه الأزمة تتصلب جذورها في البنية الاجتماعية ككل: مشاكل قانون الايجارات، زيادة سكانية سريعة، كثافة النزوح الريفي، والتمركز في المدن، اختلال التوزيع الجغرافي للسكان، انهيار قيمة النقد الوطني، الاحداث الأمنية العسكرية.... وكلها تندرج في إطار العوائق التنموية.

لنقل بصراحة أن كل مفاهيم هذه الفلسفة ما زالت في طور التكون، ولم تنضج بنفس نضوج مفاهيم فلسفة أخرى (وخاصة على الصعيد العربي).

وكان هذا الأمر من أهم الصعوبات المباشرة التي واجهها البحث بغياب إطار نظري لفكرة تطرح نفسها بإلحاح... إنها فكرة تطال الهندسة المعمارية الأجنبية بشكل عام والعربية بشكل خاص. وكأن الحداثة طالت مباشرة شكل الهندسة المعمارية وموادها دون أن تركز دعائم مضمون هذا الشكل، فكانت الاهتمامات فيها تدريسية أكثر مما كانت فلسفية شمولية.

لقد اعتنى A.Rapoport وغيره على الصعيد الغربي بهذه الفلسفة. لكن مأزم الحداثة الحاد في بلادنا، كما سبق وعرجنا عليه، برز بوضوح في النتاج المعماري الضائع الهوية، وبعض الملامح؛ مما حدا باثنين في التفتيش جدياً عن هذه الظاهرة، والعمل على إيجاد حلول ودعائم وركائز لها. إنهما المهندسان:

«حسن فتحي» المصري الجنسية، «ورفعة الجادرجي» العراقي الجنسية.

ركز الأول على إيجاد معنى للهندسة ولعلم العمارة، فاعتبرها هي الحياة، وهي العلم، والفن الذي يتطلب البحث عن أدوار للمكان ولوظيفة المكان... ان الأبنية وحدات في نظام المدينة، والغرف وحدات في نظام المبنى. والمهم هو دمج الحميمية مع الحيز (أي دمج الذاتي مع الشكل) دون أن نفقد حسّ الانتماء إلى المكان الذي نحن فيه، ومراعاة نقلة الخارج والداخل.

أما الثاني فيطرح فلسفة خاصة بالنسق المعماري وبأهميته الشكلية والوظائفية. ففن العمارة هو علم يتناول البناء الفوقي الاجتماعي، وللعمارة وجهان: وجه مادي، ووجه معنوي، ولا بد عند النظر إلى فحوى العمارة من تناول كلا الوجهين. وإذا أغفل أحدهما يكون تنفيذ العمارة احادي الجانب غير متكامل؛ ذلك أنهما وجهان لظاهرة اجتماعية نحن بصدده، ألا وهي العمارة، أو ما فضلنا عليه في الدراسة استعمال تعبير مسكن؛ وهي مطلب اجتماعي... والذي يصمم العمارة هو المهندس، الذي بدونه لا عمارة منظمة، بل معه يصبح فن الهندسة المعمارية فناً فولكلورياً متولداً من الشعور الباطني لأي مجمع سكني؛ وهذا ما تدعمه التقاليد الموروثة. والمعمار هو الذي يولد الفن العلمي الأكاديمي.

نحن نطال، هنا، قضايا نظرية تربط بين التنمية والوعي. فالسكن دخل أمور التنمية، وساكن المسكن وصل إلى مرحلة من الوعي، (رغم حذرنا من استعمال كلمة وعي في هذا المجال)، وهو وعي جديد، نتساءل إلى أي مدى يقترب مع ما يدور في اللاوعي من هواجس.

إن التغيير الذي طال المسكن العربي، ربما يكون تغييراً هندسياً طال الشكل، ولم يربط هندسة الشكل مع محتواها برباط قوي، يحفظ هذا الشكل طويلاً... فالتوازن مفقود (وهذا ما يجتمع عليه في الرأي فتحي والجادرجي) وان ظهر فهو توازن قلق مرتبط إلى حد بعيد بالمصالح السائدة.

لقد أدى فشل المشاريع السياسية والوحدوية، والفساد الاداري، والاخطاء الفنية الكبيرة في العالم العربي كله وفي لبنان خصوصاً (ونخص بالذكر جنوبه أكثر من غيره)، أدى إلى الاعتماد على الذات التي حلت محل الموضوع... إن التعثر السياسي أدى إلى تعثر نفساني حكم على التغيير بالفطرية وبالبدائية؛ لأنه أخذ الطابع الفردي الطوباوي البعيد عن الجو المؤسساتي المضبوط[1].

ويمكننا القول أن المسكن هو قلب المجتمع وقلب المدينة... إنه حالياً تراتبية ووضعيات تحكم المجال العائلي... إنه مسكن يرتبط بموضوع إدراك المساحة، وهي عملية إتصال تنبئ عن مجتمع أو آخر، وتتم عبر مرحلتين اثنتين:

1 ـ **الأولى**: تصوير الشكل المرئي، كما هو مقدم.

2 ـ **الثانية**: إعادة تشكيلة في الذاكرة عبر رمز تحمله معنا، يكون قد أثار ذكرى أو إحساساً أو انطباعاً ما.

لكن أين درسنا فكرة السكن والمسكن ميدانياً؟

في الجنوب كانت العينة، وتحديداً على طريق مستقبل الجنوب، أحد أهم طرقاته المدروسة والتي تربطه ببيروت، وحيث نلحظ مشاهد من الحياة اليومية ودورتها فيه.

---

(1) د. عباس مكي ـ المجال النفسي ـ اجتماعي العربي ـ مصدر سبق ذكره.

والجنوب هنا هو جنوب لبنان، وجزء من المجتمع اللبناني الذي صنفه حليم بركات «مجتمعاً فسيفسائياً»، وليس مجتمعاً متجانساً أو تعددياً، كما هو الحال في بقية البلدان العربية. إن المجتمع الفسيفسائي «هو النقيض للمجتمع المتجانس؛ وهو يتألف من عدة جماعات تغلب هويتها الخاصة على الهوية العامة، وتتصف العلاقات في ما بينها بالتراوح بين عمليتي التعايش والنزاع وعدم القدرة على الاتفاق حول الاسس. ومما يرسخ الانقسامات بين هذه الجماعات، ويؤدي بها إلى التنازع، وجود فروقات في الحقوق السياسية والاقتصادية والمدنية وفي المكانة الاجتماعية، بالاضافة إلى «الفروقات في الهوية»[1]. وفي لبنان، إنبثق عن واقعه الاجتماعي نظام سياسي طائفي، عمل بدوره على تعزيز الواقع الطائفي، إنطلاقاً من دعوة القيادات التقليدية المسيطرة على النظام للوحدة على أساس التعايش، وليس على أساس الانصهار والاندماج؛ فازدهرت الجماعات المختلفة تمسكاً بهوياتها الخاصة بدل أن تتحرر منها[2].

وبناء على ما تقدم، تم اختيار الجنوب لعدة أسباب، أهمها خصوصيته في هذا المجتمع الفسيفسائي. كما أن موقعه الجغرافي المجاور للأراضي المحتلة في فلسطين، وأطماع الصهيونية في أرضه ومياهه، تزيده خصوصية، «بحيث أن مشروعات التنمية اقتصرت على تأمين الحد الأدنى من الحاجات الضرورية للسكان... ولا شك أن عدم توفر مجالات العمل أدى إلى النزيف البشري الكثيف نحو المدن الكبرى، خصوصاً مدينة بيروت، هذا بالاضافة للهجرة الخارجية التي كانت تمثل الأمل الوحيد أمام الجنوبيين للخروج من دائرة الحرمان، بحيث شملت موجات الهجرة نسبة عالية من القوى البشرية، خصوصاً من العاملين في القطاع الزراعي، إضافة لهجرة المتعلمين والمثقفين»[3]. هذه الهجرة بتعدد مقاصدها وما تبعها من هجرات معاكسة (من المدينة إلى الريف وتحديداً إلى جنوبه[4])، ساهمت بإدخال التمدن إلى

---

(1) د. حليم بركات ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 16.

(2) وهذا ما سنرصده لاحقاً في عينة الدراسة، وبالتحديد مع «عرب حبوش».

(3) د. علي فاعور ـ جنوب لبنان ـ الجزء الأول ـ دار الباحث 1985 ـ ص 8 ـ 9.

(4) نتيجة الظروف الامنية (الحرب الأهلية المتعددة المراحل والأطراف). والظروف الاقتصادية (غلاء المعيشة بفعل ارتفاع صرف الليرة اللبنانية وما رافقها من تدنٍّ في مستوى المعيشة).

الريف، وبازدياد مظاهر العمران التي شهدتها المدن والقرى الجنوبية (فكانت التجربة فيه مشابهة بعض الشيء لتجربة الخليج الذي انتقل وبشكل فجائي من البداوة إلى التمدن، من الريف إلى التجارة...). لقد كان هذا التمدن حافزاً على استقلال القرى، وعلى إيجاد البدائل، ليس فقط عن العاصمة، بل عن المدن المجاورة. واستمر التغيير، وتطورت معه العادات والتقاليد بحكم تطور زمني خاص وعادي (اختلاط مديني عبر العمل والدراسة والهجرة)؛ مما سمح بالانفتاح على المدينة، وهو انفتاح واضح، حيث نقلت القيم والمفاهيم وانتشر التعليم والوظيفة والمهنة، مما أدى إلى فقدان التوازن بين مفهوم القرية ومفهوم المدينة، خاصة وأن الكثيرين لم يعرفوا استغلال المساحات والمنازل والخارج....

هذا المسكن المبني (الذي اتجه أحياناً لكي يكون «فيللاً» أو قصراً)، أصبح النموذج الحديث و«الموديل» المحتذى الذي يكلف الكثير، ويطالب بسرعة الانجاز، لقد أصبح الأمان والحماية والتعويض عن نهم في النفس لمن يبحث عن المال والسلطة في ظل غياب الدولة الشرعية كلياً.

قسمت دراسة المسكن إلى ثلاثة أقسام أساسية:

قسم نظري، وآخر ميداني تطبيقي، وإلى قسم أخير فيه طرح للاستنتاجات العامة.

تناول القسم الأول «موضوعات منهجية ونظرية» ثمانية فصول قدمت للاطار النظري العام للبحث، وخاضت بين المجال الاجتماعي العام والمجال النفساني الخاص، وما يتبعهما، فتدرجت كالتالي:

- خُصّص الفصل الأول للمسائل والموضوعات المنهجية، فطرح مشكلية البحث وأسباب اختياره، والفرضيات الأساسية، إضافة إلى التقنيات المستخدمة. كما قدم هذا الفصل لعينة الدراسة وما تشكله من أهمية من منطقة الجنوب بشكل عام. وقدم أيضاً أهم المتغيرات التي اعتمدت عليها الدراسة.

- أما الفصل الثاني «المجال الاجتماعي العام» فقد قدم نظرياً معنى وماهية المجال وجملة النظريات والتفسيرات حوله. كما طرح بعض عناصر المجال الاجتماعي العام وكيفية قراءته.

- الفصل الثالث «مفهوم المدينة»: تعرضت هذا الفصل للمدينة كمؤسسة أولى من مؤسسات المجال العام وجزء منه ومعبرة عن الوعي الجماعي. فحدد المدينة ومعناها، وفكرة التخطيط المديني وأصوله، ومشاكل التنظيم المدني المحلي. وتطرق الفصل أيضاً إلى موضوع هجرة الريف إلى المدن وانعكاساتها الاجتماعية.

- الفصل الرابع «مدينة بيروت». والحديث عن هذه المدينة يعني الحديث عن خصوصية تاريخية لها. وقد فرضت هذه الخصوصية المقارنة مع المدينة الاسلامية العربية. كما أن الحرب الأهلية في لبنان قد غيرت الكثير من معالم المدينة القديمة، وحولت توجهاتها الاقتصادية والتجارية والمصرفية والخدماتية.

- طرح الفصل الخامس من القسم الأول موضوع «المجال النفساني الخاص» أو المسكن، فإذا كانت المدينة هي أول تعبير وتواجد للمجتمع داخل المجال فإن المسكن هو المساحة الأكثر داخلية للمدينة.

من أقسام هذا الفصل: تحديد كلمة مسكن، فلسفة المسكن، المسكن العربي.

- الفصل السادس «المسكن في لبنان».

مع بدايات هذا القرن، ومع تفشي ظاهرة الحداثة، بدأ الذوق ينقلب، ولم يفلت المسكن من هذا الانقلاب. لقد عالج الفصل السادس المسكن القديم والمسكن الحديث والفرق بينهما.

- أما في الفصل السابع، فقد تمَّ اختيار المرأة في هذا المجال، كمحدد للحداثة ومؤشراتها، وقُدِّمتْ وضعيتها الحالية والتطورات التي طرأت عليها مقارنة بالوضع القديم.

- وأخيراً خص الفصل الثامن من هذا القسم «منطقة جبل عامل»، وذلك ضمن تاريخيتها وجغرافيتها واقتصاديتها؛ لأن مدينة النبطية وامتداداتها في العينة تقع داخل هذه المنطقة.

أما القسم الثاني فقد قدم للدراسة الميدانية.

بدأ الفصل التاسع وهو الفصل الأول في هذا القسم بتحديد منطقة النبطية، وببيان خصائص المدينة والمحافظة.

أما الفصل العاشر فخلص إلى جمع الملاحظات التي أبداها مهندسين تم التقابل معهم.

- خلص الفصل الحادي عشر إلى جمع ملاحظات الدراسة الميدانية. ثم عرض الفصل الثاني عشر لتقنية الرسم كتقنية اسقاطية، إذ طلب من بعض تلاميذ مدارس العينة رسم مسكانهم. وتلاه الفصل الثالث عشر الذي اعتمد على تقنية المقابلة، وعرض رأي بعض المسنات المستجوبات داخل العينة للمجال السكني الحديث.

وقدم الفصل الرابع عشر للاستمارة ولاقسامها ولهدف أسئلتها. أما الفصل الخامس عشر فقد حلل وعالج معطيات هذه الدراسة، وصولاً إلى الفصل الأخير من هذا القسم وهو بعنوان «دراسة علاقات التقابل والمقارنة في أجوبة الاستمارة».

خص القسم الثالث والأخير الاستنتاجات العامة للبحث والمقترحات التي وزعت على فصلين: الفصل الأول: استنتاجات عامة.

والفصل الثاني: خاتمة عملت على تفسير ظاهرة العمار والسلوك الذي أنتجته.

القسم الأول

موضوعات منهجية ونظرية

- **الفصل الأول:** مسائل وموضوعات منهجية.
- **الفصل الثاني:** المجال الاجتماعي العام.
- **الفصل الثالث:** مفهوم المدينة.
- **الفصل الرابع:** مدينة بيروت.
- **الفصل الخامس:** المجال النفساني الخاص ـ المسكن ـ.
- **الفصل السادس:** المسكن في لبنان.
- **الفصل السابع:** رؤية في الجنسية وموقع المرأة في المجال.
- **الفصل الثامن:** منطقة جبل عامل.



الفصل الأول

مسائل وموضوعات منهجية

I ـ المشكلية

يشهد الجنوب بشكل عام، ومنطقة النبطية[1] بشكل خاص، حركة عمرانية جديدة ومتطورة. هذه الحركة، رفعت أسعار الأراضي، خاصة تلك الموجودة على الطريق العام المسماة «اتوستراد» ما بين جانب النبطية والزهراني. وغلب في كثير من الأحيان الطابع التجاري على الطابع الاسكاني، وانتقل فيها المجتمع بسرعة ومن مجتمع قروي إلى مجتمع يتشابه كثيراً ويتطابق مع المجتمع المديني، وتحول النمط المعيشي الذي تغيّر جذرياً من نمط زراعي إلى نمط رأسمالي، يعتمد أساساً على التجارة والخدمات، وبدأ يعتمد على الصناعة بشكل أو بآخر.

يواجه هذا الاتوستراد، إذاً، هجمة تحضر مرفقة بنمو مفرط للقرى الواقعة بالقرب منه، بحيث اقتربت من مواصفات المدن، فتوسع التعليم، وكثرت المدارس والمصانع والمصارف والمؤسسات التجارية؛ مما شجع عملية السكن حوله.

وإذا ما فتشنا عن الأسباب، فهي متعددة ومختلفة، لكنها أثّرت مباشرة على مفهوم العمران، وحرقت مراحل تطوره الطبيعي. نذكر منها:

1 ـ أسباب جغرافية

أ ـ هجرة خارجية، لقد أصبح هذا النوع من الهجرة ظاهرة عامة، نتج

---

(1) النبطية هي النموذج المدني العربي الذي يمكن أن يطبق على غيره من المدن.

عنها المال الوفير والأرباح المتزايدة (لدى تحويل الأموال بعد هبوط صرف سعر الليرة اللبنانية). لكنها تجربة لم تخلُ من القساوة والمعاناة على الصعيد النفسي؛ لأن الهجرة الخارجية تُجسّد عمليات الصراع والتداخل والتفاعل الذي يمكن حصوله ما بين الأكثرية ـ المقيمة والاقلية ـ الوافدة.

إن في ظاهرة الاغتراب هذه، قساوة وغربة نتيجة الانتقال من بيئة إلى أخرى، ولا سيما أنها تحمل معها احتكاكاً قسرياً، لكنه مباشرة، بثقافة أهل البلد المُهَاجِر إليه، فارضة تكيفاً مستمراً للدخول في عملية التكامل. ومما لا شك فيه أن ثقافة البلد المُهاجر إليه هي ثقافة مختلفة عن ثقافة أنماط التجمعات التي تُستحدث في أحوال الهجرة الداخلية كالتجمعات العاملية في الضاحية الجنوبية لبيروت، وحيث تنتقل في أغلب الأحيان العادات والقيم الأصلية مع المهاجرين الذين عاشوها داخل نسقهم الجماعي الجديد.

إلى أين كانت وجهة الاغتراب؟ هاجر أغلب مغتربي المنطقة صوب افريقيا، وبعدها صوب دول الخليج، وأرسلوا أموالهم إلى لبنان، إذ استفادوا مؤخراً من أرباح فارق تحويل العملة، وتوجهت هذه الأموال في السنوات الأخيرة إلى البناء وعلى أحدث الطرز والمستجدات المعمارية.

ب ـ **هجرة داخلية**، من الريف إلى المدينة، وخاصة العاصمة، وفرضت بدورها قيماً جديدة، ونمطاً جديداً من الحياة اليومية، وساعدت لاحقاً على إدخال المدن إلى الريف؛ لأن أغلب هؤلاء الوافدين إلى بيروت عادوا أدراجهم إلى قراهم بعد الحصارات الأمنية والاقتصادية السابقة في العاصمة، وبعد أزمات السكن المتتالية، وغلاء المعيشة المتزايد فيها.

ج ـ **وجود النبطية كمدينة** وكمركز مهم، ساعد في عملية التفاعل الحضاري والمديني بينها وبين باقي القرى المجاورة. كما أن نظام اللامركزية الجديد وغير المقصود (نتيجة الحرب)، أعطى مدينة النبطية الكثير حتى الاستقلالية الادارية، وأحياناً السياسية، عن العاصمة، وأتيحت الفرص لإحلال نظام اجتماعي بديل، عمل على التقليل من السلطة الأبوية، التي كانت تفرض مشاركة في السكن واستقل كل فرد بمنزله، حتى لو كان قريباً من مسكن الأهل الأصلي.

د ـ **اختصار المسافات الجغرافية** ما بين المناطق لوفرة استعمال السيارة،

ولانتشار عادة القيادة بين الناس؛ مما ساعد على الانفتاح والتدامج، وعلى سهولة استيعاب التكنولوجيا الحديثة (كانتشار استعمال الأدوات الكهربائية على أنواعها داخل المسكن وخارجه)؛ مما ساعد على إيجاد سبل الراحة، وعمل على التغيير في الفكر وفي نمط المعيشة اليومي.

2 ـ أسباب ثقافية

أ ـ **إمتياز سكان أهل الجنوب بشغفهم في تحصيل العلم والثقافة** والاجتهاد. وغصّت منطقة جبل عامل بالمدارس وبطلاب العلم، وتخرج منها الألوف، ونبغ فيها العلماء، وكثرت مكتباتها القديمة وهاجر اليها الكثير من العلماء كناصر بن ابراهيم البويهي، والمولي عبد الله التستري، وأحمد بن مهند محلي[1]...

يشرح هذا الأمر الامام السيد محسن الأمين، في كتابه «خطط جبل عامل» قائلاً: «... وفي أوائل الفتح الاسلامي ويتقدم في ذلك فضلاً عن المتعلمين منهم... عاملة السبئي الشعراء والعلماء والقواد والأمراء... ونبغ فيه من القرن السادس الهجري أو قبله إلى اليوم في كل عصر من العلماء في كل فن والشعراء والأدباء والكتاب العدد الكثير الذي يفاخر به جبل عامل سائر الاقطار، ويفاخر بهم عصرهم سائر الاعصار.. لا توجد قرية من قرى جبل عامل لم يخرج منها جماعة من فضلاء الامامية وفقهائهم. وجميع أهالي جبل عامل الخواص والعوام والشريف والوضيع يجهدون في تعلم وتعليم المسائل الاعتقادية والأحكام العرفية طبق مذهب الامامية... ومع تسلط الرومية «العثمانيين» يظهرون همة فائقة في نشر مذهبهم»[2].

ب ـ **انتشار وسائل الاعلام** السمعية والبصرية وسهولة الاستماع اليها أو مشاهدتها والتأثير بها، خاصة في ما تقدمه من أنماط معيشية جديدة مؤثرة ومغيّرة.

---

(1) الامام السيد محسن الأمين ـ خطط جبل عامل ـ الدار العالمية. 1183 هـ هذا وقد أسند الأمين تكراراً إلى أهل الجنوب صفة الذكاء والنبوغ!

(2) المصدر نفسه ص 72.

3 ـ أسباب سياسية

إضافة إلى روح العامليين الثورية، وما قاموا به من أدوار في أثناء الحكم العثماني والانتداب الفرنسي، فإن الفترة الواقعة من 1973 ـ 1982 كانت فترة مهمة في استقبال فعل الحداثة في المنطقة، حيث لعبت القوى والتيارات الحديثة دوراً سياسياً مهماً، وكانت عامل انفتاح أساسي ساعد على إبراز وعي متجدد للجماعة وللافراد. لقد عملت هذه القوى على إقامة الندوات الفكرية والمحاضرات والمهرجانات والتجمعات الفنية والثقافية والسياسية؛ مما ساهم بشكل أو بآخر باحياء الفكر والثقافة بين عامة الأهالي.

أدت كل هذه الأسباب، يُضافُ اليها أسباب أخرى لسنا بصدد دراستها حالياً، إلى الانفتاح. لكنها أدّت في المقابل إلى تزايد ظاهرة الاستغلال والربح التجاري والتركيز على المادة والشكل، فكان الاعلان عن بدءٍ لثنائية في المفاهيم وفي القيم... و... كان... الدخول إلى المدينة التي تُعرّف بنظام مديني ثقافي محدد (بالمعنى الانتروبولوجي للكلمة) خاضع لمنطق خاص في التغيير والتطور؛ مما انعكس بإدخال عادات جديدة وأنساق حياتية مختلفة عن أنساق الريف، خاصة في ما يطال نظام القيم الاجتماعي، فتنافس الريف والمدينة وتسابقا....

إلاّ أن تمدد المدن هذا، حدا بنا إلى سلسلة من التساؤلات:

ـ هل إن هذا التمدد سيخلق مناطق مدينية تمتد وتتداخل بمعزل عن النظام الريفي القديم[1]، أم أن أهمية الثقافة الريفية التقليدية لم تنتفِ؟

ما الأسم أو المصطلح الذي نطلقه على هذا النموذج المهيمن حديثاً؟

وهل هو نموذج تطور القرية أم انقلابها؟ أم أنه جزء مهجّر من المدنية؟

ـ كيف تبدو تلك الازدواجية أو الثنائية التي أشرنا اليها؟ هل بدأت بالانقراض مع قديمها؟ ما هو الثابت وما هو المتحول في الثقافة وفي السلوك؟ وما هو الفرق بين القديم والحديث؟

---

(1) هذا ما يحصل حالياً في كافة المناطق العربية تقريباً، حيث تمر بمرحلة الخلق والانتاج بدون نضجٍ كافٍ وتحت تأثير العوامل الخارجية، في عصر يعرف فيه المجتمع الآخر النضوج والتطور المستمرين.

ـ ما هي أوجه التقارب والتباعد بين المساحة القروية والمساحة المدينية؟

ـ ما هي سمات كل من العمل المعماري الحديث والعمل المعماري القديم؟

ـ ما هو موقع جبل عامل ومنطقة النبطية بالذات من عامل التغيير والتموّض والحضارة؟[1] هل هذا التغيير هو تغيير داخلي أم أنه عنى الشكل أكثر مما عنى الفكر وبقي على المستوى السطحي ولم يطل المضمون؟ هل طال الفئة المثقفة؟ أين موقعه من نظام القيم الاجتماعي السائد؟ هل دفعت هجمة التغيير المديني إلى تعويض شعور بالنقص لدى ابن القرية وجعلته يتباهى أمام ابن المدينة: «أصبح لدينا كل ما يوجد لديكم، فلا داعي للاستهزاء وللفوقية»؟ . . .

ـ ما هي حقيقة الفرد النفسانية حالياً، بعد أن أقام حدوده مع المحيط والمساحات الفيزيائية من حوله؟ أين الذات من المكان؟

إن كل تطور في مجتمع ما، لا بدّ من أن يجرّ معه، وبدون أدنى شك، تطويراً مرصوداً في المساحة، حيث يتطور ويطال هذا التطور التبادلات والتفاعلات اليومية، ويقرأ التغيير على مستوى محلي، في حضن المجال الاجتماعي الذي يكوّن المجتمعات الحديثة، خاصة أن التغييرات التاريخية المعيشة عبر توزيع وتقسيم العمل تنتج، وتبعاً لسرعة ولكثافة متنوعة، تغييرات في نمط العمل، والحياة تقلب شروط الواقع وتطوره. «فالهجمة»، هنا، طالت المجال القروي بعمق وبشكل مميّز، وتنظيم المسكن (وحدة الدراسة). هذا المسكن الذي تحول بسرعة إلى سكن مدني ـ حديث، وشكل وحدة أساسية

(1) مفهوم الحضارة هنا، مفهوم تعرض له «فرويد» في كتابه «قلق في الحضارة»، والذي ترجمه «جورج طرابيشي». رأي فرويد أن «الجمال والنظافة والنظام تحيل مكانة خاصة وهو من بين مطالب الحضارة. . . إذا لم يكن للانسان أن يزعم أن أهميتها تماثل أهمية السيطرة على قوى الطبيعة، هذه السيطرة حيوية جداً أو تعادل أهمية عوامل أخرى ما يزال علينا أن نتعلم كيف نعرفها، فليس لانسان أن يخفض منزلتها بطوع إرادته إلى مرتبة الأمور الثانوية. ومثال الجمال الذي لا يسعنا أن نقبل بنفيه من عداد مشاغل الحضارة واهتماماتها يكفي وحده لكي يبين لنا أن الحضارة لا تصنع أعينها النافع دون غيره. . . لكننا لا نستطيع أن نتخيل سمة أكثر تميزاً للحضارة من القيمة المعلقة على النشاطات النفسية العليا من إنتاجات فكرية وعلمية وفنية، ولا مؤشراً ثقافياً موثوقاً كالدور القيادي المنسوب إلى الافكار في حياج الشر. وبين هذه الأفكار، تحتل الأنظمة الدينية أرفع مكانة في سلم القيم» (ص 47).

من المجال العام، وعكس لغة وقواعد خاصة. فالانطلاقة الأولى تركز على أن الشكل الفيزيائي هو نتيجة سلسلة من العوامل السوسيولوجية والثقافية، تلحقها التطورات التكنولوجية والمناخية.

وأظهرت النتائج فوضى في المكان وفي المجال الذي لم يكن مؤهلاً بعد لاستيعاب هذا التطور، فانعكس فوضى وصعوبات، تجعلنا نتساءل عن ديمومة هذا الواقع وسيرورته، خاصة ان حركة العمران المتسارعة لم تخفف شيئاً من أزمة السكن، بل اقترنت بظاهرة اقتصادية تميّزت بالطفرة المبعثرة، حيث تركز الانفاق على مصالح الذات الغرائزية الضيّقة بدل أن يتركز على المصلحة العامة والعليا[1].

II - فرضيات الدراسة

إنطلاقاً من المشكلية، واستناداً للخلفيات النظرية التي اعتمدت عليها هذه الدراسة، نفترض أن التغيير في المساحة وفي المجال الاجتماعي أدى إلى تغيير في المساحة وفي المجال السكني، وأثر لاحقاً على تكوين الشخصية القاعدية الشيعية، مع تأكيد على أن هذا النوع من التغيير يسمح لنا باستعمال كلمة «طفرة»؛ لأن مفهوم «الطفرة» يحمل ظهور ملامح جديدة وبشكل فجائي يصبح بالتالي «غير مفهوم تلقائياً، ويفتقر إلى المنطق الواضح في العمليات المكونة له»[2]؛ مما يشير إلى عمليات تغيير على المستويات المتعددة في الظاهر وفي الكامن، على صعيد الواعي واللاواعي، وتركزت كل الآمال، وفي هذه الطفرة، على بناء وحدة مسكنية (مسكن)، تدغدغ أحلام ومشاعر الانسان العادي؛ وغير العادي لأن بناء «العمرة» هنا أصبح هو المعيار.

أ - إذا كان مجتمع قرى خط الزهراني - النبطية (كباقي المساحة العاملية الأخرى) مجتمعاً نصف مديني (semi-urbain)، كما يقال، ويعكس خصوصية المدينة عبر تجمعاتها البيروتية أو الاغترابية أو الهجراتية، وهو نموذج غير معرّف عنه تماماً بعد، ولا يمكن نعته بالمديني المطلق ولا حتى بالريفي

(1) د. عباس مكي - المجال النفس اجتماعي العربي - مصدر سبق ذكره.

(2) د. زهير حطب - د. عباس مكي - الطفرة والشباب - معهد الانماء العربي - بيروت 1980 - ص 12.

المتحضر. . . فإنه مجتمع في طور النمو والنضوج نحو الحياة المدينية، فترك كل ممارساته وعلاقاته بالتراث وبالتبادل الاجتماعي الريفي القديم، فانعكس ذلك على جملة العلاقات التي يفرزها؛ فتبدل نظام القيم والعلاقات بشكل جذري، وذابت الشخصية القروية، خاصة على أثر تزايد تواجد التجمعات العمالية والتجارية والتقنية التي أثرت على الفكر، ولم تَبْقَ العلاقة مع الريف إلا علاقة وهمية. لقد اتصل الريف بالحضر إتصالاً مباشراً. . . لكنه اتصال يعلن أن العودة مستحيلة للماضي الريفي، وكان استيراد ساء تكيفه مع واقع وحقيقة البلد (خاصة على صعيد العمارة ورغم الشكاوى من فوضوية التنظيم المدني في الغرب) بغياب تخطيط موضوعي إداري موجه. وكنتيجة له، كانت تلك الطفرة التي حرقت مراحل النمو الذاتي والطبيعي، والتي تعارضت مع مفهوم «الماضوية» الذي تحدث عنه «أدونيس».

ب ـ انعكست هذه الطفرة وبشكل أساسي في طفرة عمرانية وفي إنفلات سكني ذاتي لا جماعي، بعد أن كان المسكن القروي بوحدته عشائرياً متواضعاً وبسيطاً يهمل عناصر مواد البناء الغنية المسرفة. . . فتضخم الخاص على حساب العام؛ إذ أنه أمام إضمحلال المفهوم الجديد للجماعة يبرز مفهوم وعي الذاتية الجديد (individualisme)، ويدخل الفرد، خاصة الفرد المغترب في عملية مباهاة شكلية وتنافسية عبر بناء ضخم فخم ذي مساحات شاسعة، ليؤكد تمايزه، وليعوّض ربما عن دونية ما. . .

يحقق هذا البناء، المهندس الذي ينقل بدوره بعضاً من تخيلاته وأحلامه، ويترك التساؤل حول تأقلم الشكل والمحتوى. لكنه أكّد فرض علاقات اجتماعية سادت حتى بين أوساط السكان الأصليين، وعكست البنى الهندسية المعمارية الحديثة التي ألغت النظام الهندسي للمسكن القديم كلياً، وغيّرت لاحقاً في العلاقات العائلية[1]، وفتحت الباب واسعاً أمام الاسرة

---

(1) يقول فرويد في كتابه «قلق في الحضارة» (ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت 1977)، أن آخر سمات الحضارة ولكن بشكل تأكيد ليس أدناها شأناً تتجلى في الكيفية التي تنظم بها علاقات البشر فيما بينهم. هذه العلاقات، المسماة بالاجتماعية، تخص الكائنات البشرية إما بصفتهم جيراناً ببعضهم بعضاً وإما بصفتهم أفراداً يبذلون ما أوتوا من قوة كي يساعدوا ويتعاضدوا، وإما بصفتهم مواضيع جنسية لافراد آخرين، وإما بصفتهم أعضاء في أسرة أو في دولة.

النواتية، وأمام تطور ملموس للادوار الانثوية ولوظائفيتها، وتقاطعت حركية الحياة الاجتماعية مع حركية مساحة السكن.

ج - ارتبط تطور استخدام المساحة ومسألة التكيف مع الأشكال والتوزيعات الجديدة بتطور طرأ على «الشخصية الشيعية» وعلى «العصبية الشيعية»، وبرزت الكيانية والهوية الشيعية بشكل صارخ بعد أن كانت مطمورة ومحرومة وغير مستقرة أمنياً واجتماعياً، وغير منفتحة بنفس النسبة الحالية، وبعد أن كان الجنوبي - الشيعي بتحدٍ مستمر مع واقعه منصرفاً إلى بناء شخصيته وثقافته القومية ،الفكرية، فلم يعط وقته للبناء وللتجارة وللانفتاح، كما هو عليه الحال اليوم... فواقعه اليوم أتى كردة فعل على قهر اجتماعي وقمعٍ نفسي، طال أمده، وطالت معاناته، إلى أن شعر بشكل أو بآخر بالمساواة مع الغير وبتحرر من الحرمان الماضي.

III - تقنيات البحث

يهدف هذا البحث إلى معرفة سياسة السكن الجديدة في مجتمعنا المحلي في اتجاه واحد: من المدينة إلى القرية، ضمن توجه سوسيولوجي نفساني - انتروبولوجي[1] لظاهرة لم تزل في طور التعبير عن نفسها وفي طور الغليان والثورة، وفي منطقة تكثر فيها النماذج وتتنوع، في ما خصّ المكان الاجتماعي العام والمكان السكني الخاص.

لدراسة هذه الظاهرة في مجتمعنا المحلي، وجدنا أننا بحاجة إلى نوع من التآزر بين مناهج عدة تتكامل معاً في التعرف على الجوانب المتعددة للظاهرة. وعلينا أن نميّزها بين التعميمات النظرية والنتائج الامبريقية؛ لأن الأولى تعبر عن البحث والتنقيب والتفسير، والثاني تعبّر عن «مراحل موقوتة»[2].

---

(1) مما لا شك فيه أن اختيار المنهج مشروط بتحديد المجال النظري الذي يمكن أن ينتمي اليه هذا البحث. وهو هنا حديث وغير مبني أساساً، لذا فنحن ملزمون بالاستناد لعدة توجهات وتفسيرات.

(2) صلاح قنصوه - مناهج بحث المجتمع المحلي. مجلة الفكر العربي - عدد 37 - 38 - ك^2 - أيار 1985 - ص 379.

لذلك اعتمدنا بعد التركيز على إطار نظري عام الاستعانة بثلاث تقنيات تجريبية: الاستمارة، المقابلة، وتحليل المضمون، وهذا يعود لأسباب ثلاثة:

1 ـ الدخول في فهم أعمق وأفضل لمجتمع العينة، خاصة أنه لا يوجد وثائق مكتوبة. الوثائق هنا هي الأشياء والأبنية والتجمعات، الأشياء هي المعلومة وهي الدلالة. والهم ليس دراسة أشكال وأنواع البناء فقط، بل درس الواقع المعيشي وما ينتج عنه.

2 ـ عدم الوقوع في خصوصية ومحاذير منحى تجريبي واحد؛ لأنه من المعلوم أن الإجراءات الاحصائية لعينة اجتماعية ما؛ لا يمكن أن تجعل منها حالة ممثلة ومستوفاة ويسهل تكرار التجارب على مثيلاتها[1].

3 ـ عدم جدوى درس البناء من زاوية زمنية لمعرفة تطوره، أو لمعرفة فكر المهندس المعماري.

إننا ندرس الموضوع من خلال ازدواجية الرباط بين السلوك والشكل؛ لأن الأشكال المبنية التي تحمل في طياتها مشاعر وعاطفة، تحدّد نمط السلوك الذي تأثرت به.

1 ـ الاستمارة

ضمن استمارة البحث أسئلة هدفت للتعرف إلى **آلية التأقلم مع المكان ومع المحيط ورصد التطور انطلاقاً من مدينة النبطية كمرجع وكشاهد في سبيل معرفة تأثيراتها المدينية وامتداداتها على محيطها**. فما هو الفارق الظاهر بين علاقات الناس في الريف وبين العلاقات السائدة بينهم في الحضر؟ هل أخذ يُحصر في دائرة التشابه والتماثل أكثر مما هو حاصل في التباين، على إفتراض أنه لا توجد معيشة ريفية محضة، أو معيشة حضرية صرفة في وقتنا الحاصر؟ وقد وجدنا أن نوع الاستمارة الملائم لدراستنا هو استمارة المسكن العائلي:

فالظروف الموضوعية لكل جماعة تحدد، وبنسبة كبيرة، نمط السلوك الاقتصادي الذي يتبناه أعضاؤها، كما تبيّن نمط العلاقات السائدة داخل الاسرة (أهل/ أولاد ـ عدد الأولاد المرغوب بهم ـ مشاريع التربية ومستويات تطلعات

(1) المصدر السابق ص 381.

الأهل الاجتماعية انطلاقاً من أنهم يسقطون ذاتهم عبر أطفالهم ـ مشاريع أوقات الفراغ وكيفية تمضيتها ـ إهتمامات الزوج والزوجة الخ. . .).

إن طريقة تربية الطفل تمثل دوراً حاسماً في تعيين نوعية الشخصية من حيث ارتباطها بمجتمع معين ودلالتها عليه؛ ولذا فإن فهم طرق تربية الطفل: كيف تبدو من خلال نمط السكن وكيفية توزيعه يؤدي إلى فهم السلوك الاجتماعي ودوافعه في المجتمع. «يستمر الوالدان طول مرحلة الطفولة في تمثيل دور خطير الأهمية في ما يتعلق بضبط دوافع الطفل وإرواء حاجاته وتحديد مقاييسه والتأثير في مختلف مراحل نمو الأنا كما في نتائج هذا النمو. إن التغييرات الاجتماعية التي تطرأ على طرق تربية الطفل وعلى تجارب الطفولة تنبع قبل كل شيء من موضع الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها العائلة. أي من مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، كما تنبع من وضعها الاثني والديني والاقليمي»[1].

2 ـ المقابلة

إعتمدنا المقابلة نصف ـ الموجهة، والتي جرت مع الفئات التالية:

أ ـ المسؤولين عن كل قرية من قرى العينة (المختار أو من ينوب عنه)، ومع محافظ مدينة النبطية بهدف التعرف إلى واقع القرى عن قرب وبشكل مباشر، (في ما خص السكان والبناء والمياه والكهرباء والمواصلات والنفايات والمرافق الدينية والتربوية والصحية، الأحياء القديمة والحديثة، إضافة إلى أسئلة أخرى عامة تخدم هدف البحث).

ب ـ مع المهندسين بهدف معرفة رأيهم حول أسباب الطفرة العمرانية في الجنوب وتاريخ طلوعها وتعامل الناس معها، وعن نوع مشاريعهم ومدى تقبّل الناس لهم، وأيضاً عن عناصر هذه المشاريع. ففكرة الهندسة المعمارية هي بشكل أساسي صورة لمنظوم، تقيم علاقات بين البشر، وليس فقط منظومة علاقات بين الأشياء، ولا يمكن تصور هذا النوع من الهندسة بدون مهندس معماري.

---

(1) د. هشام شرابي. مقدمات لدراسة المجتمع العربي ـ الطبعة الثانية ـ الدار المتحدة للنشر ـ بيروت 1975 ـ ص 50.

حاولنا عبر هؤلاء المهندسين معرفة سمات العمل المعماري الحديث ومقارنته مع القديم؛ لأن العمل المعماري له وظيفة إخبارية وكيان مستقل. إنه خطاب تعريف ووعي للذات. . .

ج ـ مع ملاكين لبنايات أشيدت على أرض العينة (لمعرفة دوافعهم)، ومع تجار وأطباء وغيرهم (لمعرفة توجههم ومدى تعلقهم بالمدنية أو استقلاليتهم).

د ـ مع نساء مسنّات يسكنّ المنازل الحديثة لمعرفة رأيهن وفهمهن للسكن الحديث، والفرق بينه وبين القديم، بهدف رصد تأقلمهن في حياتهن اليومية مع المستجدات والممارسات الاجتماعية التي فرضها السكن الحديث.

وقمنا بمحاولات مع المسنين لا نتمكن من القول بأنها محاولات رديفة، لكنها كانت للوقوف على تفاصيل المسكن القديم. إضافة إلى مقابلة مطولة مع أصحاب قصر آل الدرويش القديم الذي رَمَّمَ وما زال محافظاً على معالمه وطرازه.

هـ ـ مقابلة مع مدير عام التنظيم المدني للوقوف على رأيه الخاص بالطفرة ـ موضوع الدراسة ـ وكيفية تعاطي مصلحة التنظيم المدني معها.

نلفت النظر إلى أن كل أنواع هذه المقابلات تمت في الدراسة الميدانية الاستطلاعية التي ساهمت في بناء الاستمارة لاحقاً، ما عدا المقابلة مع النساء المسنات بحيث فضّلنا استجوابهن في مرحلة أخيرة من الدراسة الميدانية، لما تقدّمه من حالات صالحة للدرس وضمن المحور الأساسي «التغيير». إن الكلام والمحادثة مع الناس يدلّ على كيفية إدراكهم وبنائهم للهوية الذاتية، وهو الذي يسمح لاحقاً بفهم بنية الشخص ومجالات اسقاطاتها ومدى تفاعلها مع المسكن.

3 ـ تحليل المضمون

وقد كان في هذه الدراسة على نوعين:

ـ كمي، طال أجوبة الاستمارة.

ـ نوعي، طال أجوبة المقابلة، وركز على أفكار المستجوبين للوصول إلى دلالات وضعية سكنهم.

هذا إضافة إلى تحليل مضمون رسومات أطفال بعض المدارس هناك (من رسمية وخاصة). تحليل مضمون رسوم الأطفال هذا لم يكن عيادياً بالمعنى الدقيق للكلمة، بل هدف إلى إظهار خطوط عريضة لرؤى الأطفال لمنازلهم وكيفية استيعابهم هذه الصورة في حياتهم اليومية عبر رسومهم وما تتضمنها من دلالات. لقد عبرت هذه الرسوم عن كيفية فهم الطفل لمجاله الخاص. فالمسكن هو مجال مقدس لكونه مجال تجربة الحياة الأولى.

IV ـ عينة الدراسة

بعد الدراسة الاستطلاعية الأولية حصرنا العينة في الخطّ الممتد من الزهراني بعد مدينة صيدا (شمالاً)، حتى النبطية شرقاً. ولمزيد من التحديد والدقة أخذنا القرى التالية الممتدة على هذا الخط:

1 ـ زفتا.

2 ـ بفروة.

3 ـ دير الزهراني.

4 ـ حبوش.

وتأتي النبطية كحاضرة من حواضر جبل عامل الثلاث، إضافة إلى الخيام وبنت جبيل، ضمن هذا الخط المستقيم كمدينة مرجعية عملت وساهمت في إدخال مفهوم التمدين إلى القرى المجاورة لها والتأثير عليها، فكانت النواة والمركز.

هذا الشريط الذي تم اختياره للدراسة هو جزء من خط النبطية ـ صيدا، ويمتد من جسر الزهراني حتى مستديرة مدخل النبطية (مثلث كفر رمان ـ حبوش ـ النبطية) بعرض يقارب السبعة عشر متراً من الاسفلت. أما إذا جمعنا الاسفلت مع حواشي الخط الترابية على الجانبين فيصبح حوالي خمسة وعشرين متراً. أما طوله فيقارب السبعة عشر كلم.

تشكل عينة الدراسة هذه عمود المنطقة لما تقدمه من أهمية في المواصلات وفي التجارة. كما أنها تعتبر قريبة من العاصمة بيروت، وهي ذات خصوصية واسعة تمثل الامتداد المديني الذي بدأ يظهر في العشرين سنة الأخيرة وبلغ أوج تطوره في السنين العشر ما بين 1980 و1990؛ مما يدعونا

لاحقاً للدخول في تحديد زمني لتاريخ التطور المعماري الممتد على طول خط العينة التي سبق أن تعرضت إلى هجرة ونزوح مناطقي بفعل الاحداث الداخلية وبفعل مسألة الأمن والتواجد الفلسطيني السابق الذي جاء بعده الاجتياح، ومن ثم التواجد الاسرائيلي؛ مما أثر سلباً وإيجاباً على تطور مفهوم العمران.

يشهد هذا الخط، خط العينة الممتد من الزهراني حتى النبطية، نمواً في التجارة وفي الصناعة وفي قطاع الخدمات؛ مما شجع عملية البناء على طرفيه وبما جعله يقترب إلى الصفات المدينية أكثر منه إلى الصفات الريفية. وهذا ما ساعدنا على اختيار العينة التي يمكن أن تكشف بوضوح عن ظاهرة الطفرة العمرانية في الجنوب.

أما في ما يخص صياغة أسئلة المقابلة والاستمارة فقد تمت بناء على تركيزنا على متغيرات أساسية مهمة ومحدودة (تنطلق من العام إلى الأكثر خصوصية):

1 - متغير سوسيولوجي عام يطال مستوى العمر والحالة الزوجية والتعلمية والمهنية والثقافية والسلطوية، ويرصد حال الجماعة والتغيرات التي طرأت عليها، ونظامها القيمي، والفروقات الريفية - الحضرية الخ... فالسكن علامة مفارقة بين الناس (كالمأكل والمشرب...)، ويمكن أن يندرج في إطار هذا المتغير متغير طائفي، تحملنا التركيبة اللبنانية على عدم إهماله.

2 - متغير عائلي، فنوع الاسرة يعطينا فكرة عن نوع السكن، وبالتالي عن نوع التوازن الجديد للادوار. يستند هذا المتغير على علاقات القرابة (الجدة - الجد - الخال - العمة - الأقارب عموماً) التي تظهر نوعية الاسرة وحياتها اليومية وتوزيعها وتقسيمها للمساحة وحميميتها واستقلاليتها (كما هو الحال في Bethnal Green قرب لندن)[1]، وديناميكية علاقاتها الداخلية (كالعلاقة الوطيدة مثلاً بين الأم والبنت في المناطق المدينية وليس الريفية فقط... هي ظاهرة عامة تنتشر أيضاً في البلدان الصناعية)، وعلى عناصرها الايديولوجية والفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية (خاصة أنه في لبنان ما زال العامل الايديولوجي والسياسي مسيطراً).

---

(1) M. Young: Le village dans la irlle. center G. pompidon - collection alores. Paris 1983.

فمفاهيم الأسرة تتعلق (أو تنعكس على) بالمسكن، وأي تغيير يطال هذه المفاهيم ينعكس على الطفل داخلها، وعلى كيفية استعماله لمجاله وما يتقدم له من قبل الراشد، وكيف يؤثر كل ذلك على تنشئته ومفاهيمه ومخيلته.

إن طرح العلاقات بين المتغير الأسري والمسكن ينطلق من مسلمة الترابط الوثيق القائم بين هذين الطرفين، لأن العائلة باعتبارها ثقافة ومجموعة من التفاعلات تعبر عن نفسها أيضاً عن طريق امتدادها في المجال، حيث تقيم السكن الذي يبدو لها أكثر استجابة لقيمتها ولنمط عيشها. لكن في الحالات التي تضطر العائلة فيها إلى اقتناء سكن جاهز، فإنها تتكيف آنذاك مع ضغوطه... إلى حد يصير معه احتواء السكن للعلاقات العائلية أقوى من التأثير في الاتجاه المعاكس[1].

٣ ـ **متغير أنثوي علائقي**، هذه الممارسات اليومية، التي سبق تحديدها، تتّسم بحركات وبعادات، وتعرض ثوابت، وتوزع أدواراً بين الرجل والأولاد في علاقة مباشرة مع الأنثى. وهذا ما يظهر بشكل واضح في دول العالم النامي. والتي تحمل أكثر ما تحمل في ملامحها وضعية القهر هي المرأة)... إن علاقة الأم بابنتها (الأم ـ الابنة)... وعلاقة الشريكين (الزوج ـ والزوجة) هي علاقة وظائفية تشير إلى عملية الانتقال الشكلي أو المضمون لتطور المنزل والساحة، كما أنها علاقة رمزية تحمل الكثير من القيم والمعتقدات والوضعيات (الأنوثة والذكورة)، وتنعكس على تقسيمات في المجال: على ضوء التغييرات، الذكروي والمجال الأنثوي؟!

ما هو واقع الزوجة؟ هل هي غارضة «للوجاهة»، أم أنها تحمل في ذاتها التغيير العقلي؟

4 ـ **متغير تجاري**، وبفعل الأوضاع الاقتصادية المستجدة[2]، طالت الطفرة العمرانية الميدان التجاري بشكل أساسي، فكثر ظهور «المحلات»

---

(1) «مختار الهراسي»: ملاحظات حول التغير السكني والتغير الأسري في المغرب ـ ندوة المرأة بين الواقع والتصور ـ الدار البيضاء ـ 1992.

(2) لقد ترتب على انهيار النقد الوطني إرتفاع في أسعار العناصر الانتاجية للمسكن. وفي ما يلي جدول بتطور سعر صرف الدولار في لبنان من 1975 حتى 1991. عن: أحمد بيضون ـ أزمة السكن في لبنان 1991 ـ ص 98.
=

والمشاريع التجارية حتى داخل البناء السكني أو الوحدة السكنية، وارتبط ذلك بالأوضاع الأمنية وبعنصر التهجير (نقل المحل أو المهنة أو المستودع من المدينة إلى القرية في حال الانتكاسة الأمنية)، فعمّت المحال التجارية بشكل عشوائي غير منظم، وأصبحت دليل ثروة.

5 ـ متغير زمني، طال الحداثة والأصالة في العمران الجنوبي، فالاختلاف بين المنزل القديم والمنزل الحديث شكلاً وحجماً ووظيفة ومواد بناء يقوم على تخطيط وظائفي (بشكل أو بآخر)، يفصل الفرق بعضها عن البعض الآخر، حيث اختفى النوع الأول الذي كان مأوى للانسان، وأصبح السكن اليوم في خط النبطية متخصصاً للسكن، للراحة، للاستقبال وللنوم ولممارسات يومية ذاتية واجتماعية، تعكس نفسية معينة، وتطرق باب التغيير على مصراعيه، فتركز التوجه إلى الاحياء الجديدة، لا بل إلى خلق أحياء جديدة- تعلن تطوراً ونمواً ديموغرافياً فجّر المحيط التقليدي للسكن.

هذا إضافة إلى المتغير النفساني ـ المحرك الأساسي للدراسة ـ نظراً لما له من أهمية رمزية وقدرة على درس محصلة مجال الصراع والتغيير، بحيث

=

السنة	سعر صرف الدولار بالعملة اللبنانية
1975	2,43
1976	2,93
1977	3,00
1980	3,64
1981	4,61
1982	3,81
1983	5,49
1984	8,89
1985	18,10
1986	87
1987	455
1988	530
1989	5,5
1990	842
1991 /5 /31	915

نبدأ من الحقل الفيزيائي إلى الحقل الفيزيولوجي، حتى نصل إلى الحقل النفساني (استناداً إلى نظرية الشكل أو الجشطلت).

كلها متغيرات أساسية ساعدتنا في فهم العمارة الجنوبية الحديثة وكيفية نشوئها اجتماعياً وتكنولوجياً وهندسياً، خاصة أن المسكن قد أصبح هو الوطن والانتماء والضرورة، هو الملاذ والحماية، هو العودة إلى رحم الأم.

الفصل الثاني

المجال الاجتماعي العامّ

عالج الكثير من علماء التاريخ والهندسة والعمارة والمعرفة مواضيع الهندسة بعمومية مطلقة دون الأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين التنظيم الفيزيائي والتنظيم الاجتماعي لمجتمع ما. ونتيجة لذلك، قلما أعطي موضوع الهندسة المعمارية الأهمية والعناية بالأنساق وبالمعضلات الاجتماعية والثقافية، فَحُصِرَ عمل المهندس بالعمل التقني الفني المحض. صحيح أن عمل المهندس هو المجال (Espace)، إلا أنه لا يعتبره، كما هو المجال في العلوم الانسانية (التي تفتش جاهدة عن رموز الأشياء والظاهرات)، مجالاً أنتربولوجياً يؤلف موضوع دراسة مهماً، والمجال بالنسبة اليهم لا يعني الفضاء ولا الفراغ، بل يقترب من المكان ومن الحيّز المنظم والموجه والحامل للمعنى.

ومن هنا بدأت الدعوة، التي بدت متأخرة بعض الشيء، لكنها دعوة فعلية إلى الاهتمام بسوسيولوجيا هندسية تدرك فهم لعبة الرموز والأبعاد والدلالات، وتجمع بين النظرية والتطبيق لفتح المجال أمام تجربة جديدة تخص الحياة اليومية والمجال (العربي). ويعمل حالياً علماء النفس والتاريخ والاجتماع والعمارة والانتروبولوجيا والهندسة في أوروبا وأميركا في مسيرة متكاملة ومنسجمة لدرس «الحياة اليومية» La vie quotidienne، حيث يتركز السلوك اليومي للبشر، والذي يجمع ما بين العام والخاص، ما بين الذاتي والجماعي . . .

وبالفعل، وفي عودة لنا إلى المجال: مكان عمل المهندس، ومكان عيش الناس والجماعات، فإننا نجده ينقسم إلى قسمين: خارجي وداخلي / عام وخاص.

المجال الأول هو مجال اجتماعي مؤسساتي، والثاني نفساني فردي. ويندرج في المجال الأول الريف والمدينة، جزءاً من موضوع هذه الدراسة التي تلقي الضوء على التحول الحاصل في المجال العام: من مجال ريفي إلى مجال مديني، وتأثير هذا التحول على المجال الخاص، وكيفية تأثر الفكر والمنطق والعادة والنفسية بهذا التغيير.

1 ـ ما هو المجال؟

سنعرف المجال في هذا الفصل من الناحية **اللغوية والجغرافية والاجتماعية والنفسانية.**

1 ـ **لغوياً:** يعبر عن المجال في اللغة العربية في عبارتين أساسيتين: «المكان» و«الفضاء». «المكان» وجمعه أماكن، أمكنة، وهو المساحة المحددة والتي يشغلها جسم ما، والفضاء هو عكس المكان الذي يتصف بمحدوديته، أنه المدى الواسع الفارغ المسطح، وهو الذي يشمل بجزء منه المكان.

اقترح العالم اللغوي «الجرجاني» في القرن الخامس الهجري (الـ 11 الميلادي) تعاريف ثلاثة تأخذ بعين الاعتبار أصل الكلمة واستعمالاتها:

«المكان» المشغول داخله ـ المكان المهم غير المحدد ـ «المكان المعين» أو المحدد (وقد حدد بعنصر من داخله)، ولم يستخدم كلمة الفضاء؛ لأنها لا تشكل بالنسبة إليه البعد المشكل والمركز والمنظم، إلا ابن خلدون عاد واستخدمها في كتاباته، معطياً إياها معنى مجتمعياً فقال: الاقليم ـ المعمر ـ الكلأ ـ الأمصار ـ المقام ـ الوطن ـ الحيّز ـ الامتداد.

ومنذ القديم، وفي الكتابات والأبيات العربية القديمة، نجد أن المكان يبعث الذكرى، خاصة ذكرى الأحبة، ويحث على الشعر. فها هو «أمرؤ القيس» أول من ذكر الديار في شعره «فوقف عليها واستوقف، وبكى واستبكى»[1] في قوله:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسِقْطِ اللّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(1) بطرس البستاني ـ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ـ دار نظير عبود ـ بيروت 1989 ـ ص 98.

وقال في مكان آخر:

عوّجا على الطَّللِ المُحيلِ لعلَّنا   نَبْكِي الدِّيارَ، كما بكى ابنُ جِذَامِ

وها هو «طرفة بن العبد» يستهلُّ معلقته المتعددة الأغراض والمرامي، «بوصف اطلال خولة وحَدوجها[1]»:

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ، بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ،   تَلُوحُ كَبَاقي الوَشْمِ في ظَاهِرِ اليَدِ

حمل الاسلام للمجال رسالة أيديولوجية، إذ أحيا الصلاة والحج، وركز على معنى **التوجّه** للكعبة في مكة، وهو توجّه رمزي مكاني وزمني، أعاد إحياء مجال اجتماعي ـ تاريخي ـ ديني، كان فضاؤه المملكة العربية السعودية، تحولت الكعبة فيها مركز الدنيا ودار الاسلام ودار العرب[2].

إن كلمة «فضاء» هي الكلمة الأكثر اتساعاً وكلية وشمولية في اللغة العربية. لكن عندما أراد أغلب الفلاسفة وعلماء الاجتماع والتاريخ الدخول في استخدام تعابير أكثر دقة ودلالة على حقولهم أبحاثهم أو على حقولهم السيميائية، فإن اللغة العربية لم تبخل عليهم بمفرداتها المتنوعة والغنية (كما كان الحال مع ابن خلدون مثلاً).

إلا أننا نلفت النظر إلى أن مفهوم المجال ـ كما اخترنا تسميته في الدراسة مرادفاً لكلمة Espace بالفرنسية ـ كمجال معيش (Espace vécu)، لم يعرف انتشاراً ومعاصرة كما يعرف اليوم في نهاية القرن العشرين. وكان المجتمع العربي هو المكان الأفضل لدراسته ولاختباره وللتحقق منه[3]، (في الدراسات الغربية والعربية).

كما أن استخدام مفهوم المجال في الرواية العربية، وحرك شخصياتها داخله، انقسم إلى مجالين حقيقي وخيالي[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 120.

(2) Bader - Eddin Arodaky: L'expression de l'espace dans la langue arabe» in MaGhreb Machrek - Espaces et sociétés du monde arabe - Janvier - Février- Mars 1989- La documentation Française- France p. 38.

(3) Wadi Bouzar: «Espaces de pause, espaces de mouvance, espaces de souvenance in Maghreb Machrek- p. 41.

(4) نذكر على سبيل المثال روايات نجيب وتوفيق الحكيم في مصر، وروايات حسن داوود في لبنان ـ وهو موضوع سنعود اليه لاحقاً.

2 ـ جغرافياً، لقد اعتنت الجغرافيا منذ القديم بفكرة المجال، فعرفت بأنها «علم الفضاء الطبيعي والانساني وعلم العلاقات ما بين الظواهر الطبيعية والانسانية»[1]. تدرس الجغرافيا الانسان كموضوع لها، والعلاقة المطروحة هي علاقة بين الانسان والطبيعة. من هنا تبرز إشكالية ثنائية الجغرافيا وتعقّد موضوعها؛ لأنه لا يمكن الفصل بين العنصرين. وهذا ما هو مطروح في ميدان العلوم الهندسية والاجتماعية والنفسية. مع ذلك، بقي علم الجغرافيا على أنه علم تنظيم المجال، وكلمة المجال تحمل معنى الفراغ، كما سبق وتقدم؛ مما يوجب ايجاد علاقة ما بين المساحات وبين النسق الاجتماعي الاقتصادي. فالمجال هو، أساساً، مجال جغرافي؛ لكنه يحمل في طياته النزاعات والخصومات والصراعات على الأرض وما يرافقها من مشاكل الاستقلال وغيرها. ويثبت المجال أيديولوجية سياسية وطنية أو امبريالية (كواقع حال مجال جنوب لبنان)... ولأن صفة «الاجتماعي» لا تنفصل عن المجال، فإن المجال الجغرافي يصبح مجالاً «تاريخياً»[2]. وبهذا الخصوص يرى Maspero أن المجال لا يُدرس بمعزل عن البنية الاجتماعية، ومسألة التنظير في المجال يجب ألا تتم إلا بعد تصنيف نظرية تدرس هذه البنية لتعرف خصائص الشكل الاجتماعي الخاص، ومن ثم علاقته بالمجال وعلاقة المجال به؛ لأن المجال هو الشكل الاجتماعي الذي لا يُفهم إلا من خلال تمفصله التاريخي مع عناصر أخرى. وقاعدة المجال، مهما بلغ مداه، هي «المستلزمات المادية الضرورية للحركة وللنشاط، إلا أن انعكاسات هذه المعطيات المادية تتحول بواسطة تفاعلات الفرد معها إلى مستلزمات معنوية تطوف حول المجال، وتعطيه فكرة ولوناً ذاتيين. إن المعطيات المادية للمجال هي الأبعاد الجغرافية والاقتصادية والتاريخية والسياسية ومشتقاتها مما يكوّن البنية التحتية التي تبرمج المجال وتقيس مداه. أما المعطيات المعنوية الذاتية للمجال فهي خلاصة «العمل النفساني» الصادر عن الفرد أو الجماعة، مما ينتج عن محاولات التكيف التي يقوم بها البشر، شاغلو المجال، بهدف تدوير

---

(1) J. Dresk. Crise de la géographie, in La «Pensée» n 3 194 - Aout - 7791- p. 19.

(2) J. Scheibling. Débats sur la «crise» de la géographie in «La pensée» no. 194. p. 41.

صورة المجال أو تحميلها أو إكمالها»[1].

وهكذا تجد أن التعريف الجغرافي للمجال يتخطى المعنى الجغرافي ليصل إلى المعنى الاجتماعي والنفسي: إنه نتاج مادي أساساً، لكنه يدخل في علاقة مع عناصر معنوية اجتماعية أخرى لا يمكن إغفالها.

3 ـ **إجتماعياً**: أحيطت فكرة المجال ـ كما رأينا ـ بالنظريات المتعددة، وتداخلت بصلابة مع النظريات الاجتماعية العامة، بحيث ربط الحديث عنه بالتجمعات المتصاعدة النمو وبموقع هذه التجمعات في الانتاج الاقتصادي، وخاصة التصنيع. وقد تم هذا الربط انطلاقاً من مبدأ حاجة الافراد بعضهم لبعض، ومن مبدأ الوظيفة الاساسية. ذلك أنه في كل علاقة مع المحيط ترتبط المجموعة بوظائف أساسية تنطلق من المركز، وتتحدد وضعية كل فرد تبعاً لوضعيته في نسق العلاقات المهيمنة[2] (كما هو حال النبطية وأهالي القرى من حولها).

ومهما كثر الحوار ودار النقاش حول موضوع المجال وهو لا ينتهي، إلا أن الاتفاق أكيد على «**إجتماعية**» المجال، هذه الاجتماعية هي في علاقة جدلية مع نفسانية الأفراد، حيث أن المجال يخص الحياة اليومية La vie quotidienne ويرتبط معها، لا بل انه الوعاء الذي يتسع لها، ولا يمكن رؤية مشاهد هذه الحياة إلا عبر المجال (مأكل ـ مشرب ـ جنس ـ عمل. . . الخ).

لذا فإن استعمالنا للمجال هنا Espace، كإطار منهجي ومرجعي، قد تخطى المعنى الجغرافي المحض ليصل إلى مفهوم شمولي، يستند إلى المفهوم الهندسي ـ الرياضي، معتبرين أن المجال مجموعة غير محددة من العلاقات القائمة بين العناصر المكونة لهذا المجال. فالمجال هو الحيز المكاني العام بما يشتمله وينوجد فيه. . . إنه التعبير عن «نظام علاقات» بين عناصر بنيوية مركزة في حيز معين ينوجد في الرياضيات، كما التحليل النفسي، كما الألسنية[3].

---

(1) د. عباس مكي ـ المجال النفس ـ اجتماعي العربي ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1991. ص 13.

(2) M. Castells. La question urbaine. Maspero. Paris 1972 p. 152- 153.

(3) د. عبد الله ابراهيم ـ المسألة السكانية وبنية المجال العربي ـ معهد الانماء القومي ـ بيروت 1991 ـ ص 21.

نحن أمام **انتروبولوجية المجال**[1]، مجالهم، مجالنا، مجالكم، غرف ومنازل وقرى ومدن تعيد الهوية الاجتماعية والانتماء أيضاً عبر تعابير مختلفة تأخذ بعين الاعتبار الداخل والخارج، العالي، والمنخفض، العام والخاص، الأمام والوراء، القريب والبعيد... مما يظهر أهمية ودور الممارسات الاجتماعية في بنية المجال أو الفضاء، خاصة أن الانتروبولوجيا تفتش بوضوح على وصف وفهم كل ما هو مشترك بين مجموعة الأفراد. ويعود الفضل في تعميم كلمة «انتروبولوجيا المجال» لـ E.Hall، وبعده لـ C.L. Strauss الذي سمح بفهم التشكيلات ضمن المساحة على أنها ليس فقط نتاجاً بل منتجات للانساق الاجتماعية، وهي لا تملك فقط الوضعية بل السبب. عندما نغير وضعية شيء داخل المساحة. فإننا نغير العلاقات داخل المجموعة (لا ننسى ما للاشكال من علاقات ومن صور خاصة)، والتغييرات الاجتماعية مرتبطة بالتغييرات المساحية، وبالمناسبة، يجب عدم الخوض في المساحة على أنها موضوع خاص للبحث الاتنوغرافي والاتنولوجي؛ لأنها تجاوزت موضوع الوصف.

4 ـ **نفسانياً**: يرتبط المجال بالتركيبات الطبيعية والثقافية المختلفة للفرد وللمجتمع، فتميز الفرد عن الآخر، وتعبر عن هوية الجماعة التي يدخل الفرد في علاقة معها. هذه العلاقة تعطي المعاني لكل شيء، للأمكنة، لوجهة بناء المنازل، للقرى، للمدن... وكلها يتأثر بالعوامل الخارجية، كمجرى النهر والرياح والشمس والفصول... والفرد يرتبط بأمور الجنس والعمر والحياة والموت والعشيرة والمهنة والألوان والقيم والتراتبية الاجتماعية... الخ... كل ما في المجال هو غير حيادي، الكل له مدلولاته ورموزه، يتداخل المجال إذاً مع «الثقافي» الذي يتأثر بدوره بالمستجدات التكنولوجية التي تعمل على تغيير الكثير من صفاته، حيث أنه ومنذ الثورة الصناعية، أصبحت فكرة المجال في مجتمعاتنا فكرة استراتيجية، ولقد أصبحت اليوم أكثر من أي وقت مضى. فكل الأسئلة التي تتعلق بالمجال أصبحت حالياً تتردد باستمرار، في الأماكن العلمية والتكنولوجية،

---

(1) تساعد انتروبولوجية المجال على معرفة (وحل) مشاكل وعادات الافراد طالما أن المجال هو مجموعة العلاقات التي تجمع بين هؤلاء الأفراد ومحيطهم الذين ينتمون اليه.

لقد أصبحت كما يقال «على الموضة»[1].

يظهر لنا المجال ـ لكونه المكان والموضوع الأكبر ـ رابطاً ما بين النفسي والاجتماعي: «هو الظاهرة الاجتماعية الكلية: العناصر، العلاقات، البيئة، وضعية الكائنات (من نساء ورجال وأطفال) وحركيتهم، ممارستهم اليومية وعاداتهم وانحرافاتهم، نظامهم وخصوصية هذا النظام وتشكيلته المساحاتية. كله لا يمكن رصده مباشرة بل عبر «حميمية» الانساق أو البنى وبمقارنتها مع بنى أخرى لتبين الثوابت والعموميات[2]. . . .

يطرح هذا، مسألة الحدود، الحدود بين المساحات (المساحة البشرية وغير البرية، البربرية والمتمدنة)[3]، الحدود بين الداخل والخارج، الحدود التي تبنيها الذات لها وحقائقها النفسية.

يقيم الشخص هنا حدوده مع المساحات الفيزيائية تبعاً لاسقاطاته ولحقيقته النفسية الداخلية. . . لنأخذ مسألة «العتبة» التي هي مكان انتقالي أو مكان عبور ومرور، إنها وسيلة اتصال بين مساحتين: داخلية وخارجية، وهي تعني النقلة من العام إلى الخاص. نستنتج أن العنصر النفساني في المجال يعطيه اللحمة نظراً لمحموله الرمزي، ويخضع المجال بدوره «للعمل النفساني الذاتي الهادف (بلا وعي صاحبه غالباً) إلى صياغة الحلم والأمل بتنظيم زماني ومكاني آتيين، على أن مجال الانتظار هو فعل تكيف مؤقت»[4].

وهذا يعني أن المجال النفسي[5] ليس واقعياً بالكامل، إنما هو مزيج من

---

(1) F. Paul- Lévy (et autres). Anthropologie de l'espace. Centre G, Pompidou- collection - alors - paris 1983. p. 8.

(2) المصدر السابق. ص 29 ـ 30.

(3) تخلق الثقافة حدوداً في المجتمعات، فذوو الثقافة المتجانسة لهم مساحتهم (حالة عرب حبوش ودير الزهراني في العينة، وهم من ثقافة مختلفة حدت بهم لنسج حدود لهم مع باقي أهل البلدة).

(4) د. عباس مكي ـ المجال النفس اجتماعي العربي ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 14.

(5) يقول وينكيوت ان «المكانية» التي تتشكل من مساحة وهمية، مرتبطة بحضور وغياب جسد الام، من مسافة تفصل بين جسد الطفل وجسد أمه، وهو ما يعرف بالفراغ، والذي يشكل المساحة. وحين تفصم علاقة التماس يتشكل حينئذٍ المكان. . . فالفراغ شرط أساسي لتلقي الرغبة: د. زهير مناصفي: الزمن التحليلي وجمالية المكان ـ الفكر العربي ـ عدد 67 ـ ك2 ـ آذار ـ 92 ـ ص 199.

الخيال والواقع (وتزيد أحياناً نسبة الخيال والأماني والتنميات والتخيلات والهوامات عن الواقع). إنه مشهد «ميكروسكوبي» microscopique صغير يعكس وضعية المجال الاجتماعي العام (طفرة البناء في العينة) ويحتضنه.

بعض عناصر المجال الاجتماعي العام

تبرز عدة عناصر في المجال الاجتماعي العام، يجب أخذها بعين الاعتبار لدى الدراسة:

أ ـ الارتفاع (العالي ـ المنخفض haut-bas)

العتبة، عتبة المنازل، خاصة المنازل العربية، هي مكان عبور أو مرور، وهي وسيلة اتصال بين مساحتين محدودتين. أنها تمثل الصعود والنزول، وعلاقتها مع المناطق المجاورة في المساحة نفسها (الفسحة الخارجية للبناء هي نقلة بين عالمين: عالم داخلي وعالم خارجي، نقلة من المكان العام إلى المكان الخاص). إنها تنظيم للعلاقة وللوضعية وللمكان.

تدخل مسألة الارتفاع في علاقة مع المركز (ارتفاع العتبة وعلاقة ذلك بـ «المقدس»)، مع الطقوس ومع السلطة؛ إذ أن المكان الديني غالباً ما يكون مرتفعاً عن المستوى العادي (الجبل المقدس). ومكان الحاكم هو بالضرورة مرتفع[1]... وكلما كان الاقتراب من الطريق في البناء فقدت «الحميمية» (مثال: سكن الطبقة الشعبية وأهمية الشارع بالنسبة إليها).

أما العلاقة بين الأمكنة المرتفعة والأمكنة المنخفضة هي علاقة ينتج عنها إتصال ناس «العالي» وناس «الواطي» (كالعلاقة بين الأرض والسماء)، وما يلحق ذلك من تراتبية اجتماعية (تظهر بتعارض طوبوغرافي بين المساحتين).

لقد جرت العادة في المساكن أن يكون الحيز المرتفع فيها عائداً للاشخاص، والحيز المنخفض للحيوانات (كما هو حال منازل القبيل Kabyles في الجزائر).

ب ـ وجهة البناء

تثير مسألة الحدود ـ التي سبق التعرض لها ـ مسألة التوجه ونوعيته. إن

---

(1) تعرف بلدة حبوش ـ إحدى قرى العينة ـ بهضابها حيث كان أكثرية الوجهاء فيها يتربعون على قممها قبل انتشار السكن الأفقي الحالي.

التوجه هنا مرتبط بنقطة ارتكاز. ما هي معايير هذا التوجه: الغرب؟ الشرق (شروق وغروب الشمس)؟ ما هي نقاط تنظيم وتوجيه النسق المبني؟ جرت العادة قديماً أن يكون النهر ومجراه هو التوجه الأساسي الأول، فمجرى النهر في آسيا الجنوبية الشرقية هو مرجع أساسي للبناء ولمعنى الحركة؛ لأنه هو الذي يموضع الأشياء والكائنات[1]. إذا أخذنا عنصر الماء كعنصر يحدد وجهة البناء بشكل أو بآخر، هنا، وكعنصر خارجي يتبع المجال الاجتماعي العام، فإنه «يتجاوز الجغرافيا والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والهندسة المعمارية للمشاهد وللمدن وللقرى وللمنازل وللشقق. إنه ينظم الحياة العائلية والعلائقية والغذائية والجسدية. إن الماء يزيل حدود العالم ليصل إلى الحياة الخاصة الحميمة وليعيش في الحياة اللاواعية... إنه يتقارب ليعايش الحلم. إنه نقطة تركيز وتثبيت أساسية للحياة وللمشكلية الانسانية. إنه للحياة كما انه للموت. ويمكن للماء أن يؤخذ بمعنى ديني (حمام الولادة ـ العمادة ـ الموت)، بمعنى رومنطيقي (ماء البحر ـ النهر ـ الشتاء ـ البحيرة) وكل ما يرتبط بهذا المعنى من أحلام...»[2].

تسمح لنا هذه الفكرة بدراسة مسائل أخرى تلعب دوراً في توجه البناء كمسائل النور والظلام (Le clair de l'obscur) والألوان التي تؤخذ في حقيقتها على أنها وقائع تنعكس على الذات البشرية وتتغذى بشكل أو بآخر من الخرافات ومن التحليلات. ونحن لا ندرس ما يتعلق بها من امدادات وتقنيات، بل ندرس صلب المشكلة الانسانية وأبعادها. ندرسها كتقليد يومي يصهر معه التغييرات الفكرية والاجتماعية، ولها صفة البناء للانسان، وتتحكم به (أي بالبناء) في مناطق مختلفة من الكرة الأرضية.

ج ـ الشكل

إن المساحة الهندسية تعمل على صياغة أشكال. تعبر هذه الأشكال عن استعمالات ما في الحياة اليومية، وتعطي للمساحة خصوصيتها وحقيقتها

---

(1) Paul-Lévy المصدر نفسه ـ ص 106.

(2) Bulletin de psychologie clinique «L'eau, La vie, Les rêves» 1986 - n. 12 université de paris 7- p. 6.

الاجتماعية. إن الشكل هو إتصال، وهو دلالة، هو الذي يشغل الحيز، ولا ندركه إلا عبر ملاحظة انتروبولوجية، يمكن أن تبين بوضوح المجسمات على أنها تنسيق في البناء، لا تتبع فقط خصوصيتها الشكلية، وإنما تنظيمها الفيزيائي والاجتماعي.

لقد درس C.L.Strauss في مجتمع الهنود في البرازيل Bororo ليس المساحة المنظمة فقط، بل درس ما أظهره هذا التنظيم من علاقات اجتماعية بين السكان. الاستنتاج الأولي أن التمييز بين الشكل والدلالة مهم جداً، فالتاريخ لم يدون فقط في الكتب، بل انه نقل عبر المعيش المرئي.

بهذا المعنى يكون الشكل هو صاحب الدلالة. فالأشكال هي التي تعلم وتخبر وتعبر عن تخيلات وتربية مجموعة ما؛ هي مؤشرات اجتماعية، إنها انعكاس لبنية اجتماعية سواء جاء هذا الشكل عفوياً أو هندسياً منسجماً.

ويمكننا القول أن المجال العام، كما المجال الخاص، لم يعد محكوماً بعامل واحد يقتصر على التقدم التكنولوجي والجغرافي، بل يرتبط بسلسلة عوامل مؤثرة وقابلة للبحث.

د ـ التغيير

هناك عدة أنواع من التغييرات التي يمكن أن تطال المجال العام، كالتغيير الاداري الداخلي والتغيير الداخلي التطوري، والتغيير الخارجي.

إن تغيير المجال يعني ظهور نظام جديد وسلطة جديدة. الحديث عن نوع التغيير الأول إلى رصد المركز والحقل حوله كيفية اعادة التوزيع لهما. أما النوع الثاني فهو ينتج عن تغييرات تراتبية للمساحة، فينتج «مجسمات» جديدة، وسبب ذلك يعود إلى رغبة في اللحاق بوضعية اجتماعية أكثر رقياً، فيأتي التطور مصحوباً بعامل الثروة ومحركاً بعض المظاهر الاقتصادية كالتباهي وحسن المظهر والبناء، والذي لا بد لاحقاً من أن يخلق تغييرات حادة في المجال[1] (ربما تظهر حالة مدينة النبطية في إطار هذا النوع من التغيير).

إلا أنه وفي كثير من الأحيان، نجد أن عوامل أخرى يمكن لها أن تظهر

(1) Paul-Lévy ـ المصدر نفسه ـ ص 106.

في هذا النوع من التغيير، وتخرج عن عامل الارتقاء الأجتماعي؛ «لأن التغييرات اللاحقة بالمـ ـال يمكن أن تنتج عن تغييرات ملموسة في أشكال التأقلم الاجتماعي، في انخراط الافراد بعادات جديدة، وتنتج بالتالي قيماً جديدة ومعايير جديدة. هذه التغييرات المتواضعة تكون سبباً في بروز أشكال واعتبارات جديدة للسكن[1]، (تلك هي حالة أغلب بلدات العينة)[2]. عطفاً على هذه الفكرة، فإنّ P.Bourdieu يبني ما سماه بعلم اجتماع الستراتيجيا ا ي لا تظهر عبر تغييرات في العادة فقط، بل عبر تغييرات للمحددات وللتوجهات وللميول التي تعكسها هذه الوضعية الاجتماعية المتبدلة.

لقد عكس تغير (الشكل أو) النمط الفكري تغييراً في الشكل الفيزيائي؛ فظهور غرفة النوم في فرنسا مثلاً لم يرتكز على حاجة كمية للمساحة، ولكن على منطق جديد للعلاقة بين الجنسين (بعد أن كان النوم مسموحاً في مكان ما من الطابق السفلي أو بالقرب من المطبخ أو الاسطبل الخ. . .). هذا نفسه ظهر، وبشكل آخر، في بريطانيا، وترجم بكثرة الممرات المستقبلة.

بخصوص النوع الثالث الذي يطال التغييرات الخارجية، فهي تنتج عن إتصال ثقافات غير متجانسة. ويتعلق المجال هنا بالحضارة الغربية وتأثيرها في الجماعات، سواء كانت هذه الأخيرة تودّ التكيف أو تقاومه أو تتكيف وهي تقاوم.

والتغيير لا يحصر في «التأثر ب» بل في «إجبار» الناس على تكييف سلوكهم مع نماذج أخرى هي.بقطيعة مع حضاراتهم ومحيطهم. عملية الاجبار هذه يمكن أن تتم على مستويين[3]:

1 ـ إما أن يجبر السكان على إشادة مساحات «مودرن»، واستحداث غرف جديدة (نوم ـ صالون)، وإلغاء صحن البناء الخارجي أو الملعب.

2 ـ واما أن يغيروا سلوكهم باحتذاء حذو أهل الغرب أصحاب المنازل الصغيرة؛ لأن الإنجاب محصور هناك (كحث الافارقة على قلة الانجاب

---

(1) المصدر نفسه ص 256 ـ 257.

(2) ستعمل الدراسة على إظهار كيفية تأثر الشكل السكني بهذه النظم والمعايير الجديدة.

(3) المصدر السابق نفسه ص 269 ـ 270.

ورفض تعددية الزواج ولو مؤقتاً بناء على **فصل بين النموذج التقليدي وبين النموذج أو الموديل الغربي**).

إنعكس **التغيير** على بنية القرى أو البلدات موضوع الدراسة، فغيّرها. وكان صعيد الزراعة من أبرز الصعد التي تأثرت مباشرة بعملية التغيير هذه، وتحولت وتبدلت، فكان التحول طارئاً ليس فقط عليها، بل على معتقدات أهلها، وعلى مسائل الإيمان والميتافيزيقيات عندهم، فأرفق ذلك بانفتاح وباحتكاك بثقافات العصر وبالاختلاط مع الغير؛ «**فاهتزت نتيجة ذلك** مفاهيم كانت سائدة ومعتقدات كان التسليم بها لا يقبل النقاش. وانعكس هذا التغيير في بنية القرية على التوجه في إطلاق التسميات على المواليد بعد فترة الخمسينات، وهذا ما وضح وبرز جلياً في مقارنة للتسميات في الفترتين، وسار توجه جديد في إطلاق الاسم مثلاً وتحول من أسماء القديسين والأنبياء إلى الأسماء العربية، فإلى الأسماء الأجنبية[1].

المجال، كل التشكيلات الخاصة به هو موضوع أبحاث متعددة تنبع من أنظمة متعددة ومتنوعة كعلم النفس وعلم الاجتماع والجغرافيا وعلم السيمياء. تظهر العلاقة واضحة وأساسية بين المجال والمجتمع، وينتج عنها رؤيا للمجتمع مرفقة بنتاج خاص. وعبر هذه العلاقة يمكن أن نشرح عدة ظواهر، حيث تصبح حادة داخل المجال لدرجة قدرها «Kant» بأنها بنى حقيقية للأنا (Le Moi). فالتغيير يبدأ فكرياً وعبر الخيال كي ينتهي فيزيائياً كآلة تسجل المعرفة والرؤيا والاستنباط بكلمة أخرى. ولقراءة المجال الاجتماعي، علينا إعادة تفكيكه عبر:

1 ـ المؤسسات التابعة له وقراءتها.

2 ـ التخيلات الناتجة عنه وقراءتها أيضاً.

تنطلق هذه القراءة، وحسب ترتيبها المقدم سابقاً، من العام إلى الخاص اللذين يبدوان هنا، من وجهة نظر نفسانية، كإسقاطين: من المجتمع على المجال، ومن ثم المجال الاجتماعي (بعد أن تم الاسقاط الأول) على الذات.

---

(1) عاطف عطية ـ الاسماء المتداولة في قرية لبنانية والتحولات التي طرأت عليها. مجلة الفكر العربي ـ عدد 62 ـ 62 ت1 ـ 1990 ـ ص 203.

اخترنا للقراءة الأولى، في هذا البحث، التعرض للمدينة كمؤسسة أولى من مؤسسات المجال العام وجزء منه ومعبرة عن الوعي الجماعي، لنصل إلى القراءة الثانية والأساسية لمقاربتنا النفس ـ اجتماعية هذه: **قراءة المكان السكني**[1] المعبرة عن الوعي الفردي، حيث أنه عبر جدران السكن يلتقي المادي بالمعنوي، حيث يدخل الجسد وحيث تقام الحدود والحياة اليومية وأسرارها وممنوعاتها ومحرماتها، وكيف تم توظيفها عبر الهندسة المعمارية العربية أو غير العربية.

(1) يدخل المكان وكما سبق ذكره ـ في صلب تحديد المجال؛ لأ ن ـ وحسب Duvignaud كل جسم، مهما كانت وضعيته يجب أن يتموضع بالضرورة في مكان ما. وضعية المكان تسبق وضعية الجسد.

(J. Duvignaud-Lieux et non lieux- ed. galillée. Paris 1977).



الفصل الثالث

مفهوم المدينة

المدينة هي نقطة التقاء بين الفردي والجماعي. خصصناها في فصل مستقل لعدة أسباب، نذكر منها:

1 ـ إنها أول إسقاط للمجتمع في المجال العام. إنها صورة عن بنية المجتمع ومؤسساته غير المنفصلة عن جملة العلاقات والاتصال. ولها صفة الابتلاع والاجتياف، «فهي تشده الناس، لأنها تأكل كل انتاجية الأرض والبحر»[1]...

2 ـ للمدينة أثر ودور في مسائل التقدم والحضارة والمدنيّة، وكلها تنعكس على موضوع «المجال».

3 ـ نحن بصدد التعرض لمسألة «تمدين الريف»، وعليه فنحن محكومون بالتطرق لمفهوم المدينة خاصة في علاقتها مع الريف. أصبحت المدينة، عن غير قصد، وحدة أساسية في الدراسة، وتتركز عليها باقي الوحدات. ويمكن القول أن العلاقة الحالية بين الريف والمدينة هي علاقة هجرة معاكسة (أي من المدينة إلى الريف)، تحمل معها عمليات تأثر وتأثير واضحة المعالم.

4 ـ يظهر في العينة، أن مدينة «النبطية» هي «المعيار» في الدراسة. إنها المدنية المرجعية بالنسبة إلى البلدات المحيطة بها، وبالنسبة إلى الطريق العام الذي تمتد على جانبيه هذه البلدات. وبدورها تأتي «بيروت» العاصمة، المدينة المرجعية، والتي يجب الانطلاق منها للوصول إلى مدينة النبطية. وهذا يعود لما كان لها من تميّز على الصعيد العربي، ولما لها من تأثير على إعادة التركيب الوظائفي الداخلي والخارجي خلال الحرب وبعدها.

---

(1) المصدر السابق J. Duvignaud ـ ص 13.

1 ـ معنى المدينة

إن المدينة شكل وحركة، إنها سلسلة أبعاد، تبدأ من البعد الزمني وبُعد المساحة وبعد التجربة. هي بُعد للأنا (عملي ـ حياتي ـ مدرسي ـ عائلي)، وهي أيضاً بعدٌ، للقيم (الحب ـ الكره الخ. . .).

ترتبط كلمة مدينة بالمَدَنيّة، فالمدن هي مراكز إشعاع وخلق للحرية وللقيم المتجددة حسب قول Paul-Henri chombart de Lauwe. فيها تزدهر الحضارات. وتتميز المدينة بنشاطاتها الاقتصادية المتنوعة عن القرية التي يعمل معظم سكانها بالزراعة. لذا يمكن تعريف المدينة بأنها التجمع السكاني الذي لا تشكل الزراعة النشاط الأساسي للمقيمين فيه.

إن المدينة وحسب «ماكس ڤيبر»، هي مستقر مجتمعي، مكان سُكنى متسع، وليس تجمعاً متناثراً أو مجموعة منازل متقاربة، «بل ان الدور في المدينة اليوم تتكاثف وتتلاصق حائطاً لحائط»(1). إن المدينة هي مستقر كبير يتوقف على مجال ثقافي معين. إلا أن الضخامة والكثافة السكانية الكبيرة ليست المعلم المميز للمدينة تاريخياً. حدّد «فيبر» المدينة بمقومين:

الأول، وجود مركز سلطوي، خصوصاً مقر امارة، بمثابة فجوة أو بؤرة.

والثاني، وجود مركز دائم لتبادل السلع، أي وجود سوق. على المدينة «ان تملك، من الناحية الاقتصادية، بشكل أساسي، سوقاً محلياً يتجاوز الانتاج فيه والتبادل سكان المدينة؛ إذ انه نتيجة التخصص الانتاجي للسوق، فإنّ سكان القرى المحيطة يترددون عليه، ويتعاطون البيع والشراء في منتجات الحرفيين وسلع الاتجار معاً. ومن الطبيعي أن يتعاطى سكان المدينة أنفسهم في هذا السوق البيع والشراء(2)».

كثرت التعريفات حول المدينة، لكنه إتفق على أنها تعني «الفن بتشعباته الكثيرة، من هندسة ونحت وأدب، وتعني تارةً السياسة والتجارة، كما تعني الشوارع والعمارات والانشاءات المدنية والدينية والأرض بترابها ومائها، وتعني

---

(1) (2) المدينة ـ معناها وشروط قيامها ـ ماكس ڤيبر ـ ترجمة د. رضوان السيد ـ مجلة الفكر العربي ـ عدد 30 ـ ك1 ـ 1982 ـ (مسألة المدينة والمدينة العربية جزء 2) ـ ص 8.

أيضاً ماضي الانسان المتطور نحو الأكمل، إذ هي صورة لكفاحه المزمن. وباختصار إن المدينة سجل لقضية الانسان وحضارته. في المدينة تنمو المؤسسات الصناعية والتجارية، تتجمع فيها رؤوس الأموال، ومنها تُدار، وفيها تكون البنى الاجتماعية متلاحمة متفاعلة؛ وفي المدينة تتمحور السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، مما يعطيها أهمية كأهمية الدفاع للجسم البشري»[1].

منْ جهة أخرى، عرف «Ratzel» المدينة بأنها مجتمع يضم أكثر من ألفي شخص، على أن يعيش هؤلاء الأشخاص على التجارة والصناعة وليس الزراعة. فكلمتا «القروي» و«القرية» مرتبطتان بالنشاط الزراعي، بينما «المدني» و«المدنية» ارتبطا بالنشاط الصناعي والخدمات، وبالتالي فإن نشاط التجمع السكني هو الذي يعطي لنفسه الصفة القروية أو المدينية[2].

أما أهم أسباب نشوء المدن فهي: الموقع الآمن ـ التجارة ـ الصناعة ـ السياحة ـ الاستجمام ـ الثقافة ـ الروحانيات والادارة.

لكن المدن الأولى التي نشأت فيها الحضارات كانت تمتاز بخصوبة التربة المحيط بها (مناطق الاناضول ـ حوض وادي النيل ـ ما بين النهرين الخ...)، وبغناها بالمصادر الطبيعية. إن المدينة هي «سجل حافل لحضارة الانسان وصورة لتفاعله مع الطبيعة ومع أخيه، بنيت في موقع حصين من الأرض قريب من السهل والنهر، ثم حصنت بسور يرد عنها خطر الاعداء، يسكنها شعب يمتاز بنوع عمله التجاري أو الصناعي أو المصرفي، ويخضع لقانون واحد، ويعيش في ظل حاكم (عادل)»...[3].

2 ـ التخطيط المديني

سبّبت الثورة الصناعية ثورة في النقل والمواصلات وثورة في الديموغرافيا، وجلبت مظاهر تغيير متعددة عرفها القرن التاسع عشر، كانت نتيجتها المهمة تلك الثورة السكنية في المدن. لقد هاجر أهل الريف إلى المدن

---

(1) د. فايز ترحيني ـ المدينة ـ معناها ونشأتها ـ الفكر العربي ـ المرجع السابق. ص 27.

(2) د. مصطفى فواز ـ مبادئ تنظيم المدن ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1980 ـ ص 15.

(3) د. فايز ترحيني ـ المصدر السابق ـ ص 30.

لتوفير فرص العمل والظروف المعيشية الأفضل، ولتحسين فرص التعليم. وبهذا فقد جذبت المدينة على الصعيد الاقتصادي اليد العاملة الريفية على حساب الانتاج في الأرياف. أما على الصعيد الاجتماعي، فلدى الهجرة إلى المدينة تطرأ العناصر المقتبسة في المدينة وفي شروط الحياة الجديدة، فيجمع المهاجر بين ثقافة متماسكة يحملها معه وبين العناصر المقتبسة وتستحكم علاقة بين الطارئ المقتبس وبين الأصيل، قوامها الانفصال المبدئي والاجتماع العرضي...[1].

وخُلِقَت الاحياء الخاصة بالأشخاص الآتين من نفس الوجهة، خاصة أن الفردية صفة أساسية لأهل المدن، فهي تحوي وتغرب أهلها الذين يعيشون بتقارب بعضهم مع بعض. ويفكر تلقائياً الابن المتزوج حديثاً السكن قرب أهله، فيصبح الحي «حي القربة في المدينة»[2] كما حصل في Bethnal Green بالقرب من لندن حيث أقام أهلها سياسة سكنية خاصة بهم، وجمعوا الماضي بالحاضر، وكان البقاء الاساسي هو للأسرة الواسعة.

ما يهمنا هنا في هذا المقطع هو هذا **التوسع الديموغرافي** في المدن الناتج عن فعل الهجرة، وما تركه من آثار ونتائج اجتماعية واقتصادية سيئة غير المخططات السابقة؛ فكانت الحاجة لتخطيط جديد؛ مما ساهم في نشوء علم تنظيم المدن، أو ما يسمى بالفرنسية بـ urbanisme، وبدأت معه النظريات والمفاهيم للتنظيم وللتخطيط تأخذ مكانها بين العلوم الهندسية.

إن تنظيم المدن هو تنظيم للمحيط، وموضوعه الانسان ومحيطه المادي والروحي. فالتنظيم أو التخطيط هو «العملية التي تعدّها الادارة لتعيين حدود الاملاك العامة ولمنع قيام إنشاءات قد تحول دون تنفيذ المشروع العام الذي يجري التخطيط من أجله»[3].

وللسلطات المحلية دور في عملية تخطيط المجال، فعلى كاهلها تقع مسؤولية تنفيذ المخططات، ويجب أن يكون المجال المدني منظماً بالضرورة،

---

(1) د. وضاح شرارة: المدينة الموقوفة ـ دار المطبوعات الشرقية ـ بيروت 1985 ـ ص 14 ـ 15.

(2) M. Young. Le village la ville. center G. Pompidou- Collection alors - paris 1985.

(3) د. مصطفى فواز ـ المصدر السابق ص 167.

غير مبني على الصدفة، ومرتبطاً بمراحل متنوعة وخاصة.

تقع مسؤولية التخطيط على عاتق المخطط أو المنظم المديني، واعتبرت F.choay إن على المخطط المديني المساهمة في إعادة الذات إلى الشخص، ساكن المدينة، وإزالة، مفهوم الاغتراب الذي سبق ولمحنا إليه. عليه أن يدير المدينة، أن ينسّق موسيقياً بين رموزها، ويركز على أهمية دلالتها، ولا يترك للسكان وحدهم اختراع كيفية إعادة المعاني، وألا يغرق في وضعية وظائفية تجعله يترك الرموز... على هذا المنظم قراءة المحيط؛ لأن معنى الحياة هو أيضاً معنى المدينة[1].

يقرّبنا هذا الكلام من «السيمياء» أو علم الدلالات. ومن يود وضع مخطط سيميائي للمدينة، عليه أن يكون في الوقت نفسه سيميائياً (ليفهم الدلالات ومعاني الدلالات)، وكذلك عليه أن يكون جغرافياً، مهندساً مدنياً، ومن المحتمل أحياناً أن يكون محللاً نفسياً[2].

تطرح choay هذا الطرح السيميائي والتنظيمي للمدن لمن تجاهل جملة الممارسات الاجتماعية، ولمن تغافل مشكلة الدلالة، وجعل عمل المهندس في المحيط المبني خالياً من الدلالة، فنقول إن على مهندس التنظيم المدني أن يراعي الشحنة العاطفية في مسألة البناء؛ لأن المحيط منذ تشكله أو تشكل مفهومه يصبح نسيجاً من أشكال رمزية...

«للمدنية» إذاً لغتها، كما «للسينما» و«للمسرح» و«للزهور» لغتهم. يجدر فهم الرمز فيها ودلالته وتركيبه والتعود على تحليله بشكل واسع، وهذا لا يطرح وجود مدلول نهائي. لأننا سنكون أمام سلسلة من المجازات غير النهائية، ولا يمكن أن يتم ذلك إلاّ بإدراكٍ للعبة الرموز. خاصة أن لكل مدينة تركيبتها وبناها وقابليتها للتجدد.

علينا، في موضوع التخطيط المدني اعتماد قراءة جديدة وشاملة لماهية الظاهرة المدينية ولاستلهام لا وعي الهندسة المعمارية وأدرك الملاحظات على

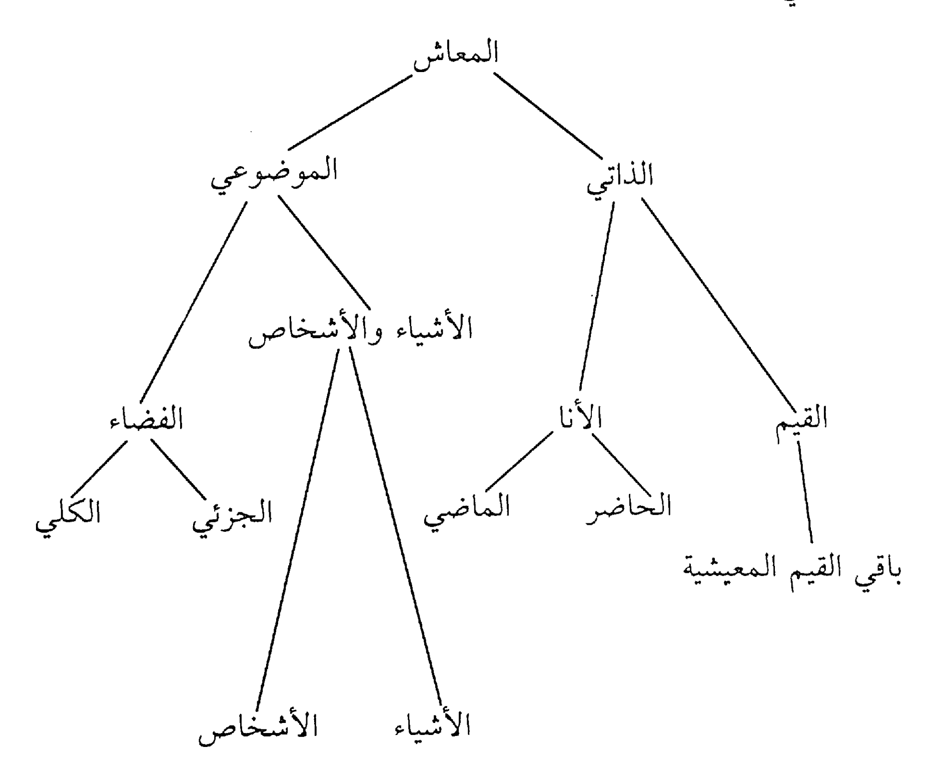
---

(1) F. Choay (et autres). le sens de la ville- ed. du seuil. paris 1972.

(2) رولان بارت: السيمياء والتمدين ـ ترجمة د. محمد حمود ـ مجلة الفكر العربي ـ عدد 29 ـ مسألة المدينة والمدينة العربية ـ بيروت 1982 ـ ص 162.

المستوى النفساني بكليته وبوظائفيته. فمستقبل المدن مرتبط بمستقبل المجتمع والحضارة والتاريخ. هنا تظهر مشكلة التجديد والاصالة في أشكال التنظيم، فيرى R.ledrut في هذا المجال أن الحنين للأشكال القديمة في الحياة المدينية يجب أن يُلغى أمام انتصار ثوري للاشكال الحديثة، وبرأيه أن الثورة المدينية لا تنفصل عن العناصر الثورية التقدمية الأخرى وعن فعل تاريخي كلي...[1].

لقد تصور Ledrut عبر الرسم التالي، وجوهاً وأنماطاً يخشاها الفرد لدى انطلاقته في المدينة:



لقد انتقل من الخاص إلى العام، ورأى أن الخاص وحياة الفرد الخاصة يتأثران إلى أبعد حد **بوسائل الاعلام، ووقت الفراغ** في حياته هذه هو وقت مديني أكثر منه قروياً[2].

---

(1) R. Ledrut: sociologie urbaine. p. u. f. paris 1979.

(2) R. Ledrut. Les images de la ville. ed. Anthropos- paris 1973.

أ ـ ما هو تعريف التخطيط أو التنظيم المدني إذاً؟

التنظيم المدني (L'urbanisme) هو «مجموعة من التدابير التقنية والادارية والاقتصادية والاجتماعية، مهمتها تحقيق إنماء منسجم عقلاني وإنساني للمجتمعات العمرانية»[1]. وصاحبة القرار الاخير في مجال التنظيم المدني هي السلطة السياسية، حيث يترجم التنظيم المدني بلغة قانونية الارادة السياسية لتلك السلطة عبر خطط تكتيكية.

ويمكن تعريف تنظيم المدن بأنه «فن تهيئة المناخ المناسب الذي يسمح للمجتمعات بالنشوء والترعرع وتحقيق أمانيها»[2]. إن عملية التنظيم هذه هي من الوسائل الأكثر فاعليّة لاستثمار الطاقة البشرية الضائعة عندما يتوافر المناخ الملائم للعطاء.

أصبحت عملية التخطيط في عصرنا «موجهة لصالح الطبقة العاملة. فهي تقدم الخدمات بقصد تأمين الفرص المكافئة للمواطنين كافة. ولم تعد خدمة السيد أو الأمير أو إبراز قصره هدف التنظيم، كما كان يجري في القرون السابقة»[3].

أما موضوع التخطيط فهو الانسان ومحيطه المادي والروحي بكافة نواحيهما. ولعملية التنظيم مراحل، غايتها تقديم خطة للمؤسسات والأفراد في المدينة:

- تجديد المهمة.
- وضع الدراسات الأولية والتوقعات.
- وضع المخطط التوجيهي.
- وضع المخططات التفضيلية.

---

(1) د. وفاء شرف الدين ـ واقع التنظيم المدني في أماكن التهجير والاحتماء. المؤتمر الوطني العام للمهجرين ـ حزيران 1992 ـ بيروت.

(2) د. مصطفى فواز. مبادئ تنظيم المدينة ـ مصدرٌ سبق ذكره ص 53.

(3) المصدر السابق ـ ص 53.

ـ تنفيذ المخططات.

ب ـ قوانين البناء

وضعت المدينة قوانين عامة للمحافظة على السلامة العامة. وهي تهمنا هنا، لأننا ندرس عملية البناء في منطقة محددة من لبنان.

ـ هناك القوانين الصحية التي تمنع السكن في المنازل التي تشكل خطراً على الصحة العامة، وتطمح لتوجه توزيع السكان بشكل صحيح.

ـ والقوانين الخاصة بالمؤسسات الخطرة والمضرّة بالصحة العامة، وهي تتعلق بالأبنية الصناعية.

ـ قوانين النظر بالأبنية المنذرة بالانهيار.

ـ قوانين أنظمة البناء العامة، وتحدد طابع البناء ومساحاته الدنيا وعلوه وإنارته وتهويته الطبيعية، والمطابخ، والحمامات وغرف الغسيل، والاقسام المشتركة، وجمع النفايات وتصريف مياه الأمطار والمجاري، ووصل شبكات الغاز والكهرباء بطرق فنية مناسبة.

ـ رخصة البناء، وهي إجراء وقائي سلطوي، تتأكد عبره السلطة ان التنفيذ سيتم بناء لأنظمة البناء الخاصة بالبلد أو بالقطر.

ـ المحافظة على المحيط والبيئة.

ـ المحافظة على الأبنية الأثرية وحماية المواقع الطبيعية.

ـ الحد من تطور بعض المناطق والاسراع في امتداد أخرى وتبعاً لعملية التطور السكني الحاصلة...[1].

ج ـ التنظيم المدني المحلي

يقتصر التنظيم المدني في بلادنا على جانب وحيد من أصول التنظيم المدني المتعارف عليها. يعني «أنه يقتصر على مجموعة التدابير القانونية، أو على قواعد تنظيمية مفروضة على المدن وعلى محاور القرى لتنظيم عملية البناء... إنه لا يتعدى عملية تطبيق المخططات التفصيلية للمدن والقرى،

---

(1) المصدر السابق ـ ص 175.

(2) د. وفاء شرف الدين ـ المصدر نفسه ـ ص 10.

بحيث يتم تقسيمها إلى مناطق تسحب عليها قواعد تنظيمية خاصة»[1].

لقد تحولت عملية التنظيم المدينية (في لبنان) ـ سواء كان ذلك في أماكن مهجرة أو في أماكن امتداد سكني طبيعي ـ إلى عملية تنظيم ذاتية Auto-gestion، وهي ترتبط بمجمل تأثيرات الحرب التي ضربت القطاع الاقتصادي. ودمرت القطاع الخدماتي. . . .

3 ـ هجرة الريف إلى المدن

بعد الثورة الصناعية وتقدم المواصلات، كان النزوح إلى المدينة. وترك هذا النوع من النزوح علاقة صراعية بين الريف والمدينة، وقد طال هذا الصراع الاسرة بشكل مباشر والعلاقات داخلها. فالفوارق واضحة وبارزة بين الريف والحضر، بحيث أصبحت نوعاً من «الحراك المكاني الذي يطال تغيير المكان من موضع لآخر. وهذا النوع يتواجد من حيث المبدأ، في المدن أكثر منه في الريف. وهو يعني انتقال الفرد من جماعة إلى أخرى داخل طبقته الاجتماعية، كعملية تغيير المهنة، وهي أقل ما تكون بين المزارعين. . . إن الهجرة من الريف إلى المدينة تؤدي إلى زيادة سكان الحضر زيادة واضحة. وتحولت المدن الكبرى إلى مراكز إشعاع تمارس بدون شك تأثيراً متزايداً على الريف المحيط بها. . . فالمدينة هي المدينة/ المجتمع، هذا المجتمع الذي ينزع عموماً إلى تقطيع الأواصر والعلائق التي كانت تربط بين جماعاتهم، ويرجعون إليها في مسلكهم وفي أحكامهم رجوعهم إلى مثال يجرون عليه من دون تردد، بعد أن جمع أناساً من منابت قرابية وسكنية وثقافية سابقة مختلفة فوحّد بين شروط معيشتهم.

إن المدينة مقارنة بالريف، تعني التعدد والاختلاف، إنها الاندراج في بنيان ثقافي معياري تقويمي متسع. إنها التعليم والعمل، وكلاهما يفترض خروج الفتاة من المنزل، والاختلاط مع الذكور، والانتقال بين الأماكن، والالتقاء بين الناس، الذين لا تربطهم رابطة القرابة والسكن. وهناك في المدينة، اضطلعت الفتاة بمسؤوليات متعددة كانت تناط بالذكور دون غيرهم. وهناك أيضاً يتغير نسق القرابة، فتتغير معه العلاقة الزوجية الجامدة بين الرجل والمرأة.

يقول د. «محمد الجوهري» ود. «علياء شكري» في كتابهما «علم الاجتماع الريفي وعلم الاجتماع الحضري»: إن تصنيف العلاقات الاجتماعية في منطقة جغرافية معينة يتباين تبايناً كبيراً، ويمكننا التمييز بين العلاقات الأولية والعلاقات الثانوية (وهي نتيجة للفروق الحضرية ـ الريفية، وهو فرق قارن عبره دوركهايم Durkheim ما بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الأكثر تطوراً).

في العلاقة الأولية يسيطر الارتباط والتعاون المباشر العميق ضمن ظروف مادية للتجاور المكاني والعدد الصغير وكنماذج للعلاقات علاقة الصديق بالصديق، المدرّس بتلميذه، الزوج بزوجته، الأب بابنه، حيث تتماثل الغايات والشعور بالحرية وتأثير وسائل الضبط الرسمية. أما العلاقات الثانوية فتتكون ضمن ظروف مكانية تتصف بالاتساع المكاني، العدد الكبير والاستمرار؛ القصير فتتباين الغايات، ويصبح التقويم للعلاقات وللأشخاص، وتصبح المعرفة محدودة؛ من نماذج هذه العلاقة علاقة البائع بالمشتري، علاقة المذيع بالمستمع الخ...[1].

لقد كانت النماذج التي درست عبرها الفروق الحضرية ـ الريفية نماذج مثالية. طُوّرت هذه النماذج، ووصلنا إلى ما سماه (شكري والجوهري) «بالمتصل الريفي ـ الحضري»، الذي يشير إلى «وجود نوع من التدرج القائم بين المجتمعات في درجة التريف والتحضر... فهناك تدرج واضح يبدأ من القرية المنعزلة، ثم القرية الأكبر، فمركز السوق، ثم المدينة الصغيرة، فالمدينة الأكبر، ثم المجتمع المسيطر أو المجتمعات المسيطرة... وقد وصلت المجتمعات الغربية إلى الذروة في هذه النقطة، فالتقارب كبير بين ريفها وحضرها...»[2]؛ ذلك أنه بعد تقدم المواصلات ووسائل الاتصال الجماهيري، كان النزوح إلى المدينة والعودة إلى القرية مترافقين، وقلت فرص العمل للمزارعين، وكانت لغة جديدة دولية: عمارات ـ مناطق ـ مرائب ـ مناظر عامة، حلّت محل البيوت والبساتين والشوارع: كلمات نوعية قديمة يستعملها إنسان العصر (حين يجلس مثلاً على عدة أشياء = كرسي ـ مقعد وثير ـ مُتكأ

---

(1) د. محمد الجوهري ـ د. علياء شكري ـ علم الاجتماع الريفي والحضري ـ دار المعارف القاهرة ـ 1980.

(2) المصدر نفسه. ص 88.

الخ. . .). وكان أيضاً اعتماد متبادل بين المدينة والقرية، وكثرت المزارع المجهزة، بأحدث الآلات، وتقدمت العلوم في الدول النامية التي توفد الطلاب وتستقدم الخبراء، وتقدمت علميات التنمية مع ازديادٍ في حاجة المجتمعات الريفية إلى عناصر من القطاع المتعلم.

لكن المجتمعات الغربية وصلت إلى الذروة في هذه النقطة، فالتقارب كبير بين ريفها وحضرها. ومهما يكن، وكما سبق القول، فإن الحركة المعاكسة من المدينة إلى الريف قد عادت (كما هو الحال في بلدان عينة الدراسة). وذلك في كافة البلدان العربية خاصة النفطية منها، وتحول الريف بسرعة هائلة، وبدأ التهام المدينة للريف، وتغيرت مع هذا الالتهام العلاقات الاجتماعية والعلاقات الشخصية الوثيقة، وازدادت مظاهر الذاتية المستقلة. . .



الفصل الرابع

مدينة بيروت

المدينة نموذج تنسيق زمني وطوبوغرافي. وهي الاطار الاجتماعي الذي تحافظ الجماعة عبره على الذكرى وتجعلها حاضرة... إذا كانت المدينة تحمل الماضي بالحاضر، ويتناقل أهلها وعائلاتها وأولادها المثل والقيم والتقنيات والعلاقات الشخصية والذكريات الجماعية، فما هو حال مدينتنا «بيروت» كمدينة مرجعية وكعاصمة عرفت أوج عزها وتطورها في الستينات ومنتصف السبعينات؟

الحديث عن مدينة بيروت، يعني الحديث عن خصوصية هذه المدينة التي تترجم على مستويين:

1 ـ موقعها بيبن المدن العربية الأخرى وتماثلها أو تباينها معها، هذه المدن التي بدأت تفقد هويتها وأصالتها وتراثها!

2 ـ تأثرها كمرجع وكمركز وكعاصمة بأحداث الحرب التي مرت عليها بعد أن كانت قد تأثرت تاريخياً بمرحلة الانتداب الفرنسي...

وفي الحالتين لم تعرف سوى **الفرض**؛ فقد فرض المستعمر الفرنسي طابعه؛ وهذا ما برز جلياً في طراز العمارة في بيروت.

I ـ المدينة الاسلامية العربية

إن التفسير اللغوي لكلمة «المدينة»، هو تفسير مجرد ومطلق. لقد أصبحت هذه الكلمة بعد الاسلام ذات مدلول مزدوج[1]:

---

(1) الشيخ طه الولي ـ المدينة في الاسلام ـ الفكر العربي عدد 29 ـ المدينة والمدينة العربية. بيروت 1982 ـ ص 108.

- الاسم الجديد الذي أطلقه النبي محمد بعد هجرته على يثرب (استبدال كلمة يثرب بكلمة المدينة).

- ما وصفه الاسلاميون للتعريف على أنها البلد الذي يكون فيها منبر أي المسجد الجامع. وقد تكررت كلمة «مدينة» في القرآن كثيراً. . .

لقد أعطى الاسلام المدينة الاسلامية شخصيتها، وطبعها بطابع خاص، ومنحها القوة التي ساعدتها على أن تؤكد ذاتيتها. ومن ملامحها الأساسية: تواجد قلعة لها مهمة دفاعية - وجود مجمع يضم قصور الامراء والمصالح الحكومية والادارات - وجود مركز لها يضم المسجد الجامع والمدارس الدينية والأسواق المركزية - وجود منطقة تضم الاحياء السكنية التي تتميز بالاستقلال النسبي، وأخيراً وجود الضواحي أو الاحياء الخارجية حيث يقيم الوافدون الجدد[1].

وعليه فقد تعددت وظائف المدينة الاسلامية؛ من دينية، إلى اجتماعية، إلى اقتصادية، إلى سياسية، إلى عسكرية (المدن الثغور).

وسع نشاط المدن الاسلامية، وتنوعت حياتها التي كانت داخل أسوارها تتمتع بقدر من الحيوية ليس له مثيل.

لم تكن المدن قبل الدعوة الاسلامية، كما أصبحت عليه بعدها، فامتازت ببناء مترابط وبتقارب بين المنازل وبأحواش واسعة مبنية على نظام الحارات؛ واستمدت طرازها الفني من المسجد الجامع. وأخذت الدار فيها شكل مربع يتوسطه فناء أشبه ما يكون بصحن الجامع، تفتح عليه الأبواب ويمد بالشمس وبالضوء وبالهواء الحجرات الأخرى. كما كثرت الحمامات الشعبية، وكثرت المزركشات والمنمنمات الهندسية داخل إطار بناء أفقي ولا عامودي، يراعي في مواده المناخ المسيطر. يقول «أنطوان عبد النور» أن المدينة العربية قد تغيرت[2]، وما كان يميزها عن القرية: الأعمال التجارية

---

(1) د. سارة منيمنة - التكوين الوظيفي للمدينة الاسلامية - الفكر العربي - مسألة، المدينة والمدينة العربية I - 1982 - بيروت ص 134.

(2) Abdel-Nour A.: Introduction à l'histoire de la syrie ottomane (XVI- XVIII- S.). Université Libanaise - Beyrouth 1982. p. 372.

التبادلية والمسجد. لقد كانت أساساً طوائف وجماعات بشرية متضامنة غير متفرقة.

عكست المدينة الاسلامية شكل العلاقات والاحتياجات للمجموعات العائلية والعصبية المتقاربة، المنطوية على نفسها، المتجاورة أو المنظمة. وهذا ما تجسد لاحقاً في صورة المسكن العربي. شكلت المدينة العربية النواة التي حققت تكامل وكلية الحياة الاسلامية، والتي طالما تردد لها كلمة «دار الاسلام»، وهو اسم يطلق أيضاً على أرض الاسلام بتمامها.

لكن أواخر القرن الثامن عشر بدأت تتغير المدن العربية بعد عمليات الهدم التي تعرضت لها مع الاستعمار، مع الكولونيالية (السياسية والعمرانية)[1]، وأصبح الانسان ينتمي «للبناية» وليس «للحارة»... فانتقل تأثير الغرب علينا من التأثير السياسي إلى الفيزيائي، ومن ثم إلى النفسي. كما أن التصنيع والحداثة بمختلف وجوههما قد اكتسحا خصائص المدينة الاسلامية، إذ أصبحت هذه الأخيرة مركزاً للتحديث السلطوي والاجتماعي والاقتصادي، ومركزاً للمواجهات الايديولوجية، ومكان صراع بين هجمة القوة الصناعية وبين التوكيد السياسي والمذهبي لسكانها»[2]. ورأى الكثير من المهندسين المعماريين أن المدينة الاسلامية الحديثة هي وراء قلق الانسان الحالي وعدوانيته، فبلد مثل مصر المعروفة بكثافتها السكانية، يعيش معظم سكانها على 6٪ من مساحتها الكلية، والباقي من هذه المساحة فراغ. مهما بلغ هؤلاء السكان من التحضر والعيش في المدينة ـ الغُربة «فلا بُدّ أن يفقد معظمهم إتزانه الخلقي والنفسي... إنها مشكلة المعمار في المدينة، وهي في نفس الوقت مشكلة الانسان في هذه المدينة. والحل يكون بنقل العاصمة إلى مدينة أخرى، كما حدث في البرازيل، أو على الأقل لانقاذ ما بقي من تراث معماري في هذه المدينة»[3].

---

(1) كما حدث في القاهرة إبان الحملة الفرنسية 1798 ـ 1801، وكانت هذه الحملة بدايات التغريب العمراني.

(2) D. Chevalier- Légalite de la ville, in Politiques urbaines dans le Monde Arabe- Maison de l'orient- études sur le monde arabe no. 1- Sindibad- Paris 1984. p. 491.

(3) مجلة المجلة ـ عدد 321 ـ ص 45 ـ 47.

إن التغيير الحاصل في المجتمع العربي على الصعيد الاجتماعي والسيكولوجي، أنتج سلوكاً جديداً ومفاهيم جديدة، أعطت للمدينة الاسلامية إطاراً جديداً، وزمنية حديثة...

يرى «حسن فتحي»، كبار مهندسي مصر المعماريين، أنه مع زوال العلاقات العائلية والجماعية للانسان العربي، أصبحت العمارة السكنية في المدينة الاسلامية تجارية، ولم يعد هناك مكان للعمارة العربية الأصيلة. حتى أن الفلاح، أصبح يلهث وراء الفلوس التي تيسر له بناء منزل على طريقة البيوت «الحقيرة» في المدينة. العمارة شاهقة في المدينة الاسلامية. إنها عقدة الأجانب. إنها عمارة باهتة بلا شخصية وبلا محتوى توحي بالملل والسأم[1].

إنه فراغ معماري ضائع الهوية والتراث، أثر على فراغ المدينة، حيث أن المعماري العربي قد ألغى كل مظاهر الزخرفة وعناصرها على حساب الآلهة؛ مما يبعث على التساؤل عن تواجد فراغ ثقافي عنده... وعليه نجد أن المدينة العربية الاسلامية قد انحرفت وأضاعت مرجعيتها وقيادتها لصالح مفهوم جديد من التخطيط المديني، الذي ظهرت معه وظائفية جديدة، فأصبح معها الحي الجديد حياً بدون مرجع وبدون أسطورة[2].

إن المدينة العربية الاسلامية المعاصرة تعيش أزمة فعلية. إنها تحمل معالم متناقضة لحضارتين مختلفتين، فهي مدينة «تكاد تخيل للمرء أنه يشاهد فيها مدينتين، لا بل حضارتين لمجتمعين مختلفتين. هذه الازدواجية تعني أن هناك إنحلالاً لبنى معنوية ومادية تقليدية في التمدن المعاصر. وهناك بنى حديثة أو شبه حديثة لم يكتمل تشكلها على رغم سنوات الحداثة الطوال. وكأن هناك شيئاً ناقصاً في المدينة العربية الحديثة، وكأن مظاهر الحداثة المعنوية والمادية ولدت ولادة قيصرية أو متسرعة لم تتجذر الا سطحياً»[3].

II - مدينة بيروت

كي نربط مدينة بيروت بمرجع المدينة العربية الاسلامية؛ نقول أنها

---

(1) المصدر نفسه.

(2) A. Bouhdiba- La ville arabe dans l'Islam- Tunis 1982. p 2- 20.

(3) جريدة الحياة ـ الجمعة 15 شباط 1991 ـ عدد 10239.

تأثرت تاريخياً بمرحلة الانتداب الفرنسي التي قطعتها عن الحضارة الاسلامية فترة من الزمن، وفرضت عليها الارتباط بالغرب، فلم يتوافر الطراز اللبناني المعماري في مبان كثيرة كان أغلبها ينتسب إما للطابع التركي وإما للطابع الفرنسي، إضافة إلى تواجد أبنية أميركية الطابع رغم محدوديتها فرضت أجواء جديدة وأضافت لوناً على الألوان المتعددة المتواجدة؛ مما يبعث على التساؤل عن هوية العمارة اللبنانية.

وإذا فقدت المدينة الاسلامية هويتها، فإن بيروت فقدتها قبلها؛ لأنها عرفت ومنذ القديم بانفتاحها الحضاري على الغرب، وأتت الحرب اليها حاملة معها: الاغتراب والازدواجية. نختار أن ندرس مدينة بيروت عبر مؤشرين اثنين:

الأحداث والهجرة:

وقبل التعرض إلى هذين المؤشرين، ندخل في تحديد سريع لمدينة بيروت. إنها وكما يقول «المعلم بطرس البستاني»: «مدينة قديمة جميلة **تجارية**، من **أهم مدن سورية**، واقعة على شاطئ بحر الروم... على الجانب الشمالي الشرقي من لسان طويل داخل في البحر المتوسط إلى نحو مسافة 9000 متر يعرف برأس بيروت... قيل أن الذي وضع أساساتها هو الجرجسي خامس أولاد كنعان بن حام بن نوح... أما اسمها فقيل مأخوذ من بعل بربت أحد معبودات الكنعانيين... وقيل بل أخذ اسمها من لفظة باروث أو بئيروت ومعناها بالعبرانية والفينيقية والسريانية بئر والواو والتاء للمجمع أو المبالغة، وذلك لكثرة ما فيها من الآبار كما هو معروف إلى الآن... أسبقيتها العلمية والأدبية في المعارف العصرية قد حفظت لنفسها مقدماً وسبقاً لا يختصان بها طبيعياً لقلة محصولات البلاد التي يتعلق صدورها منها بالمرور بها. وفضلاً عن ذلك ترى كثيرين من أهاليها أصحاب الاقدام يذهبون إلى المراكز التجارية خارجها ويكتسبون الأموال ويرجعون بها اليها[1].

أثرت الاحداث اللبنانية على طابع هذه المدينة وغيرت تركيبتها

(1) بطرس البستاني ـ دائرة المعارف مجلد رقم 5 ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ لم تُذكر السنة ـ ص 744.

الوظيفية، وعاشت في أزمة، وجمعت حولها منطقة حضرية أو مجمعة مدينة تابعة لبيروت. كما فتحت مراكز العاصمة التجارية والاقتصادية، وأوجدت البدائل عنها وأنشئت مرافئ بحرية وجوية جديدة، ربما تدوم وربما لن تدوم.

ورغم الهجرة المعاكسة إلى الريف التي بدأت في سنة 1985 م. وما فوق (هجرة من بيروت إلى المناطق الجبلية الريفية الأكثر أمناً)، خاصاً إلى جنوب لبنان بعد أن ترك الفلسطينيون المنطقة، أدت إلى إعمار هذه المناطق وبعث الحياة فيها، خاصة بعد استمرار وانتشار البطالة وأزمة السكن وغلاء المعيشة وفقدان الأمن في معظم المناطق وتلوث بيروت[1].

الهجرة من الأرياف إلى مدينة بيروت ـ العاصمة

عرفت بيروت منذ القرن التاسع عشر نزوحاً بشرياً واسعاً، وتوافد اليها جدد من الأرياف اللبنانية، حيث ضعف انتاجية الزراعة وزيادة عدد السكان. لقد كانت بيروت بمراكزها التجارية القديمة، قلب المدينة النابض، الحلم الكبير. وعرفت بيروت، المدينة بمركزها القديم الذي كان يصلها بالعالم الخارجي عبر مورده التجاري الأهم المتفوق على بقية القطاعات، والذي يميز العاصمة ويكسبها دوراً ريادياً في المنطقة. كان المركز القديم بمجموعة أسواقه ،كان تواجد المهاجرين ومصدر عيشهم. تمحور هذا المركز حول ثلاث مساحات أساسية: البرج ـ رياض الصلح ـ الدباس، هذا بالاضافة إلى ساحة النجمة، وإلى باب ادريس، والمرفأ بوابة بيروت على الخارج.

، كان المركز القديم بساحاته تلك وبمرافقه الرمز الذي عكس إسقاط المجموعات والفئات على المجال، كما عكس العلاقات التفاعلية للمجموعات داخله. كان لكل جماعة سوقها وميدانها، لكن هذا التقسيم لم يكن حاداً لدرجة عدم التداخل والتمازج (تداخلت الأسواق بعضها وراء بعض، وتشابكت الانتماءات بين الوحدات والجماعات). ولكن هذا لا يمنع تواجد بعض الفئات بكثرة مقارنة مع غيرهم، (ونلفت النظر إلى أن هذا التقسيم يعود إلى ما قبل الحرب أي ما بين الستينات ومنتصف السبعينات):

---

(1) د. علي فاعور ـ تأثير الاحداث على التركيب الوظيفي لمدينة بيروت ـ مجلة الفكر العربي عدد 30 ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1982 ـ ص 91.

- 35٪ من السُّنة.

- 25٪ من الارثوذكس.

- 20٪ من الأرمن.

بينما تمركز الشيعة والموارنة حول 8٪ من المدينة المحيطة بالمركز، وهي نسبة تتجاوز هذا الرقم كلما بدأ المد التصاعدي نحو الضواحي[1]. وعليه فإن المهن قد إنقسمت أيضاً في بيروت، ونلحظ أن الشيعة اهتموا بالحرف الغذائية[2](كالأفران مثلاً؛ وهذا ما ورد في روايات «حسن داوود» وحديثه عن مهنة الفران في المدينة المهاجر اليها).

جمع مركز بيروت القديم كمكان أساسي، عناصره غير المتجانسة، فجمع ما بين القدس والدنيوي؛ ما بين الديني والتجاري؛ ما بين المسموح والممنوع؛ ما بين النقي واللانقي... واقتربت المساجد من الكاتدرائيات والكنائس[3]... إنه بوابة عبور اجتماعية واقتصادية، لكنها لا تقوم على الانتاج بل على التبادل.

إنه مسرح التنظيم المدني الماضي، إذ جمع بين الداخل والخارج.

لقد شهد هذا المركز القديم تواجداً لبورجوازية صغيرة متوسطة عير مفتاح التجارة، وليس الزراعة أو الصناعة أو التقنية أو العقارات.

بين هذا كله «كانت تظهر العائلة كعنصر قوة بأنماطها الزواجية المفروضة»[4]...

وكانت تسود «الحضرية» كبعد ثقافي مميز يختلف عن المدينية الحديثة، وكنتاج هوية المديني. البيروتي الذي يختلف عن الفلاح.

ساعدت أهمية هذا المركز القديم والقوة التي منحها للمدينة، على أن

---

(1) Nabil Beyhum. «Du centre aux territoires- La centralite urbaine à Beyrouth. in Maghreb-Machreck- Espaces et sociétés du Monde Arabe- Janvier- Février- Mars. Paris 1989. La documentation française. p. 180.

(2) المصدر نفسه ـ ص 182.

(3) المصدر نفسه ـ ص 184.

(4) المصدر نفسه ـ ص 185.

يكثف عملية الهجرة اليها، هذه الهجرة التي اندرجت في سياق ارتقاء اجتماعي يحصل عبر الوظيفة والعلم (وما يمكن للفرد بعدها أن يحصل من المال لأنه صفة مدينية). أحالت الهجرة، مدينة بيروت إلى مدرسة ثقافات اختلطت فيها الثقافة وتنافرت... رغم بعض أنواع هذه الهجرة، ونعني الهجرة المؤقتة، فالمدينة في كل الأحوال لا تنفصل عن الناس، وعن المجتمع وبالتالي عن الأهل. إن الاقامة المشتركة الطويلة تؤثر على علاقات الناس وعلى تفاعلهم في ما بينهم. إنها تمتحن حقوق القرابة والرحم امتحاناً قاسياً ومريراً[1].

ولقد بدت بيروت «ضاحية من ضواحي الحواضر الغربية الكبيرة، أي أنها مدينة عبور وانتقال»[2].

موضوع الهجرة هذه وكيفية تحول العادات والقيم من ريفية إلى مدينية كانت محور كلام القصص والروايات الاجتماعية بنفس النسبة التي كانت فيها مدار أبحاث علمية اجتماعية ونفسانية. إذا تتبعنا محور «تحول علاقات المكان المديني» فإن «الاجتماع البيروتي» يواجه خرقاً لاطاره التجمعي، إنه يواجه علاقة جديدة: علاقة الوافدين اليه بالسكان المحليين[3]، علاقة يراها «حسن داود» علاقة قوة وجذب وسيطرة من قبل المدينة وليس العكس[4]: فالمدينة وفي بداية الأمر، لا تحمل الوافد اليها - عبر رحلته هذه - على ترك نمط لباسه وأكله ونومه وعلاقاته القرابية... وهي متأكدة من أنه لن يلبث ويواجه عدوى الفردية واستحواذ حس المكان واستشراء نزعة الخصوصية والاستقلالية لاحقاً. بعدها يشمل التحول الاشياء والبشر.

وبالفعل، فقد أقام أبطال رواية «بناية ماتيلد» في بداية رحلتهم (يسمي حسن داوود هجرة الأهل من الريف إلى المدينة بالرحلة؛ رحلة فيها الكثير من التخيل والوهم)، في شقتين اثنتين، لكنهما لا تحملان معنى الانفصال بين بيتين أو عائلتين؛ لأن اللحمة والرابطة هي التي تجمع بينهم. بعدها ترحمت

(1) د. وضاح شرارة - المدينة الموقوفة - دار المطبوعات الشرقية - بيروت 1985 - ص 75.

(2) المصدر نفسه ص 93.

(3) محمد أبي سمرا - المكان والاجتماع المديني في بيروت - مجلة الفكر العربي - عدد 30 - بيروت 1982 - ص 95.

(4) حسن دوود - بناية ماتيلد - دار التنوير - بيروت 1983.

الأم على أيام السكن الأول (بعد هجرتهم من الريف)، وقالت: كنا عائلة واحدة وبيتاً واحداً وفي عودة عكسية للقرية (قسرية أو قسرية) فإن بطل رواية «أيام زائدة»، عاد بيته كما لو أنه قضى في بيروت عمره كله، وبنى «حماماً» آخر اقتطعت مساحته من أرض المطبخ الضيق الطويل: «ألحّت كثيراً لأبنيه، وقالت أن الناس جميعهم صاروا يقيمون مراحيضهم داخل البيوت»[1]. تُرِكَت غرف المسكن القديمة العتيقة إما فارغة، وإما حولت إلى مخازن تركت فيها أغراض لا يتسع لها البيت الحديث. كل قديم متروك، أو أنه سيعرض للبيع بعد موت الكبار ـ كما قال الجد ـ البطل في رواية أيام زائدة، حيث ظهر عدم الاكتراث بالأرض، فالمقصد والحياة، هناك في المدينة!

أحدثت الهجرة تحولات في علاقات الناس داخل المجتمع اللبناني، لكنها لم تحدث تلك التحولات العميقة التي أحدثتها الحرب في تركيبته، وإدراك التفاوت القائم في الخصائص الاجتماعية والاقتصادية، والخلل الحاصل في التركيب السكاني لبيروت حيث يمثل الواقع حالة مميزة، «لا تعرفها المدن العربية ولا حتى أية مدينة في العالم». إنها تركيبة الحرب في خصوصيتها وطبيعتها، حيث التعايش القائم بين الفقراء والأغنياء في أبنية متجاورة، ورغم التناقض في العادات والتقاليد والتفاوت الشاسع في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية... بحيث يأخذ «ترييف» المدينة أشكالاً متنوعة ومتعددة، وحتى تكويخ الاحياء القديمة، حيث توجد الابنية المتدهورة في وسط العاصمة (كباب ادريس وغيره)»[2] إتسم بتدمير كلي للمركز القديم وبنسيج حضري لا يخضع لأية قواعد مدينية.

أحداث الحرب الأهلية وأثرها على مدينة بيروت

إن التمركز في أحياء بيروت، لم يكن من نتائج الهجرة التي سبق الحديث عنها، بل كان أحد أهم نتائج الحرب الأكثر مباشرة والتي أضفت عليها ميزة التهجير. لقد التهمت نيران ميليشيات الحرب نار المدينة، ولم

---

(1) حسن داوود ـ أيام زائدة ـ دار الجديد ـ بيروت 1990 ـ ص 25.

(2) د. علي فاعور. تأثير الهجرات الناجمة عن الحروب على أوضاع المرأة العربية: **دراسة لحالة** لبنان. المستقبل العربي ـ عدد 136 ـ بيروت 1990 ـ ص 105.

تحرق فقط المركز القديم، بل منعت معه إعادة البناء والترميم.

في أوائل السبعينات، ومع ازدياد كثافة بيروت وقلة تواجد فرص العمل فيها، بدأت موجة الهجرة، إلى دول الخليج. وفي عام 1975 بدأت تعيش البلاد في حرب متواصلة، كان مسرحها الأساسي بيروت، رغم تنقلها بين المدن والأرياف الأخرى. وهي تمثل حتى الآن، أطول النزاعات الداخلية في لبنان، حيث تم انقسام الأماكن عبر خطوط تماس، أحدثت انقطاعاً بين فئات المجتمع اللبناني، وبرزت كيانات طائفية متباعدة. وحتى بداية الحرب هذه، كانت بيروت تمثل نموذج المدينة المهيمنة: هي مركز معظم المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية والصحية، إنها بوابة الشرق الأوسط[1].

تكبدت بيروت إذاً خسائر فادحة خلال الحرب التي كان لها نتائج متعددة.

فعلى **الصعيد التجاري**، تعرضت المناطق التجارية في السوق القديم لبيروت لتدمير ولاحراق معظم مبانيها(وكانت تحوي حوالي 6000 مؤسسة تجارية). فتفتت المنطقة التجارية المركزية، وقامت أسواق جديدة في الاحياء وليس في النواة ـ المركز، فتحول النشاط من وسط المدينة إلى الضواحي والاحياء، واستفادت المدن المجاورة، فازدهرت أسواقها (كمدن جونية ـ عاليه ـ بعقلين ـ زحلة ـ شتورة ـ صيدا ـ طرابلس). وعلى الصعيد الصناعي دمرت أيضاً المصانع وانتقلت قسرياً نحو الساحل البيروتي (دمر حوالي 150 مصنعاً)؛ مما أدى إلى ارتفاع نسبة الهجرة الخارجية (عمال المصانع الحرة).

أما **القطاع المصرفي** فقد خسر كثيراً بفعل انتقال بعض المصارف[2] فيه إلى البلاد العربية وبلاد أوروبا، وحملت الحرب إلى انتقال المصارف نحو الاحياء السكنية من المدينة خاصة الضواحي، كما تأثرت حركة الملاحة

---

(1) د. علي فاعور ـ تأثير الأحداث على التركيب الوظيفي لمدينة بيروت. الفكر العربي ـ عدد 30 ـ بيروت 1982 ـ ص 81.

نلفت النظر إلى أنه رغم الحرب، فإن المصارف ظلت ناشطة طيلة أيام الحرب، وأفلس مضها في المضاربات والتوظيف الرديء والاحتيال.

البحرية والجوية. كما تضاءل دور مطار بيروت الدولي وقل القادمون اليه... من ناحية أخرى، شهدت بعض الاحياء (التي استهدفها القصف بشكل مباشر) حركة تهجير واسعة، اختار فيها السكان أحياء أخرى تتناسب مع انتمائهم الطائفي... مما كان له آثار سيئة على الصعيد الاجتماعي، فبالاضافة إلى غلاء المعيشة، زاد الطلب على المساكن خاصة داخل بيروت.

حدثت في الوقت عينه، هجرة مضادة (تعني دراستنا) من بيروت إلى المناطق الريفية الآمنة؛ مما خفف عبء الحمل على المدينة، وأدى إلى إعمار المناطق الجبلية الأخرى. ولكنه ومن ناحية أخرى، ولأنه أتى في سياق حرب مدمرة، وليس في سياق نمو عمراني مخطط له، كانت انعكاسات مستقبلية خطيرة، يضاف إليه تلوث البيئة في بيروت، ومع توقف الخدمات البيئية الطبيعية والدمار والخراب[1]...

هذا كله أدى إلى فقدان العاصمة دورها الاقليمي ومركزها العالمي، وتراجعت مدينة المال والتجارة والخدمات السريعة، وحلّ محلها مبدأ يميزه العنف، عنف التدمير وإزاحة الآخر ومشرّع بأيديولوجية الدفاع[2] وبغياب سلطة سياسية مراقبة.

رمز المجال الديني لبيروت العاصمة إلى **اللقاء**، **التبادل**، ولأبيد المركز كي تتثبت الحدود، إذن التفرقة والتقسيم[3].

لقد عمل «نبيل بيهم» على تفسير العمل الميليشيوي التدميري من وجهة نظر سوسيولوجية:

1 - انه عمل تدميري توكيدي من قبل الميليشيات التي كانت مسيطرة، والتي قدمت من خارج المساحة المدينية التي لم تكن ملحوظة في المجال المسيطر، والتي كانت بعيدة أو مستبعدة عن التمركز في العاصمة.

2 - تفشي قاعدة حكم انتقامي، أعطى صبغة الوطنية لنفسه، وحكم بالموت على المدن القديمة ذات النسق المديني، والتي تشكل هيكل وبنية

---

(1) المصدر نفسه - ص 84 - 85 - 86.

(2) N. Beyhum. المصدر نفسه - ص 186.

(3) N. Beyhum المصدر نفسه - ص 188.

الامبراطورية العثمانية، وحيث كانت بيروت آخر شاهد لها[1].

الحرب كانت قاسية مهما كانت التفسيرات، ونتائجها ما تزال جاثمة أمام الجميع وفي المجال العام، وخاصة التخطيطي المديني إذ نلحظ:

- تدهور حالة النسيج العمراني الذي يحتله المهجرون (الشبكات التحتية)، ونشوء أحياء صغيرة مقفلة ضمن العاصمة.

- تغير ديموغرافي كبير لبعض الاحياء في العاصمة والضواحي أدى إلى تفكك البنى الاجتماعية الموجودة.

- تدمير أحياء حزام البؤس وتحول وجهة استخدام الأراضي التي كانت تحتلها.

- ازدياد كثافة الاحياء الموجودة وازدياد العمران السكني في ضواحي بيروت بكافة وجهاتها، لاستيعاب المهجرين الذين استطاعوا الانصهار في مناطق الاحتماء عبر تملك أو استئجار شرعي.

ومهما تكن النسبة (في شرعية التملك أو الاستئجار)، فإن المهجرين الميسورين ساهموا في إنعاش الحركة العمرانية في مناطق الاحتماء. لكن مظاهره عشوائية وغير منظمة، فالأبنية التي نشأت تخالف بمعظمها قوانين البناء، وتتمدد بشكل غير مدروس دون حساب لضرورة وجود الشبكات التحتية المناسبة، مما أدى إلى إيْجاد خلل في تأمين احتياجات المقيمين من الخدمات العامة، وتضخم البنية العمرانية قياساً للتجهيزات والشبكات الموجودة أصلاً.

- نشوء احياء جديدة وتمدد عمراني لما يسمى بالاحياء غير الشرعية في الضاحية الجنوبية[2].

هذا التوسع أو التمدد في احياء بيروت بداعي التهجير القسري الناتج عن الحرب، كان يكرر نفسه في مناطق أخرى من لبنان، وبالأخص في المنطقة الممتدة من دير الزهراني حتى النبطية، ولم يكن فقط بداعي التهجير، بل

(1) المصدر نفسه ـ ص 189.

(2) د. وفاء شرف الدين ـ واقع التنظيم المدني في أماكن التهجير والاحتماء ـ مصدر سبق ذكره.

بداعي العودة المنتصرة إلى البلاد مع علامة فارقة: الرخاء المادي (تدفق المهاجرين وعودتهم إلى الوطن)؛ فنشأت الاحياء الجديدة المتسمة بعشوائيتها وبلا قانونيتها. لقد أصبحت نواة مدن صغيرة مستقلة بحاجة ماسة لايجاد حل لمعضلتها العمرانية واعادة تنظيمها، وليس فقط عبر بدائل للمساكن، بل أيضاً إيجاد أماكن وفرص عمل ومراكز بديلة.



الفصل الخامس

المجال النفساني الخاص

ـ المسكن ـ

إذا كانت «المدينة» هي أول تعبير وتواجد للمجتمع داخل المجال، وإذا كانت مدخلاً أولاً لفهم الوعي الجماعي، فإن «المسكن» هو المساحة الأكثر داخلية للمدينة (بشقيها الداخلي والخارجي)، وهو الذي يتواجد في إطار المجال الاجتماعي العام. لقد كانت دراسة «المدينة» مدخلاً لدراسة «جغرافية المسكن»، التي لا تعتبر مسألة حجز مساحة أو مكان مميز فقط، بل انها جملة علاقات وممارسات وأحلام ومشاريع. إنها بنية نفسية تعبر عن شخصية صاحبها، حيث يمكننا القول أن التنظيم والتغيير في البناء ما هو إلا تنظيم وتغير لذات الشخص ولتصوراته ولدوره في محيطه (الهابتوس)[1].

إذ أن كل تحرك داخل مسكنه ما هو إلاّ نتاج شخصي يذهب أبعد من الظاهر وينبئنا بما هو، عن هويته، ومبدأ الهوية مبدأ أساسي برأي M.Eleb[2]. إن البناء السكني (العمارة) هو عمل توليفي يحمل معاني الاندماج والتماهي والتقويم للموقع (ضمن الجماعة أو المجموعة التي ينتمي إليها). وغالباً ما يحمل هذا النتاج ازدواجية (تخص البلدان النامية بشكل عام، وليس البلدان العربية فقط).

---

(1) د. امحمد صبور ـ المعرفة والسلطة في المجتمع العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1992.

(2) M. Eleb. Le logement et la construction de l'identité, in Bulletin de psychologie, tome XXXVI, no. 361. p. 736.

إن علاقة صاحب المشروع بمسكنه تشابه علاقة المثقف بالسلطة (فرغم انخراطه بالجامعات الغربية وتوجهه الغربي) التي ما تزال علاقته بها أي بالسلطة هي نفسها كما كانت سائدة من قبل وفي فترة ما قبل الاستعمار[1] [2].

1 ـ ماذا نعني بـ «مسكن»؟

يُستعمل في اللغة العربية كلمات: بيت ـ منزل ـ مسكن، وكلها تحمل معنى الاقامة في المكان.

ـ **البيت** هو «اسم لمسقف واحد، له دهليز يتخذ مأوى للانسان أو البهائم، سواء كان من حجر أو غيره. وقد سمي به مركباً مع غيره، عدة أماكن المشهور منهجاً... : بيت آون ـ بيت ابل ـ بيت شباب ـ بيت الدين الخ...»[3] واقترن اسم البيت بمعنى العائلة، لأن البيت هو رمز العائلة.

ـ **المنزل** يعني مكان النزول ـ من ينزل نزولاً ومنزلاً فهو يحلّ عليه ضيفاً، أي يحل بالمكان.

ـ **المسكن** هو المنزل والبيت مكان السّكن وجمعها مساكن. ان تسكن منزلاً، يعني أن تقيم فيه وتتوطن[4]. ساكنه وتساكنا يعني أنه سكن معه في بيت أحد فأصبحوا سوية: أهل الدار الساكنون.

ـ **الدار** كلمة لها تعبد ديني، تتردد في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية وجمعها دور وديار، وهي تستعمل لذكر الدارين = الدنيا والآخر، ونقول **«دار فلان»** يعني **«بيت فلان»**. حتى أن كلمة «بيت» بهذا المعنى، تشير إلى **البيوت المقدسة «بيت الله»**...

لقد فضّلنا في هذه الدراسة، استخدام كلمة «مسكن»؛ لأنها تحمل فعل الاقامة والتوطن، كما تحمل معنى الديمومة والاستمرارية في العلاقة مع

---

(1) د. صبور ـ المصدر نفسه.

(2) **المثقف** ـ ← طبقة ← سلطة ← موقع ـ مهنة / وظيفة ← هرمية تراتبية.
صاحب المسكن ← مهنة (دخل حر) ← مسكن ـ، موقع.

(3) المعلم بطرس البستاني ـ دائرة المعارف ـ سبق ذكره ـ مجلد رقم 5 ـ ص 730.

(4) الشيخ أحمد رضا ـ معجم فن اللغة ـ المجلد الثالث ـ مكتبة الحياة ـ بيروت 1959.

المكان السكني، أكثر من النزول فيه أو الحلول به، أو حتى الاباتة المؤقتة داخله. . . بهذا المـ تجيب كلمة «مسكن» على البعد الاجتماعي، الانتروبولوجي والنفساني الذي نحن بصدده.

2 ـ فلسفة المسكن

لقد كان أول من تطلع لدراسة السكن والمسكن G.Bachelard وH.lefébvre، وضمن إطار تحليلي وظائفي. فالسكن هو خلق مساحة يومية، هو إحاطة بسلسلة واسعة من العلاقات والمشاهد العائلية التي يجب اكتشافها؛ وبذلك فإن ساكني المنزل يكونون في علاقة مع نسق اجتماعي، مع أنماط جماعاتية أو عصبية، ويرتبطون في ما بينهم وبشكل خاص مع عائلتهم بمركبات علائقية وأدبية معينة.

يعيش الساكن علاقات حب وكراهية اتجاه مسكنه ومن معه في هذا المسكن أو من يحيط به، هذا المسكن الذي يرتبط بهوية صاحبه الذي يرتبط بدوره بالجماعة (forme du groupe/ forme de L'habitat). . . وكم من نصوص تحدّثت عن أماكن لأشخاص معينين، أو عبّرت عن صفات أشخاص سكنوها. فالعودة للمكان هو نموذج من التعلق الفردي بالمجال الجماعي.

التعرض للمسكن وفلسفة المسكن قريب من التعرض للسكان، ففكرة المكان لم تؤثر لغوياً فحسب، بل أدبياً (شعراً ونثراً) واجتماعياً ونفسانياً وانتروبولوجياً. ولأن نهج فلسفة السكن هو نهج حديث لم تتثبت جذوره بعد، فإننا لن نتعرض في هذا القسم من الفصل إلى الفلاسفة فقط، بل إلى بعض من الشعراء والأدباء والمهندسين الذين لحظوا فكرة السكن في كتاباتهم.

أ ـ باشلار G. Bachelard: هو من أهم الفلاسفة الغربيين الذين تعرضوا للمسكن ولفلسفة المسكن. لقد تكلم عنه بفرح، بغبطة. لقد أحياه، وجعله عضواً حياً، خصوصيات وصفات هندسية تصمم ملامح إلفة. ومسكن الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكييف الخيال.

عبّر «Bachelard» في كتابه «جمالية المكان» أو «la poétique de l'espace»[1] عن المسكن بأنه المساحة المحببة الأولى لنا، إنه حامي القيم

(1) Cahiers internationaux de sociologie. volume IXXII- 1982. paris P.U.F.

و«الحميمية»، إنه يترك فيه وعبره كل الذكريات والأحلام التي ترتبط بداخلية قيم فردية خاصة، ذلك أن المشاعر تسكن معنا. ويحمل المسكن أول طلة لنا على العالم منذ الولادة، إنه المعيش والتخيّل. إنه ركننا في العالم. إنه كوننا الأول.

يقول «Bachelard» ان المنزل المحبب الينا، غالباً ما يكون مسكن الريف وليس مسكن المدينة، حيث تلتصق الذكريات أكثر هناك بالأشياء، بالزوايا، بالأجواء، بالجسد... فيه تكون العودة إلى الذات، فيه يكون الانطواء.

يُعتبر «Bachelard» أول من مهد لعلم نفس حقيقي للمسكن؛ لأن المسكن بالنسبة اليه متتالية من الصور التي تعطي الانسان أسباب أو أوهام ثبات... برأيه، إنه من المنطقي القول «إننا نقرأ بيتاً» أو «نقرأ حجرة»؛ لأن الاثنين رسمان بيانيان سيكولوجيان يقودان الكتاب والشعراء في تحليلهم للإلفة.

هذا المسكن بخزائنه، برفوفه وبمكاتبه وبأدراجه وبصناديقه، وهو لغة الحياة اليومية وأدوات حياتنا النفسية الخفية، التي بدونها تُفقد نم ذج الالفة[1] في الحياة.

لقد قيل عن «باشلار» أنه أحدث ثورة في علم الجمال، جمال المكان، والمكان هو المكان الأليف (بيت الطفولة)، وكان نهجه نهجاً ظاهراتياً يصلح لدراسة موضوع الخيال[2] كما قال، يطرح جانباً سببي التحليل النفسي التي تبناها في كتبه عن الأولى عن علم الجمال (التحليل النفسي للنار). إذا كان مركب «أوديب» عند أبي التحليل النفسي هو بداية العلاقة الصعبة والتي تعود إلى الفروقات الجنسية للأم وللأب وإلى ظهور العدوان، فإن هذا المركب قد أزيل تماماً مع «باشلار» حين يتكلم عن كيفية ولادة النار؛ لأنه حال ولادته يطيح بوالديه.

من جهة أخرى، وفي حين يبني التحليل النفسي خياله ابتداءً من بعض

---

(1) باشلار: جمالية المكان (ترجمة غالب هلسا) ـ دار مجد ـ بيروت 1987.

(2) يرى باشلار، أن في دراسة الخيال لا يوجد موضوع دون ذات.

المعطيات الداخلية والمرفوضة من الوعي، يجسد «الخيال الباشلاري» إسقاطاته من خلال «الماديات» الأولية (العناصر) التي تُنقل عبر الأم: وفي الوقت الذي يؤول التحليل النفسي الذكريات، يهتم «باشلار» بكيفية صياغة الشاعرية والخيال، وكلاهما ضروري لفهم الانسان بكليته. . .[1].

إن الاختلاف الظاهر بين دراسة كل من فرويد وباشلار للخيال هو حقيقة عمل متكامل ومتمم الواحد للآخر[2].

ب ـ لوفيبر **H. Lefébvre**: إنهمك lefèbvre بتحليل المجال المنتج، المبني حولنا، فتساءل عن مبدأ «السكن» وفعله. لقد حث، في فرنسا، على إيجاد مقاربة تخص أو تهتم بالمجال المبني، لا تُحد بعلاقة ما بين الطبقة الاجتماعية وبنمط المسكن أو كيفية احتلاله[3]، بل دراسة المسكن كمجال تنظّم فيه الحياة الخاصة والعائلية، وليس فقط الهندسية؛ ذلك انه:

1 ـ واقعة أنتروبولوجية، وليست شكلية أو معيارية؛ لأننا في تحرك وفي تطور مستمرين، ولأن مسألة السكن تتعلق بمسألة التغيير الاجتماعي وبالممارسات الاجتماعية المتنوعة (بُعد ـ قرابة ـ جيرة. . .). إنها مسألة ذات بُعد إنساني تختلف باختلاف البيئة الاجتماعية عبر مجرى التاريخ.

2 ـ يدخل السكن في علاقة مع اللغة والمحادثة، وذلك عبر إشارات وأنساق. هذه اللغة هي لغة المسكن والمأكل والملبس (لغة الثقافة بشكل عام) على مستوى اللاوعي. إنها لغة الممارسة.

3 ـ لم يفصل Le fèbvre لاحقاً في كتاباته، ما بين السكني والمديني؛ لأن المدينة الحديثة المعاصرة، «مدينتنا؛ تنقسم إلى ثلاثة مستويات: مستوى كلي، هو المستوى المؤسسي، مستوى مختلط حيث تظهر: المدينة مستوى السكن، وهو مفهوم يطال الانسان بأفعاله الاساسية: الأكل ـ النوم ـ التكاثر. . . كما يجب أن تحترم التنوع الاجتماعي بين البشر»[4].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) H. Lefébvre - Dur sural á l'urbain. Anthropos. Paris 1970. Introduction.

(4) H. Lefébvre- La révolution urbaine, Gallimard- paris 1972. p. 110.

إذا كان السكن بالنسبة إلى Bachelard هو حلم يقظة وهو حجر مساحة أو إطاراً في مرحلة الطفولة حيث الاكتشاف للعالم وللطبيعة؛ فإنه بالنسبة إلى Le fèbvre متعدد الوظائف. من هنا تُطرح إشكالية العلاقة بين الفرد ومحيطه ومنطقته، وهذا ما تعرّج عليه وسائل الاعلام التي تقترح باستمرار نماذج لمساكن ولطرق حياتية جديدة بهدف التأثير على المتلقي أو المرسل إليه وهو الفرد أو الجماعة.

ج - موريس Morris - هولدرلين Holderlin - هيديغر Heidegger[1]:
بالنسبة إلى «موريس» Morris، كغيره من الطوبياويين الخياليين، فإن السُكْنى، هي جزء من كل واسع، إنه يعني العيش في حضن المجتمع والدخول في المجموعة. يبني «موريس» طوباويته على أساس مثالي وهو حل التعارض ما بين الريف والمدينة والتحول إلى عالم يسود فيه الانسجام والمصالحة، وتُخلى فيه الصراعات والاخطاء؛ إنه عالم مختلف بعلاقاته، بمؤسساته وبمساحاته السكنية.

لقد حدد «Bachelard» السُكنى بالمسكن وبجدرانه، أما Lefébvre وMorris فلا يستسيغانه بدون محيط اجتماعي؛ لأنه المستوى المفضل من الفرد في العالم... «Holderlin» الشاعر و«Heidegger» الفيلسوف قالا بأن الانسان يسكن العالم الكبير، العالم هو مساحته... هما يريدان إضفاء نفحة اجتماعية على خطهما بخصوص فعل السُكن، لكن هذه النفحة لم تخف الشاعرية والفلسفية عند كل منهما؛ «فالانسان بطبعه شاعري في ما خص قياسه للمساحة التي هي على الأرض مسكنه... لكن ممارسات الأشخاص تسمح لنا بالتعرف على سكناهم...» حسب قولهما.

د - رابو بور A. Rapoport: يربط Rapoport[2] الباحث الاميركي بين الشكل المبني وبين طريقة العيش؛ وهذا ما يظهر بوضوح في المسكن حيث إقامة الانسان، وحيث الدلالة على التنظيم الاجتماعي L'organisation

---

(1) Maïté clavel: Eléments pour une nouvelle réflexion sur l'habiter- in cahiers internationaux de sociologie مصدر سبق ذكره - ص 17.

(2) A. Rapoport. pour une anthropologie de la maison- Dunod- collection aspects de l'urbanisme - paris 1972.

sociale. فالأبنية هي نتيجة للتفاعل بين الانسان والطبيعة، والتوزيع الجغرافي لهذه الأبنية ما هو إلا صورة عن الثقافة الخاصة.

ويعتقد Rapoport أن الصلة تتضاعف ما بين السلوك والشكل. ففهم مظاهر السلوك من أمان وميول ومشاعر هو أساسي لفهم الشكل المبني La forme bâtie، الذي هو بدوره مادة لكل مظاهر السلوك. ولقد أتى كتابه الأساسي عن المسكن كحصيلة دراسات متنوعة إنطلقت من زاوية خلق أنماط وأشكال مدينية تعاني من قلةٍ في الكتابات حولها. فكان عمله جمعاً بين اختصاصات كثيرة ولم يقتصر على عمل المهندس المعماري وحده، حتى وصل إلى العلوم السلوكية. لقد درس Rapoport في كتابة Anthropologie de la maison ظاهرة حديثة يخضع فيها الموضوع الأساسي (البناء) لقوى مختلفة ومتنوعة ولمقارنة لا بد من أن تحصل بين المجتمعات الحديثة والمجتمعات القديمة البدائية.

السؤال المطروح: كيف تقترب التغييرات الثقافية المتمثلة بالسلوك من التغييرات الحاصلة في المحيط والتي تظهر عبر الشكل المبني؟

يرتبط الشكل بعدة عوامل تعكس القيم المجتمعية، خاصة أن المسكن هو مؤسسة وليس بنية أو شكلاً مادياً فقط؛ لأن بناءه هو ظاهرة ثقافية معقدة (باعتبار الثقافة مجموعة العادات والأفكار والمؤسسات والنشاطات لمجتمع أو لعشب ما). من أهم ما يميز هذه الظاهرة المعكوسة عبر الشكل وكما يراها Rapoport:

1 - الحاجات الأساسية في البناء كإيجاد مطبخ، حمام، مكان الطعام والجلوس والوقوف، المرايا، الخزائن، الاضاءة (وكلها ترجع لعادات الشعوب). إن منزل الشخص سيعكس بالضرورة القيم والمشاعر «الشعبية» (لنقل الجماعية كما سماها yung) التي **تتأكد** وتتركز في الذات البشرية، حتى لو أنه لن يبني منزله بنفسه. . . . **ويظهر المناخ** climat بالنسبة إلى Rapoport في غاية الأهمية. فمن خلال **أمثلة أعطاها**، وجد أن خاصية البناء البدائي اشتهر بتألم مطلق مع المناخ، **فدعا لعدم إهمال هذا المتغير وإلى وصفه في إطار دوره المحدد**.

كما ظهرت **مواد البناء** والتكنولوجيا من العوامل المتغيرة أيضاً، والتي

تدخل في صلب عملية تطور المجتمعات. وركز على أهمية التوجهات الدينية التي يمكن لها أن تؤثر على استعمال هذه أو تلك من المواد. هذا وكانت المساكن البدائية تفتش عن المواد الممكن الحصول عليها والتي يسهل حملها وتقطيعها. واليوم، في المساكن الحديثة نفتش عن المواد الجاهزة أو المصنعة أو الأقوى والأكثر صلابة وديمومة.

2 ـ **الأسرة** وهي أساسية، خاصة من حيث الدور الذي تقدمه في هذا المجتمع، وهي ترتبط بالنوع وبالبنية الخاصة بها (العائلة الواسعة الممتدة مثلاً والتي تتطلب منزلاً واسعاً وممتداً هو بدوره).

3 ـ **مركز ووضعية المرأة**، له دلالة واضحة، لأنه جزء من التنسيق العائلي، يُعكس عبر البنية والشكل المنزلي.

4 ـ **الحاجة للحميمة**، التي ترتبط بدورها بالمرأة وبمسائل جنسية، فكلما تزايدت هذه الحاجة كان التطلع لعمارات ولزوايا أكثر استقلالاً. تعطي الثقافة لهذا المفهوم أهمية؛ لأنها رمز وشعار الوضعية الاجتماعية، (تعكس المساكن في أميركا مثلاً الوضعية الثقافية العامة).

إن مفهوم الحميمية مفهوم عرّج عليه «حسن فتحي» كثيراً، إذ أنه حين نذهب إلى الخارج نفقد تلك الحميمية. إن المكان، وحسب نوعه واتساعه يمكن أن يثير الحميمية أو أن يلغيها[1].

5 ـ **العلاقات الاجتماعية**، هي حاجة مهمة: أين تتم لقاءات الجماعة والأفراد؟ في المقهى؟ في الحمام العام؟ في الطريق؟ في المطعم الصغير؟ لقد جرت العادة أن يكون الصالون أو الجامع عند العرب قديماً مكاناً للعلاقات الاجتماعية. وربما هو اليوم المطعم أو السينما أو مكان التسلية والترفيه.

هـ ـ **«شامبار دولو «P.H. Chombart de lauwe**[2]: يجب ألا ننسى في هذا السياق ذكر جهود «P.H. chombart de lauwe» في المجال الخاص وتفسيراته **الثقافية** للمسكن الذي اعتبره انعكاساً لتطلعات المجتمع والاسرة،

---

(1) السفير ـ عدد 4336 ـ 1986 ـ حوار مع حسن فتحي.

(2) P.H. Chombart de lauwe, pour une sociologie des aspirations- Médiations, Denoël - Gonthier- paris- 1971.

وصور لهما. ترتبط تفاصيل المسكن برأي chombart de lauwe وحاجاته بنظره الافراد لواقعهم ولعملية انتمائهم الاجتماعي. أما أهم مكان يترعرع فيه مفهوم السكن فهو داخل مؤسسة الأسرة، فكلما تطورت الاحتياجات فيها ازداد التحول في أشكال السكن والمساكن (مثالاً: المجتمعات التقليدية ـ المجتمعات الصناعية ـ المجتمعات في طور التحول). ركز Chombart de lauwe على الاسرة الصغيرة، وليست الكبيرة؛ لأنها نموذج التحول الاجتماعي الحاصل حالياً ولما توفره من راحة وهدوء لأعضائها داخل المسكن (بعد عمل متعب طوال النهار). وهذا ما ليس متواجداً في الأسرة الكبيرة، خاصة إذا كانت مساحة المسكن صغيرة وغير مناسبة لحجم أفرادها.

و ـ أوليفيه مارك **Olivier Marc**: اعتمد O. Marc المهندس المعمار الفرنسي، في دراسته للمسكن على:

1 ـ دراسته للهندسة وملاحظاته التي جمعها من أسفاره وإقامته العلمية في كثير من بلدان العالم (كمصر والمغرب والهند وافريقيا وأميركا والمكسيك واليابان وغيرها من البلدان التي درس العمارة فيها).

2 ـ دراسات «M. Klein» عن الأولاد وعن تحليلهم النفسي.

3 ـ المدرسة الفرويدية أساس التحليل النفسي (نسبة لفرويد) والتي تتميز «بعلميتها».

4 ـ «اليوينغية» (نسب لـ Jung) التي تبدو أكثر فلسفة وميتافيزيقية من الأولى (الفرويدية ـ وقال «مارك» بأنهما تياران يتقابلان كثيراً في المجتمعات الغربية).

أكد Marc وانطلاقاً من الهندسة المعمارية كفن وكعلم ـ على أن المسكن هو لغة جماعية نكتشفها عبر «التحليل النفسي». فكان كتابه: «التحليل النفسي للمسكن» [1] أو psychanalyse de la maison الذي سبق بوضوحه وبتوجهه النفسي وباستعمالاته المعاني التحليلية، الكثير من الدراسات التي بحثت في هذا الميدان.

---

(1) صدر في باريس سنة 1972 عن دار نشر: seuil (intuitions).

شكّل المسكن بالنسبة اليه نقطة ملاذ وحماية، إضافة إلى أنه عمل خلق إبداعي، وشبَّه وجود المسكن بولادة الطفل من بطن أمه (Naissance- Enfant- Maison). فعندما نبني مسكناً فإننا نخلق مكان آمن وسلام وهدوء وأمان، تماماً كتلك الصور التي نعيشها في بطن الأم، وما توحيه لنا من طمأنينة وابتعاد عن العدوانية؛ وعليه فإن الخلق والوجود هما اقتلاع لهذا الشعور ومبعث للقلق.

إن المسكن هو وحدة رحمية داخلية unité intra-utérine، ومنه إنبثق المعبد والكنيسة والقصر والمسرح والمنفى الخ... تلك التعابير القضائية، المجالية، الشكلية..

ركز Marc، على أن فهمنا التطور النفسي للانسان هو أساس فهمنا للمسكن ولجذور هذا المسكن. وهذا لا يعني إلغاء أهمية المناخ، خاصة في ترطيب وتأقلم الساكنين، لكن شكل المسكن لا يستوحى من المناخ بل من النفس البشرية. وفي الرجوع إلى التحليل النفسي، نجد أن الدلالات غنية لتفسير مبدأ السُّكنى، والاحلام التي تدور حول المسكن ما هي إلا أقنعة للوصول إلى الذات وإلى الوجود، والنفس أو الروح (La psyché) هي جماعية وتنظيم بالوسط الطبيعي، إنها نتاج الأرض والحياة. من هنا فإن «الوعي» و«الأنا» جماعيان وفرديان في نفس الوقت (ومن هنا بالذات نلقط التقارب وليس التباعد بين فرويد يونغ)، كما أن مسألة الدين تدخل في النفس الجماعية (la psyché collective) ولا تنتف فيها.

إن راحة النفس - برأي «مارك» - هي في المسكن، في داخله وعبر أجزائه وعناصره، وللتأكيد على فكرته اسْتَشهَد بقول زميل له وهو محلل نفسي - وخلاصة القول: إننا عندما نقوم بالتحليل النفسي فإننا بذلك نبني للإنسان مسكنه (faire une psychanalyse, c'est construire sa maison)[1].

ز - **حسن فتحي** احتل اسمه موقعاً كبيراً في علم الهندسة المعمارية العربية، وعرف اختراق العمق الثقافي في نتاجه الهندسي، فأعاد اكتشاف المحيط والبيئة دون إهمال عناصر الهندسة الاسلامية وإعادة توظيفها إيجابياً.

(1) المصدر نفسه ص 82.

كان يبحث دوماً عن إيجاد مادة للبناء تتوافق ليس مع المناخ والموقع فقط، بل أيضاً مع الحاجات الاجتماعية والتراثية للناس المقيمين: «كل شعب أنتج هندسته واختار خطوطها المفضلة لديه، تماماً كلغته ولباسه وفولكلوره. إعتقد أن بعض الأشكال قد سحرت الخيال الشعبي فاستعملها في **محتوى متغير جداً**، متخلياً بلا شك، عن المضامين الاصلية، ومطوراً لغة تعامل بصرية تلائم خصائص بلاده»[1].

لقد كانت فكرة العمل الأكثر انتاجاً لديه: طريقة العمل التعاوني، مراعياً العلاقة ما بين الدين الاسلامي وشكل المسكن وتخطيط المدن الاسلامية، خاصة في علاقتها الاجتماعية والقدسية مع الجامع، وهي علاقة جلية في شكل البيت المغلق على ذاته الذي يحمي القيم الداخلية الحميمة. إنه ارث، يجب المحافظة عليه برأي «فتحي»، ولا يتعارض مع إدخال التكنولوجيا الحديثة.

العمارة بالنسبة إلى «حسن فتحي» أسلوب حياة، وليست حجارة وإسمنتاً وخشباً... فالإنسان يتكون بتشكيل جسدي... فيزيولوجي وسيكولوجي... إنه مدرسة خاصة، نحن بحاجة لأمثالها وللحفاظ عليها وتوسيعها لضم معماريين جدد يطورونها. فعمارته هي قلب نابض لشرق جميل منسجم مع ذاته وإنسانه»[2].

ح - **رفعة الجادرجي**: مسألة الشكل التي ركز عليها Rapoport، أخذها بعين الاعتبار الكثير من الباحثين، ولا سيما المهندسين المعماريين. فقد تساءل «رفعة الجادرجي» قائلاً: هلا إن المحتوى يولد الشكل، أم أن الشكل هو الذي يولّد المحتوى»[3].

إن الشكل بالنسبة اليه ظاهرة تعكس المطلب... إنه الحصيلة المادية لتفاعل جدلي متبادل بين مطلب اجتماعي متمثل بفكرة من جهة، ومن جهة أخرى، فإن التقنية المعاصرة له، متمثلة بعناصرها الفكرية والمادية والذاتية الخاصة...

---

(1) Hassan fathy- construire avec le peuple- sindbad- paris 1970.

(2) سامي منيمنة: حسن فتحي - رائد العمارة الاقليمية - مجلة النقطة - عدد 2 - 1992 - ص 13.

(3) رفعة الجادرجي - شارع طه وهامر سمث - بحث في جدلية العمارة - مؤسسة الابحاث العربية، بيروت 1985.

شكّل المسكن بالنسبة اليه نقطة ملاذ وحماية، إضافة إلى أنه عمل خلق إبداعي، وشبَّه وجود المسكن بولادة الطفل من بطن أمه (Naissance- Enfant- Maison). فعندما نبني مسكناً فإننا نخلق مكان آمن وسلام وهدوء وأمان، تماماً كتلك الصور التي نعيشها في بطن الأم، وما توحيه لنا من طمأنينة وابتعاد عن العدوانية؛ وعليه فإن الخلق والوجود هما اقتلاع لهذا الشعور ومبعث للقلق.

إن المسكن هو وحدة رحمية داخلية unité intra-utérine، ومنه إنبثق المعبد والكنيسة والقصر والمسرح والمنفى الخ... تلك التعابير القضائية، المجالية، الشكلية..

ركز Marc، على أن فهمنا التطور النفسي للانسان هو أساس فهمنا للمسكن ولجذور هذا المسكن. وهذا لا يعني إلغاء أهمية المناخ، خاصة في ترطيب وتأقلم الساكنين، لكن شكل المسكن لا يستوحى من المناخ بل من النفس البشرية. وفي الرجوع إلى التحليل النفسي، نجد أن الدلالات غنية لتفسير مبدأ السُكنى، والاحلام التي تدور حول المسكن ما هي إلا أقنعة للوصول إلى الذات وإلى الوجود، والنفس أو الروح (La psyché) هي جماعية وتنظيم بالوسط الطبيعي، إنها نتاج الأرض والحياة. من هنا فإن «الوعي» و«الأنا» جماعيان وفرديان في نفس الوقت (ومن هنا بالذات نلقط التقارب وليس التباعد بين فرويد يونغ)، كما أن مسألة الدين تدخل في النفس الجماعية (la psyché collective) ولا تنتف فيها.

إن راحة النفس - برأي «مارك» - هي في المسكن، في داخله وعبر أجزائه وعناصره، وللتأكيد على فكرته استَشهَد بقول زميل له وهو محلل نفسي - وخلاصة القول: إننا عندما نقوم بالتحليل النفسي فإننا بذلك نبني للإنسان مسكنه (faire une psychanalyse, c'est construire sa maison)[1].

ز - حسن فتحي احتل اسمه موقعاً كبيراً في علم الهندسة المعمارية العربية، وعرف اختراق العمق الثقافي في نتاجه الهندسي، فأعاد اكتشاف المحيط والبيئة دون إهمال عناصر الهندسة الاسلامية وإعادة توظيفها إيجابياً.

---

(1) المصدر نفسه ص 82.

كان يبحث دوماً عن إيجاد مادة للبناء تتوافق ليس مع المناخ والموقع فقط، بل أيضاً مع الحاجات الاجتماعية والتراثية للناس المقيمين: «كل شعب أنتج هندسته واختار خطوطها المفضلة لديه، تماماً كلغته ولباسه وفولكلوره. إعتقد أن بعض الأشكال قد سحرت الخيال الشعبي فاستعملها **في محتوى متغير جداً**، متخلياً بلا شك، عن المضامين الاصلية، ومطوراً لغة تعامل بصرية تلائم خصائص بلاده»[1].

لقد كانت فكرة العمل الأكثر انتاجاً لديه: طريقة العمل التعاوني، مراعياً العلاقة ما بين الدين الاسلامي وشكل المسكن وتخطيط المدن الاسلامية، خاصة في علاقتها الاجتماعية والقدسية مع الجامع، وهي علاقة جلية في شكل البيت المغلق على ذاته الذي يحمي القيم الداخلية الحميمة. إنه ارث، يجب المحافظة عليه برأي «فتحي»، ولا يتعارض مع إدخال التكنولوجيا الحديثة.

العمارة بالنسبة إلى «حسن فتحي» أسلوب حياة، وليست حجارة وإسمنتاً وخشباً... فالإنسان يتكون بتشكيل جسدي... فيزيولوجي وسيكولوجي... إنه مدرسة خاصة، نحن بحاجة لأمثالها وللحفاظ عليها وتوسيعها لضم معماريين جدد يطورونها. فعمارته هي قلب نابض لشرق جميل منسجم مع ذاته وإنسانه»[2].

ح ـ **رفعة الجادرجي**: مسألة الشكل التي ركز عليها Rapoport، أخذها بعين الاعتبار الكثير من الباحثين، ولا سيما المهندسين المعماريين. فقد تساءل «رفعة الجادرجي» قائلاً: هلا إن المحتوى يولد الشكل، أم أن الشكل هو الذي يولّد المحتوى»[3].

إن الشكل بالنسبة اليه ظاهرة تعكس المطلب... إنه الحصيلة المادية لتفاعل جدلي متبادل بين مطلب اجتماعي متمثل بفكرة من جهة، ومن جهة أخرى، فإن التقنية المعاصرة له، متمثلة بعناصرها الفكرية والمادية والذاتية الخاصة...

---

(1) Hassan fathy- construire avec le peuple- sindbad- paris 1970.

(2) سامي منيمنة: حسن فتحي ـ رائد العمارة الاقليمية ـ مجلة النقطة ـ عدد 2 ـ 1992 ـ ص 13.

(3) رفعة الجادرجي ـ شارع طه وهامر سمث ـ بحث في جدلية العمارة ـ مؤسسة الابحاث العربية، بيروت 1985.

إن الشكل هو التكوين الهندسي الذي يُظهر لنا المحتوى والذي يعتمد عليه ويكمن فيه.

يتساءل «الجادرجي» عن مؤلف هذا الشكل؟ فيجيب بأنه المهندس المعماري منتج فن العمارة، والعمارة هي فن؛ لأنها أكثر من علم، وتتطلب الابداع المستمر. إنها تتناول البناء الفوقي الاجتماعي، وعليها أن تضم مطلباً اجتماعياً فيه نوعان من المكونات: «الأول، المكون المادي الوظيفي، والثاني المكون الفكري الذي هو جزء من البناء الفوقي القومي الاجتماعي أي جزء من الفن المتعاصر»(1).

لكن «الجادرجي» وهو مهندس معمار عراقي، منصرف حالياً إلى البحث الفلسفي في «هارمزد» وإلى اكتشاف القوانين العامة في العمارة التي تختلف نظرياً في رأيه عن العلوم الطبيعية والاجتماعية أكثر من قرن، ويؤسس حالياً لفلسفة معمارية تعتمد على تداخل العلوم (أنتروبولوجيا ـ فلسفة ـ علوم هندسية ـ جمالية الخ...)، كي تبتعد عن الاطار التقليدي ضمن تاريخ الفن، لقد أعطى الجادرجي نظرات نقدية لفن المعمار، يندر أن تطرقت له الكتب العربية بمثل هذا العمق والالتزام. ورأى أن فن العمارة العربية في أزمة؛ لأنه لم يعد يقوم بدوره في صقل عواطفنا وتهذيب شعورنا الاجتماعي والاخلاقي والحمالي. وأراد عمارة تستمد جماليتها من «الماكنة» ومن الحداثة... وعلى المعماري أن ينظم فراغه، خاصة أن بنية العمارة ونظامها يملكان في آن مقومات محددة وعلاقات تدخل في عملية تفاعلات، تكون نتيجتها النهائية تحويل المادة الخام إلى جسم يتضمن الكيان التاريخي للعمارة(2).

في نهاية هذا القسم، «فلسفة المسكن». لا بد من الاشارة إلى أهمية «الدين» ومظاهره الرمزية والمقدسة التي يعكسها على «المسكن»، إنه يقدم له التوازن ويعطي نزعة للشكل وللتخطيط وللتنظيم وللتوجه (الحمام في المنازل الاسلامية وفي عينة الدراسة مثلاً). كما أن المسكن هو مكان مزاولة الطقوس الدينية، خاصة بعد أن ظهرت الديانات السماوية، وحولت مع ظهورها بعض

(1) المصدر نفسه ـ ص 78.

(2) جريدة الحياة ـ الاثنين 15/ 4/ 91 ـ عدد 10298.

المساكن إلى مدارس تُعلّم فيها أصول الدين والفلسفات الانسانية العامة[1].
نذكر أخيراً أن «الجامع» و«الكنيسة» نظما المدينة، وأعادا تنظيمها وتركيبها.

إن أهم وظيفة يؤديها المسكن هو الوظيفة الامنية، فهو يؤمن دائماً نوعاً من الحماية يتمثل بالأمن النفسي؛ مما يدعونا إلى إعادة النظر بإيجاد علم خاص ليس للسكن فقط، بل للهندسة:

ان يكون هناك سوسيولوجيا هندسية تدرك فهم لعبة الرموز والأبعاد والدلالات والخصوصيات نظراً للارتباط الوثيق بين الحياة الانسانية والمسكن المحدد بمجال معين[2]. فالمسكن هو مجال عبور الفعل ومجال وسيط بين الحياة الاجتماعية والحياة الشهوانية للفرد، ويسمح بالتغيير وبإعادة تنظيم الحياة. . .

إنه عنصر دينامي لسيرورة تطور، يضاف أمام عملية إدراك perception، والادراك هو إحدى الوظائف النفسية الهامة، إنه من مكونات النفس، إنه استقبال المؤثرات الخارجية (وهنا من خلال العين ـ معنى ما نراه). تتأثر الحالة النفسية للانسان بما تستقبله حواسه. فالعمارة فن نطالعه بأعيننا في كل لحظة، وكل مبنى هو لوحة يمكن أن تشع جمالاً أو تشعّ قبحاً، أو لا تشع شيئاً على الاطلاق. فالجمال يؤثر على سلوك الانسان، فيمنحه البهجة، ويهدئ النفس ويقرها. بهذا المعنى، يكون المسكن عملية خلق: الأشياء التي نختارها، الشقة التي زيناها تعبر عنا وعن أنفسنا. إن المسكن هو مكان حماية ضد الخارج، هو أوالية دفاع ضد القلق. يقال «أنا مرتاح»[3]. . . والراحة هنا راحة جسدية ونفسية؛ لأن الفرد يلاقي ذاته في مسكنه، حيث يقترب ويتعرف على صورته المثالية وعلى أناه[4]، وعلى نرجسيته. . . فالحياة لا يمكن أن تتم في دار أو في مسكن الآخر، حيث أنه في مسكننا نعبّر عن مشاعرنا الداخلية وعن أوهامنا وهمومنا الداخلية. . . يظهر مكان العيش إذاً، كنوع من السناريو حيث تظهر معه الأبعاد الليبيدية والنزعات الجسدية والجنسية[5]. السكن، إذاً، هو

(1) حالة العديد من مساكن جبل عامل.

(2) رجاء مكي ـ نحو علم اجتماع هندسة مجلة الهندسة ـ عدد 35 آذار 1990.

(3) (4) (5) M. Eleb- Etre bien dans sa peau - le logement et la construction de l'identité- in bulletin de psychologie no 361 - p. 741.

بناء للذات، الذات الاجتماعية حيث تدور هوامات «الجواني» و«البراني» (dedans et dehors)، القريب والبعيد... هذا الخارج الذي يمكن أن يكون موضوع إسقاط على مكان الغياب L'absence لكن بدون مجال؟ حسب قول بيار fedida...[1] من هذا المنطلق فإن الدراسة تستند بشق كبير منها على فلسفة المدرسة التحليلية في علم النفس الاجتماعي وعلى مفاهيمها التي تغني إلى حد كبير ما يسمى «بفلسفة المسكن».

وعليه، فإن إدراك المسكن يدخل في **إدراك العائلة؛** لأنه حامل الذاكرة العائلية التي تسمح بالاستمرارية، هو أكثر من عراب ومن شاهد، وهو يدخل في تاريخ وعلاقات الماضي والحاضر. في المسكن أشياء الانسان، داخليته، زاويته، منه يتم الانتقال من العام، إلى الخاص، إلى الحميم. لنأخذ مثلاً، زاوية الشخص داخل مسكنه، فهي ترتبط به بطريقة ترتيبية لها ورؤيته لها، فتظهر الزاوية كضرورة انعزال عن الأسرة داخل الأسرة. إنها الحيّز الذي يميّزنا داخل مسكننا، وتصبح مكان التماهي والتعلق والهوية أيضاً، لأنها تأكيد للتواجد الحقيقي الذي يدخل في شيء ما، كأن نسمع الشخص يقول «ولدت في... أنا من... تلك هي زاويتي... ذاك هو كرسي حيث أتوجه دائماً إلى النور... عندما أحبك أتواجد هنا في زاويتي التي تنقصني عندما أتركها... الخ...».

ويرى p.fedida بهذا الخصوص أن فعل السكن هو محاولة فهم موضعية للعلاقات بين الخارج والداخل، وبالتحديد بين «الجواني» و«البراني»، هذا «الجواني» الذي يحمل معنى وشعار الملكية الخاصة الباطنية، عكس «البراني» الذي يعني له مثل الطرد (chasser) أي إخراجه ووضعه أمام الباب. وتعتبر، وعلى هذا الأساس، جدلية «الجوانية»، و«البرانية» أكثر تحليلية من جدلي الخارج والداخل... إنها عملية وصلِ لحلم ما[2] (rêve).

إنه جدل قائم في الهندسة المعمارية، في النحت، في الموسيقى وفي علم النفس... لأن الأشكال الهندسية المعمارية لها رمزية لا واعية...

---

(1) P. Fedida: L'absence, 1978- Paris p. 169.

(2) Fedida ـ المصدر نفسه ـ ص 169.

ونحن بدورنا عندما نحاكي «جوانيتها» فإننا نفكر بتحليلها تبعاً لصورة جنسية أنثوية جسدية أمومية، عاملين بجد على تصوير محتوى هذه الجوانية: جسد - بيت الخ...[1].

ثم يتساءل والكلام لـ Fedida - عن دور الديكور أو الاطار؟ إنه مستحضر ومعبر عن الحدود الشكلية التي توحي بوهم (illusion) الخصوصية والحميمية (ويقارن ما بين ديكور الجلسة التحليلية وما توحيه للصابر: إسترخاء - كنبة - كرسي - الخ...)[2].

3 - المسكن العربي

عرف المسكن العربي القديم بناءه المميز وعناصره الخاصة به، واثر الصحراء في تشكيله، فكانت السماء هي العنصر الذي يلطف الجو في المساء، فانفتح المسكن على السماء بواسطة الحوش أو الصحن الذي يسمى وسط الدار، أي أنه انفتح على الكون، على التأمل، حتى قيل انه منطوٍ على نفس... إنه وحدة تتجاور مع مساكن جيرانها، مرتّب ليعزل الاسر والمرأة، لكنه يسمح باستقبال الجار أو القريب[3].

يتميّز المسكن العربي القديم بعناصر معمارية (ثانوية وأساسية) وظائفية متعددة تعكس تنظيم الجماعة وليس الافراد، وكان كل مسكن آنذاك هو مسكن المجموعة (القرابى)، وليس مسكن الفرد أو الأسرة المحددة الأعضاء، فغابت خصوصية غرف النوم على حساب غرف الاستقبال والجلوس والضيافة، كما غاب المطبخ والحمام لأنه كان حاجة جماعية ومكان لقاء اجتماعي يتجمع فيه الناس ويتلاقون... نذكر من هذه العناصر:

أ - المشربية: تستخدم لتخفيف حدة الضوء في الحجرات وتوفير التهوية اللازمة، وهي على شكل فتحة مملوءة بواسطة منخل من الخشب الدقيق، من شأنه تخفيف وهج الضوء وحجب أشعة الشمس والسماح بمرور الهواء

---

(1) Fedida المصدر نفسه - ص 170.

(2) Fedida - المصدر نفسه - ص 172.

(3) A. Bouhdiba- D. Chevallier- La ville arabe dans L'Islam- Tunis- 1982- p. 541.

بالكميات المطلوبة. للمشربية خصائص اجتماعية إضافة إلى خصائصها المعمارية؛ إذ تسمح، وللنساء تحديداً، بمشاهدة الخارج دون أن يُشاهدن.

ب ـ **النافذة**: في المسكن العربي مهمة، ولم تظهر كثيراً في العصور الاسلامية الأولى، ومع تطور فن العمارة الاسلامية أصبح يُصرف عليها الوقت الكبير لتزيينها ولتجميلها، وترددت كثيراً في كتب الأدب والشعر والغناء[1]، فكانت مكاناً للحب والهيام تلحق بها الشرفة (أو البلكون) المطلة على الشارع، والسمات التي تميزت بأشجارها وبورودها، والباب المحصن ومرتكز علاقات الجيرة والقرابة والنظرات أيضاً. لقد أشارت أغلب الأمثلة الشعبية العربية إلى هذه العلاقات وإلى داخلية العالم النسائي في المسكن العربي[2].

ج ـ **اللوجيا**: وتعني باللغة العربية «المقعد» الذي يوفر مكاناً للجلوس في الظل وعلى اتصال مباشر بالسماء. إنها عبارة عن بهو مسقوف من ناحية الصحن (الذي يعمل كما سبقت الاشارة كمنظم للحرارة، فيترسب الهواء البارد أثناء الليل في طبقات أفقية ويتسرب إلى الحجرات المحيطة بالصحن)، ومفتوح بكامل عرضه.

د ـ **الديوان** وكان غالباً اثنين: أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب من الصحن يستعملان حسن مكان الشمس في السماء.

هـ ـ **الفسقية**: أو حوض ماء وسط الصحن، مربعة الشكل وكأنها «إسقاط هندسي لقبه ساسانية على خناصر منظورة من أسفل إلى أعلى»[3].

و ـ **السبيل**: وهو عبارة عن لوحة من الرخام مزخرفة وتوضح مائلة قليلاً في الجدار مقابل إيوان الجلوس الرئيسي يتدحرج الماء على سطحها، ثم يسير في قناة مكسية، بالرخام إلى أن تصب في الفسقية[4].

---

(1) تكررت كلمة النافذ أو الشباك في نص أدبيٍ واحد مؤلف من صفحتين وتجاوزت الثلاثين مرة. (عودة الروح ـ توفيق الحكيم ـ عن كتاب باب بيتك يحكمك).

(2) باب بيتك يحكمك ص 65 ـ 67 ـ 69 ـ J. Depaule- à travers le mur- center G. Pampidou- collect. alors- paris 1983.

(3) حسن فتحي. المنزل العربي في الوسط الحضري ـ مجلة الفكر العربي ـ عدد 30 ـ ك1 1982 ـ ص 51.

(4) المصدر نفسه ـ ص 55.

ز ـ القاعة: وهي استمرار لعملية نقل الطبيعة إلى الداخل عن طريق الرمز. هنا وفي القاعة يرمز سقفها إلى السماء بزخرفته، وهي عبارة عن مكان استقبال واسع ومنظم.

ح ـ العتبة: ترمز إلى مكان وسطي بين الخارج والداخل... كلها أماكن حدود تفصل السكن والاقامة إلى عالمين: عالم الخارج وعالم الداخل... إنها أماكن ـ رموز تشكّل في المساحة المبنية المهيأة لاستيعاب علاقات الساكنين بالعالم الخارجي.

ط ـ السقف: هو رمز السماء، إنه منقوش دائماً ومنحوت فيه دوائر تمثل القبة وترمز من حيث الدلالة إلى إدخال الخارج إلى الداخل، وهذا ما يظهر عبر نقوش السجاد الذي يوضع على الأرض وكأنه حدائق محاطة بإطار أو بجدار أو بسياج كما هو حاصل في الحدائق العامة.

عكس المسكن العربي التنظيم الاجتماعي والعائلي والسياسي والاقتصادي للوضع السائد آنذاك، فكان مميزاً على صعيد فن العمارة. لكن هذا التميّز لم يثبت طويلاً، إذ خضع لتغييرات حدثت في المجال العام وتأثر بها مباشرة، ولم يصمد حتى في الحفاظ على بعض من تراثه.

فالمجال العربي اليوم يعاني من مجابهة عناصر ثلاثة:

تصاعد في موارد النفط ـ تزايد ديموغرافي ومديني ـ تصاعد اقتصادي. فاختفت من المسكن نفحته التقليدية، ممهداً لها غياب التراث، خاصة على الصعيد الأكاديمي (ومبدأ تدريسه في الكليات)، إضافة إلى تخل عن المواد التقليدية وعن التقسيم الداخلي لمنفعة الباطون والمواد المصنعة سلفاً ولتقنيات التبريد والتدفئة... إنها تقنيات حديثة استُعملت بشكل فوضوي وبدون هضم لها، ونُظر بعدائية إلى المحيط الطبيعي، ونشأ مجالٌ نصف مديني خضع لكل القوى المعاكسة: قوى التغيير العصري، واختفت المدينة العربية كوحدة وككل حيث تُرجم القيم الاجتماعية المشتركة والثقافية الجماعية[1]، ووقفت بمواجهة التحدي الجديد على حساب ثقل التاريخ ليست فقط المدينة العربية لمحنه، بل

(1) D. Chevallier (pour la direction). L'espace social de la ville arabe - Maisonneuve- et larousse- paris 1979- p. 320 - 328.

إن الانسان العربي هو في محنة أيضاً[1]؛ محنة انعكست على هويته المعمارية، وكما سبق القول، فإن المهندسين «حسن فتحي» و«رفعة الجادرجي» كانا من أشد المهتمين بهذه القضية المحنة؛ لأنها محنة التوجّه والهوية المعمارية وضياع التراث، ولا يكون الحل إلا بوصل ما انقطع والعمل على إعادة التطور الطبيعي والرجوع إلى الوراء، وتحليل عوامل التغيير والتحول، كي تصل العمارة العربية إلى ما كان يصلح أن تكون عليه، وليس على ما هي عليه.

لقد أقرّ الكثير من المستشرقين بحضارة العرب العمارية، ولكن البعض الآخر أهملها وتجاهلها عن قصد، فكان التساؤل: «أصحيح كما قال ابن خلدون انهم أعرق بالبداوة وأبعد عن الصنائع»؟ إن العرب قد اقتبسوا الكثير، لكنهم تركوا بصماتهم على عناصر كثيرة ومهمة في العمارة، واستنبطوا عناصر معمارية لا تمت لمن سبقهم أو عاصرهم بصلة بل هي عربية صحيحة»[2]....

لكن التغيرات الجديدة والتكنولوجيا التي دخلت إلى عالم المسكن والتي لهث العرب وراءها لم تقد فقط إلى خلق مفاهيم جديدة ومتتالية من العلاقات، بل أحدثت تغييرات في المجال، وقطعت صور الماضي بأجمله تقريباً، وحوّلت توجه المسكن من العام إلى الخاص.

وأصبح التساؤل حول إمكانية تلبية عناصر البناء القديم لمتطلبات الحياة العصرية، وما عكسته من تحولات في الحياة الأسرية (كصحن الدار مثلاً)، لكننا نتساءل أيضاً:

هل ان الشقق الحديثة في المدن العربية تتجاوب مع التنظيم المطابق للاحتياجات الاسرية والثقافية؟

---

(1) بدأت أزمة السكن في العالم الثالث في وقت لاحق من نشوئها في العالم الصناعي وضمن ظروف مختلفة كلياً (إذ أدت هجرة الأوروبيين للعمل في القطاع الصناعي، بينما أدت هجرة أرياف العالم الثالث إلى العمل في القطاع الخدماتي، وبذلك يكون معدل نمو الاحتياجات السكنية قد سبق معدل النمو الاقتصادي.

(2) د. فؤاد شمس الدين - العمارة العربية الاسلامية، ما لها وما عليها - الفكر العربي عدد 52 - 1988 ص 47.

الفصل السادس

المسكن في لبنان[1]

مع بدايات القرن العشرين، ومع تفشي ظاهرة الحداثة، بدأ الذوق ينقلب من حال إلى حال، ولم يفلت المسكن من هذا الانقلاب، فكان كباقي أوجه المعيش اليومي من مأكل وملبس وفن وغيره، يسير على ما يسمى بـ «الموضة» التي شاعت وذاع صيتها... وغلب الذوبان في جماعة متغيرة، اقتصرت فيها المحاكاة على الظاهر والخارج، وكانت العمارة - الموضة وسيلة وصول الطبقات الدنيا إلى من هم في الأعلى... بعد أن كان التجديد والتبديل حكراً على الطبقات العليا، وأصبحت العمارة طرز الريف وليس فقط طرز المدن.

1 - ما هي الموضة؟

الموضة هي «محاكاة مثال يلقى القبول، سنداً اجتماعياً يقود المرء (والمرأة) في طريق يسلكها معظم الناس، فيستحيل مسلك المرء إلى تمثيل على مسلك الجماعة، وإلى تشخيص أو تجسيد لما هو عام فيها وشائع».

مصدر الموضة، الخارج، الفرنجي عكس المحلي **والبلدي**، ومصدرها المدينة عكس القرية. إنها من شارات المجتمعات الحديثة؛ لأن هذه المجتمعات، بخلاف التقليدية، تقبل على التمايز والتباين وتأبى المجانسة والجري على مثال واحد، أو على أمثلة معروفة يناط بها إثبات الفروق بين المراتب والطبقات، وذلك إلى الأبد ومرة واحدة. أمّا المجتمعات الحديثة

(1) نقول المسكن في لبنان وليس المسكن اللبناني، لأن طابعه المعماري غير معروف الانتماء كلياً.

فتحفظ عن طريق الفروق وتجددها، تماسك الطبقات والفئات والدوائر الاجتماعية[1].

للموضة وجه نفساني، يلامس المشاعر والانفعال ويُشعر «الآخذ بها ومماشيها بالمعاصرة واعتناق الحاضر شعوراً حاراً وممتعاً. فمن هم «على الموضة» محدثون بامتياز، وحاضر الزمن مسرحهم ومملكتهم... الموضة علم الانسلاخ من الماضي والتراث والتقليد»[2]... وهي سمة مميزة لمجتمعنا اللبناني. فالأخذ بالموضة فيه هو مظهر مديني بتوافق مع الهجمة المدينية للريف؛ إنه يتوافق مع النسق النصف المديني المسيطر-حالياً في الريف والذي يشغل المسكن داخله الحيز الأكبر.

النظرة على المسكن التقليدي وإعادة مقارنته بالمسكن الحديث مهمة في هذا السياق. هي المدخل لفهم إشكالية موضة وحداثة المسكن الحالي.

2 ـ المسكن التقليدي

إستجاب المسكن القديم لطرق الممارسات اليومية الخاصة بالعائلة الفلاحة التي يعمل أفرادها بالزراعة، وتأثر تنظيمه الداخلي بعدة عوامل وظائفية ومناخية ومادية (في ما يتعلق بمواد البناء وخصائصها).

من ناحية أخرى، ارتبط نمط المعماري بالنظام الاجتماعي والسياسي السائد آنذاك (الاقطاعي أو المالك)[3].

يمكن القول أن المسكن القديم، كان مسكناً ريفياً متواضعاً مهيئاً لتلبية حاجات أهله بشقيه الداخلي والخارجي، وابتعد عن الاسراف في استعمال مواد البناء، فأتى أقرب إلى البساطة منه إلى البذخ والاسراف.

بهذا المنظور، تشابهت أغلب المساكن، وتجانس الاطار العام للبناء؛ مما يدل على انتماء اقتصادي اجتماعي واحد.

واقتصر تقليد بعض مظاهر الحياة الغربية في البناء على بعض الفئات السياسية التي لها علاقة تجارية أو سياسية مع الغرب.

---

(1) د. وضاح شرارة. الحداثة والموضة ـ الملحق (ملحق النهار) عدد 29 ـ 1992 ـ ص 8.

(2) المصدر نفسه.

(3) نركز تبعاً لمقتضيات البحث على المسكن الريفي والتقليدي وليس المسكن المديني التقليدي.

حافظ المسكن التقليدي على نسقه القديم حتى أواخر القرن التاسع عشر، حيث بدأت الاشكال المستعارة من المدينة تدخل القرية، فحل مثلاً الحجر الأبيض وحجارة الباطون مكان الطين والتراب الأبيض، ولم يعد تواجد المسكن القديم حتى في أحياء القرية القديمة.

تراوحت مساحة البيت التقليدي القديم ما بين 200 و400 م^2، وهي مساحة تشابه تقريباً مساحة المسكن الحالي، مع مراعاة فروق التصميم والتوزيع بين الاثنين

أ - خارج المسكن

تمحورت المساكن القديمة قرب الجامع أو قرب محيط ساحة القرية أو بركتها أو عيون الماء المتواجدة فيها. معظم هذه المساكن كانت محاطة بسور عال[1]، تتخلله بوابة كبيرة وضمنها بوابة صغيرة ندخل من خلالها إلى أرض الدار. أما مساكن الفئات الميسورة فإنها كانت تفتح مساكنها على كل الجهات التي يمكن للمسكن أن يطل عليها. لم يكن يتواجد في بعض المساكن أرض دار، بل كان الدخول مباشراً إلى البيت ومن الباب العادي. في هذه الحالة، تكون الباحة جانبية أو خلف البيت، وتبرز أهميتها من حيث أنها كانت متعددة الأغراض في الاستعمال (مواقد الغسيل - للطبخ - لنشر الغسيل - للأشجار...).

وجرت العادة أن يسكن الابناء المتزوجون المسكن مع أهلهم[2].

كما أن كل مجموعة من الأقارب كانت تعيش ضمن دار واحدة، لها سور واحد، ومدخل واحد (عبارة عن طابق واحد): إنها عبارة عن أكثر من بيت متلاصق ومتجاور ومتجه نحو الباحة الرئيسية أو أرض الدار.

وفي حال خرجنا من المسكن إلى الشارع نجده ضيقاً وترابياً يسد بعد هطول الامطار، يتعاون أهل القرى لفتحه أمام حركتهم وحركة ماشيتهم.

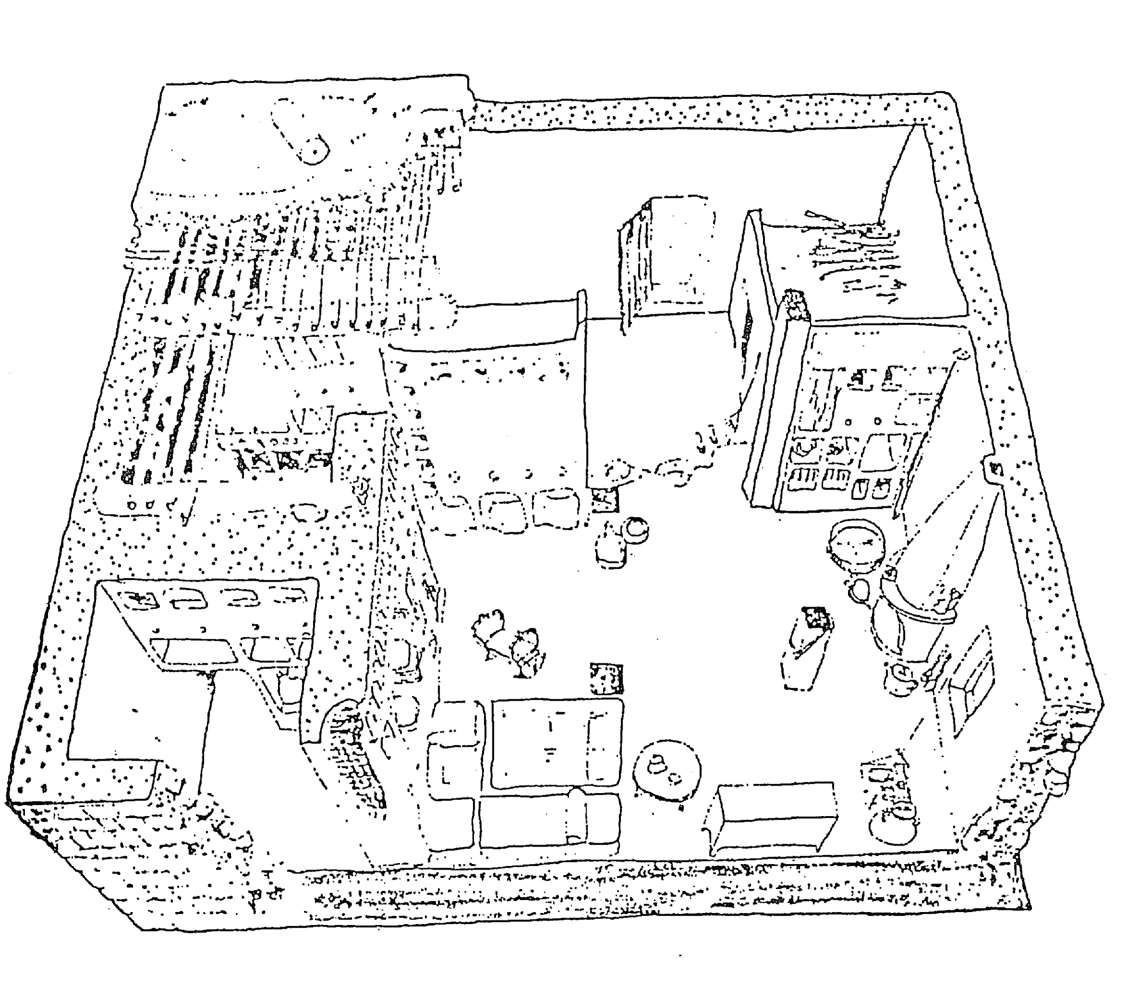
---

(1) وظيفة السور، حجب المسكن عن الطريق والمساكن الأخرى المجاورة له، وهو نمط متبع في المدن الاسلامية.

(2) كانت تبنى الغرف في صف واحد، ولكل غرفة مدخل خاص بها، ويتصل بعضها ببعض من الداخل بأبواب صغيرة. وبلغت مساحة كل منها 24 م^2 (4× 6 أمتار). ورجع تعدد الغرف إلى حجم المسكن وعدد أفراد الاسرة ومستواهم الثقافي والاجتماعي.

ملحق رقم (1)

المسكن التقليدي



Source: Friedrich Ragette, Architecture in Lebanon, Caravan Books, Delmar, New York, 1980, p. 16.

- M. Charaffeddine: L'aménagnenet ruro-urbain à Jabal- Amel thèse de doctorat, Paris 1986.

مصدر سبق ذكره. ص 333

تواجد الحمام خارج المسكن وفي مكان ما من الباحة وبعيداً عنها لعدم تواجد تجهيزات مدينية، أما إذا خلا المسكن منه، فكان أهله يقصدون أماكن الخلاء بالقرب منهم.

شبه خارج المسكن القديم بالصندوق لعدم تواجد باب أو شباك في واجهته الاساسية، ما عدا «باب السر» الذي يستخدمه أهل البيت فقط. تختلف هذه الواجهة بحجارتها من مسكن لآخر، فتحمل معنى الغنى ومعنى الفقر. وكان هناك حجارة كبيرة، إما مستطيلة الحجم وإما مربعة، كانت مخصصة للأبواب وللشبابيك، أو للباب الاساسي (البوابة) بعد زخرفتها. نذكر أنه كان لكل غرفة باب واحد وشباك واحد في معظم الأحيان، إضافة إلى بعض الفتحات الصغيرة أو (الكورة) التي تقترب في السقف.

أما **المصطبة** فتقع أمام البيت مباشرة، وترتفع عن بقية الأجزاء، ولها وظيفة جمع الداخل والخارج. كان يجلس عليها أهل البيت للسهر أو للنوم في أيام الحر. وغالباً ما كانت تقع المصطبة لجهة الغرب؛ لأن الهواء الغربي هو الألطف صيفاً.

لقد غابت **الأعمدة**، لكن الاعتماد كان على القنطرة (التي سنعرج عليها لاحقاً).

سيطر في البناء آنذاك مواد من الصخور الكلسية السهلة القطع مع حجارة كانت أساساً من الصوان، وألصقت الحجارة بواسطة الطين (أو اللبن).

كيف بني سطح المسكن؟ بني من جذوع أشجار معينة، غالباً ما يؤتى بها من غابة النهر القريب، وتمتد فوقها شرائح طويلة من الخشب تكون على شكل شبك من قضبان «الدفلة»، ويوضع عليها شوك «البلان»، ثم توضع بعد ذلك طبقة من التربة البيضاء (الطين)، ويُشْوَىٰ السطح بواسطة حجر رحى أعد خصيصاً على شكل أسطواني يحمله قضيب من الحديد يدخل في طرفيه ويمسك به من الوسط ويدور ذهاباً وإياباً، تبقى متواجدة عليه كأداة أساسية لرص الطين عليه[1]. وبما أن السطح من التراب فقد كان ينبت عليه بعض الأعشاب والأزهار...

---

(1) اسم الة تسوية السطوح «المحدلة»، والاداة التي تجر بها اسمها «الماعوس»...

كما كان في إحدى زواياه «مدخنة»، يتصاعد منها الدخان من موقد داخلي بواسطة «داخون». لم يكن هناك درج للوصول إلى السطح، بل كان السلم الخشبي هو البديل. استعمل السطح إما للنوم (في أيام الحر)، وإما لاستعمالات فصلية موسمية (لتشميس التين أو القمح أو غيره).

نستنتج أن المسكن القديم وبأجزائه المختلفة له وظائف محددة تختلف تبعاً لفصول السنة. فالحيز الواحد تختلف وظيفته في الفصول المتعاقبة، وحتى في الساعات المتعاقبة خلال اليوم وتبعاً لمفكرة زراعية كالرعي والفلاحة وموسم القطاف؛ أو تبعاً لمفكرة عمل يومي كالغسيل ونقل المياه والذهاب إلى النهر و«التحطيب».

ب ـ داخل المسكن

أول ما يطالعنا في المسكن لدى دخولنا اليه: القناطر الداخلية التي يزيد عددها أو يقل حسب مساحة المسكن، لكنها لا تقل عن قنطرتين. وتختلف المسافة بين واحدة وأخرى تبعاً لاختلاف المسكن، ولم تكن بمستوى جدران المسكن، فاستغل الفراغ لبناء «الكواير».

كان يتواجد في كل مسكن: «تبانة» و«اسطبل»، الأولى هي جزء داخلي، لكنها منفصلة، ونصل اليها بباب صغير، إنها عبارة عن مكان يخزن فيه علف الحيوانات كالتبن والشعير وغيره من الحبوب. أما الثاني فهو مأوى للحيوانات، وكان إما في نطاق المسكن أو منفصلاً عنه تبعاً لحجم الثروة الحيوانية لدى الاسرة، (كانت تعيش الحيوانات في كثير من الأحيان مع الانسان وتنام معه)...

أهم عناصر المسكن القديم التي ميزته تلك التجويفات الواقعة في جدرانه الداخلية التي كانت تمثل ما يسمى بـ «الديكور» اليوم، لتوضع فيها التحف والأدوات المنزلية بقصد الزينة والانتفاع بها...

إنقسمت هذه التجويفات إلى قسمين: تجويفات أعلى الجدران، وتجويفات الاسفل فيها التي كانت أكبر حجماً من التجويفات الأولى، وكانت توضع فيها «غلة الأرض» والمؤن، كما كانت توضع فيها الأدوات والأواني.

سميت هذه التجويفات التي هي أشبه بخزائن داخل الحائط بـ «**كوارة**»،

وجمعها «كواير»، وكانت تقع بين القناطر، وتصنع من الطين، ويختلف عددها من مسكن لآخر، إذ تراوح من اثنين حتى عشرة، وزين بعضها برسومات وبزخرفات واضحة (سنابل من القمح أو غصون شجر إلخ...).

في ما يتعلق بالداخل وإضافة إلى «الكواير»، كانت هناك رفوف خشبية توضع عليها الأدوات المنزلية كالصحون «والتباس النحاسية» والصحون المزخرفة و«الصواني»...

شغلت **الموقد** إحدى زوايا المسكن، حيث كان يوضع فيها الوقود للتدفئة وللطبخ (من القرامي والحطب)، والتي استبدلت بمدفأة المازوت. للسراج مكانه على الحائط، وبالقرب من «**الداخون**».

«**السمندرة**» أو «**اليوك**» المصنوعة من الخشب كان يوضع فيها الفراش واللحف والمخدات (لأهل المسكن وللضيوف)، ويغطى بشرشف مطرز، وكان علوه مترين وعرضه مترين، وعمقه نصف متر.

كانت «**الديوانية**» لاستقبال الضيوف، وكانت مفروشة «بالمساند» و«الطراريح» (جمع طراحة) - كما كان يقال - التي كانت بمثابة مقاعد للجلوس. عرفت الديوانية بكثرة النوافذ الكبيرة المطلة على الشارع، وكانت تحتوي على مكان مخصص لاعداد القهوة أو الشاي.

ونلفت النظر أن «الديوانيات» لم تكن في جميع المساكن؛ لأن وجودها، عبّر في أغلب الأحيان، عن دلالة انتماء اجتماعي وسياسي عال، وكانت تسمى في كثير من الأحيان مضافة لا تأتمر بإمرة جرس يدق على أبوابها المشرعة[1].

كما ضم المسكن القديم «الليوان» الذي كان يحل محل الديوانية أحياناً، والذي كان عبارة عن حجرة لها اثنان من الجدران أو ثلاثة على شكل مستطيل، وينحصر استخدامه بالجلوس، ولا سيما وقت الظهيرة لتناول الغداء صيفاً أو للقيلولة لما يوفره من ظل وبرودة نسبية. وكان يعلق في أركانه ما يسمى «الكبك» (براد المسكن)، وهي سلة يوضع فيها الطعام الزائد عن

---

(1) د. أحمد بيضون: ما علمتم وذقتم - المركز الثقافي العربي - بيروت 1990.

الحاجة للمحافظة عليه[1].

أما **أرض المسكن** فكانت ناعمة من (اللبن)، وتدهن بمياه العكر (عكر الزيت الذي يبقى في المعاصر). وكانت سماكة الحائط حوالي 6 سم بشكل تجعله عازلاً حرارياً في الصيف كما في الشتاء.

يمكننا القول أن مساحة المسكن التقليدي اليومية كانت تدور في غرفة أساسية تستعمل للنوم والملابس والطعام، والتقسيم بين أجزائها هو تقسيم وهمي[2].... وكلما ارتفعت منزلة أصحاب المسكن الاجتماعية ازداد عدد الغرف أو مساحة المسكن أو أماكن الزخرفة، أو تواجدت المضافة الكبيرة وغرفة الاجتماعات السرية. لكن هذه المظاهر لم تمنع تمركزاً معيشياً في مساحة محددة واحدة لا تراعي خصوصية أفرادها أو توجهاتهم.

ج - الأدوات القديمة

استعملت الأواني والأدوات المنزلية التي يحتاجها الساكنون للطبخ أو للمؤونة أو للإنارة. ونلفت النظر أن أغلبها كان مصنوعاً في ذلك الوقت من النحاس أو من الفخارة[3]، إلا أنها بدأت تتراجع بوضوح أمام ظهور الأدوات الآلية والكهربائية الحديثة.

نذكر هذه الأدوات:

- الطابون وهو فرن الطين[4].
- التنور لصناعة الخبز والكعك (وكان في أغلب الأحيان جماعياً).
- الصاج (للخبز المرقوق ومعه ترفق «المرقة»).
- المفرش (حصيرة تتسع لفراش شخص ويسهل نقلها خارج المسكن).

---

(1) أخذت هذه المعلومات ميدانياً وأثناء المقابلات مع المسنات.

(2) كان مكان الاستحمام: «العتبة» أو المزحلة كما سماها البعض.

(3) هذه الأدوات هي في اختفاء مستمر، إلا إذا استعملت للزينة وللديكور، مما توارثه الابناء والاحفاد المهتمون بهذه المسائل، رغم أن إنتاجها كان بحاجة لعمل فني رفيع، ولعملية تنظيف موسمية طويلة يقوم بها أخصائي.

(4) شاديا مصطفى - البيت التقليدي في بنت جبيل. بحث أعد لنيل شهادة الجدارة في العلوم الاجتماعية - بيروت - 1981 - 1982.

- السكملة (أو الطاولة الصغيرة).
- الغربال والمنخل والمسرد وغيرها لتنقية ولتصفية المحاصيل الزراعية.
- الصينية من الفخار أو النحاس (صدر) أو من القش، يتناول عليها أهل الاسرة طعامهم.
- الجنطاس، على شكل طاسة لوضع اللبن.
- الحلة، طنجرة كبيرة يسلق القمح فيها، أو يصنع الدبس والمربى...
- الدورق لتبريد المياه، كالابريق، ويؤخذ مع المزارع إلى البيدر وإلى الأرض والكروم.
- الزعنونة المصنوعة من الفخار لتكييل اللبن.
- دقماقة وبلاطة للحمة النيئة.
- الهاون لدق الحبوب والبهارات والثوم.
- الجاروشة لجرش الحبوب (كالحمص والفول والعدس).
- الطبلية، طاولة مستديرة خشبية علوها 25 سم ولها أربعة أرجل، استعملت لتنقية الحبوب وللعجين.

هـ - العائلة وعلائقية أفرادها

نقصد العائلة هنا بمعناها الواسع وبأجيالها من أجداد وآباء وأبناء يعيشون معاً وبنفس المسكن أو في مساكن أو غرف متقاربة لدى زواج الابناء. لقد كانت وللوهلة الأولى **عائلة تقليدية**.

كان عمل الأب في الخارج (وهو بأغلبيته عمل زراعي) يحتم عليه البقاء حتى المساء خارج المسكن، الذي تبقى به المرأة للاهتمام بشؤونه وبتنظيفه؛ ولاحضار المياه والوقود اليه. أما في المواسم الزراعية فكانت تساعد زوجها بفاعليته ملحوظة.

العلاقة داخل العائلة لا تجمع بين الوالدين والأولاد أو بين الوالدين أنفسهم فقط، بل كانت علاقة تجمع الاجداد بالآباء من جهة، وبالابناء من جهة أخرى، أساسها الطاعة والاحترام **وتفضيل الذكر على الأنثى**: تفضيل الزوج على الزوج؛ تفضيل الأخ على الأخت؛ إنها سلطة الذكر على الأنثى وسلطة الزوج على الزوجة. كانت الأنثى تخاف وتخجل من زوجها أو أخيها

أو حتى ابنها كرجال احجاب سيطرة وإفراط في تضخيم دورهم على حسابها. إنها علاقة توتر وقمع تنعكس سلبياً على المرأة أكثر مما تنعكس على الرجل، فهو صاحب القرار: إنها العبء على العائلة، بينما يكون الذكر هو الكسب الأكبر. من النادر أن تلقى الأنثى في طفولتها الاهتمام الذي يلقاه الصبي، أو أن تكون مركز الاهتمام الأول في العائلة. إنها، أي البنت، تتعود ومنذ نعومة أظفارها ويدفع من العائلة إلى الشعور بأنها غير ضرورية وغير مرغوب فيها، وتتعلم تدريجياً على قبول وضعها كأنثى.

علاقة الأولاد لم تكن مباشرة بأبيهم، بل كانت تخضع للتجنب وللمداراة وفي أحيان للقساوة، عكس علاقتهم بالأم التي كانت تظهر كل المحبة والعطف والخوف من مصارحة الأب بما يمكن أن يحصل بينها وبينهم تجنباً للقصاص الابوي الصارم الذي يمكن أن يدعمه سلطة الجدارة، رغم محاولاته إظهار التقرب والاهتمام.

كانت الجدة العنصر المرطب في العائلة، العنصر الوسيط والذي يمتصّ النزاعات والمشاكل.

وكان هم الزوجين والجدين: الاكثار من الأولاد حتى أصبح الانجاب الوظيفة الاساسية للمرأة بغض النظر عما يجب أن تقوم به أو أن تكون عليه.

إنها تربية تحمل فكراً موروثاً كان مستمداً أساساً من الثقافة المهيمنة، كما تحمل سلطة تتخذ أشكالاً شتى أهمها: شكل **العقاب الجسدي** الذي تفرض معه **الطاعة**، طاعة الخوف أكثر مما هي طاعة الحب والاحترام حسب قول - هشام شرابي، تلك التربية التي لا بد من أن يترتب عليها نتائج في تكوين شخصية الفرد لاحقاً كالعجز والاتكالية والتهرب[1]، وانعدام القدرة على نقد الذات وإدانتها.

أما موضوع الجنس فهو موضوع محرم داخل العائلة، ويلف الحياة الجنسية غشاء من التكتم والسرية، وبالتالي «فإن تجربة الجنس عند الطفل تتصف بالفوضى وبالألم وبالغموض»[2].

---

(1) د. هشام شرابي - مقدمات لدراسة المجتمع العربي - الطبعة الثانية - الدار المتحدة للنشر - بيروت 1975.

(2) المصدر نفسه.

ينمو الفرد الذكر إذاً ـ والقول للدكتور شرابي ـ في مجتمع قضيبي ينزع في شخصيته إلى حب البروز والسيطرة، ويحتقر المرأة ويميل إلى إذلال من هم أضعف منه، فتكون شخصيته على صورة أبيه أو ارتكاساً لها.

فالنزعة العدوانية التي يقول «فرويد» إنها تبدأ في البروز في الفترة الثانية من تطور الطفل البيولوجي (سن الثانية)، عندما ينتقل اهتمامه إلى عملية البراز فينظر إلى برازه كشيء هام وثمين»[1]، «هذه هي النزعة السائدة التي تطبع الشخصية القضيبية personnalité phallique»[2] التي تصنعها العائلة التقليدية في مجتمعاتنا من خلال التربية وطريقة معاملة الأطفال، والتي لا بد من أن تطبع شخصية الفرد فيها حين يكبر، فيعتز بذاته ويتلذذ في إبراز «أناه»، فيصبح «شديد الحصر على التأكد من احترام الناس له، وفي التشديد على منزلته والدفاع عن سمعته. وهو يجد احترامه لنفسه في فرض نفسه على الآخرين وفي تحقيرهم، خصوصاً إذا كانوا من أقرانه وأخوانه. إنه في كثير من تصرفاته لا يزال طفلاً، يتأمل برازه كل صباح باهتمام وبعطف كبيرين»[3]....

أوليس هذا هو سلوك باني المسكن[4] في الدراسة؟

أوليست هذه دوافعه ومحركاته الدفينة وراء البناء؟

وفي هذه الحالة، يكون مسكنه معبراً عن أناه الذي يتأمله كل يوم بل كل ساعة بفخر واعتزاز، ويصبح مخرجاً مخلِّصاً من ضغط السلطة (الأبوية والاجتماعية) مقابل تركيز الذات والتنافس واستبدال المصلحة العامة بالمصلحة الفردية؟[5].

3 ـ المسكن الحديث

بدأ المجتمع الريفي المحلي يتّسم بشكل عام بصفات «الحضرية»، وهو

---

(1) وتنمو خلال المرحلة الشرجية، حيث يشتد التجاذب ويتجه ميول الطفل نحو ما يسمى بالسادو مازوشية.

(2) هشام شرابي ـ المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) الذي كان ينتمي إلى الطبقة الوسطى سابقاً.

(5) أبنية العينة، لم تراع سوى المصلحة الفردية (تشويه المناظر الطبيعية ـ البناء على أرض المشاع ـ تهديم القدم)...

مجتمع جمع بين الريفية والحضرية وبدأ يطفو عليه الآن مجتمع التحضر والتمدن (نتيجة عدة عوامل، أهمها الانفتاح الثقافي على الحضارات الأخرى، خاصة في منطقة العينة: جبل عامل ـ النبطية)، فتأقلم وادخل الحديث، وحافظ بشكل أو بآخر على التقليد: إنه مجتمع نصف مديني Semi-Urbain أو مديني ـ ريفي ruro-urbain كما يقال. وكما لم تحدد التسمية نهائياً بعد وبهذه التسمية المبدئية لم نعد نتمكن من القول: قرية على وحدات هذا المجتمع؛ لأنها لا تحمل نمط القرية المعيشي والخدماتي... يمكن القول أنها «بلدات» أو «بلدة» كي نشير إلى التحول الحاصل في النظام الاجتماعي والانتاجي والعلائقي. يحمل النمط الجديد على تغيير المجال ويظهر نظاماً جديداً ويترك المجال لسلطة مدينية جديدة. إلا أن النضوج في فكرة المدينية في الريف تجاوز محدداته، وخلق إطاراً ومواصفات تحدده، وخلقت فئة من الشعب غير محددة ومعروفة لا تؤمن بتواجد صورة ريف هناك.

ومهما يكن، فعملية «التغيير الحداثوية» حاصلة، وبدأت مع بدايات القرن العشرين، واشتدت في أواخره. ففي سنة 1948 وبعد نشوب الحرب، بدأت الهجرة إلى الخليج، وبدأ استعمال الباطون المسلح في البناء وتزايد ديموغرافياً عدد السكان، وأدخلت السيارة، وانتقل منزل المختار من الحي القديم إلى الاحياء الجديدة، وامتدت القرى أكثر مما كانت عليه، وتجاوزت المركز، وبدأت تنشأ الاحياء الجديدة، وبدأ الناس بشراء الأراضي للبناء، وعبدت الطرق التي تقود لهذه الاحياء، فتمركز البناء حول أو مقابل الطريق، وبني الجامع الجديد والحسينية الجديدة، ودخلت المياه والكهرباء إلى المساكن، وذهب معها دور نبع المياه أو العين، وقلت أهميته الاقتصادية والحياتية والاجتماعية، وتطورت التكنولوجيا المنزلية، وزادت الأدوات الكهربائية المنزلية، مما يساعد على توفير مزيد من الراحة، هذا بالاضافة إلى دخول الراديو والتلفزيون بشكل أساسي.

أما الهجرة إلى بيروت، فقد قللت من الزراعة، وبالتالي من أهمية البيدر والبركة، وزاد عدد المؤسسات التربوية بعد إدراك ووعي ثقافي، كما أن الهجرة الخارجية فجرت وعي البناء. وزادت وعي مستلزمات الراحة والتكنولوجيا، وابتعد البناء أكثر فأكثر عن المركز السكني القديم، وراعى

الانشراح والاتساع، وتعددت الطوابق؛ مما ساعد على إدخال تغييرات واسعة في التقاليد والعادات الاجتماعية كمواضيع الحداد والاعياد الدينية والطقوس التي أصبحت أكثر ذاتية وفردية مما هي اجتماعية عامة. ووعت المرأة دورها الديني والاجتماعي، فأثر كل ذلك على مفهوم العمران، حيث الجدلية قائمة في العلاقة ما بين الشكل والثقافة.

إن مساحة المسكن حالياً هي حقل صراع التغيير، إنها صورة تصرخ بالحداثة وتعلن عن تطور «للحميمة». ولكن المسكن التقليدي القديم لم ينتقل مباشرة إلى الصورة الحديثة التي نراها عليه اليوم، بل مرّ في مرحلة انتقالية لم تخنق حتى الآن. لقد تطور - وقبيل الاستقلال (أو بالتحديد ما بين 1930 - 1940) إلى بناء وسطي مخضرم اتسم **بالاضافات**، حيث انه حافظ على بعض مظاهر القديم فهو اما:

1 - أما جمع المسكن فنقل المطبخ والحمام من الخارج إلى الداخل وبالقرب من الغرفة الاساسية القديمة.

2 - واما أضافت بعض الغرف الاخرى التي أصبح المسكن بحاجة لها مع عملية التغيير الاجتماعي الحاصلة.

3 - ونقل القسمة الداخلية الواسعة إلى القرب من الغرف وجعلها بمثابة شرفة يقال عنها «بلكون» على نسق الشرفات المدينية.

4 - وألغى الكواير داخل المسكن أو حوّل وجهة استعمالها بعد أن رممها وغير فيها.

5 - حسن سقف وسطح المسكن وبدل من مواد بنائه (من الطين إلى الباطون)، فالسطح هو شعار المسكن، ورصدت أهميته في دراسات مختلفة. إنه المظلة التي تأخذ حالياً إما شكل انحناءات ثلاثية الشكل أو ثنائية ومغطاة بالقرميد أو إما مسطحة عادية.

حدثت هذه المرحلة بعد تكاثف الهجرة إلى المدينة لكسب العلم والوظيفة (هجرة الابناء أكثر من الآباء)، مع ازدياد مطالب العيش الجديدة وتطلعاتها: يؤثر الوضع الاجتماعي في بنية المسكن؛ لأن كل تحول يطرأ عليه لا بد من أن يطال لاحقاً البنية السكنية. من هنا، نجد أن هذه المرحلة التي

نحن بصدد التكلم عنها، لم يعد المسكن القديم فيها ملائماً لعيشها اليومي، فحصل التغيير التلقائي في المساحة، وأيضاً في الأدوات المستعملة، وحتى في نمط انتاجها (الزراعي - سطوة الوظيفة).

ما هي مواصفات المسكن الحديث؟

يمكن أن يكون المسكن الحديث، عكس المسكن التقليدي، شقة داخل بناية، ندخله عبر درج أساسي، أو يمكن أن يكون بناء مستقلاً (فيللا - قصر - مسكن عادي، لكنه حديث نصعد اليه بدرج أو بدونه). سمته العائلية الاساسية: مغادرة الابناء لمنزل الآباء تطلعاً لحياة استقرار تشابه حياة المدن.

من أهم متطلباته: استعانة بمهندس معماري يخطط وينفذ لمشروع المسكن، بعد أن كانت مهنة الهندسة فكرة لصالح الأغنياء الذين يتحكمون بدفع تكاليف المهندس. لكننا نلحظ قلة من المهندسين الذين ينفذون مشاريعهم لاحياء فكرة المسكن القديم بعناصر هندسية مدروسة.

فالأغلبية، يصممون لمسكن له مواصفات مدينية بحت، ويحضون على تشجيع مطلق من صاحب المشروع.

- غالباً ما قسم هذا المسكن إلى:

- صالون أو اثنين (غرفة استقبال).
- غرفة للسفرة.
- غرفة للجلوس.
- غرفتين أو ثلاث للنوم.
- حمام عدد - 2 -
- مطبخ وبجانبه غرفة للمونة أو غرفة للخادمة.
- مدخل أساسي يوزع الغرف يميناً وشمالاً.
- شرفة أساسية (بمواجهة غرفة الاستقبال):
- شرفات ثانوية (عدد 2 - أو 3 - بمواجهة غرف النوم أو المطبخ...).

أما في المساكن المبنية من طابقين أو ثلاثة (فيللا مثلاً)، فتكون غرف

النوم في الطابق العلوي مضافاً اليها «حماماتها الخاصة بها»، (يمكن أن يكون لكل غرفة حمامها الخاص بها)، مع غرفة جلوس غير تلك الموجودة في الطابق السفلي والمضافة إلى غرف الاستقبال والسّفرة.

تبدو غرفة الجلوس (والمسماة غرفة القعود) أساسية في المسكن الحديث. إنها غرفة المعيشة التي تشهد كل وقائع الحياة اليومية والتي تخفف الضغط عن استعمال غرف الاستقبال، لدرجة يمكن أن تغلق هذه الأخيرة، ويستعاض عنها بغرفة المعيشة التي غالباً ما يطلب من المهندس إنجاز ديكور شرقي فيها (خاصة في مساكن الفيللات).

إنها عودة للقديم داخل الحديث بداعي الزينة والتبرج (accessoires)، وليس بداع وظائفي (Fonctionnel). والمطلوب، وحسب قول مهندس ديكور أخصائي، هو الصيني الشرقي أو الهندي الشرقي أو الياباني الشرقي، وليس اللبناني الشرقي.

إلا أن فكرة الزاوية أو Coin في المسكن الحديث الحالي لا تبدو محببة كما كانت من قبل سنوات. فالمهم هو إيجاد غرفة قائمة بحد ذاتها، وتملك مواصفات الاستقلالية وليس الدمج الوظائفي. أما الاهتمام «بالصالونات» فقد بدت متعلقة بالانتماء الاجتماعي:

فاهتمت الفئات المرتاحة اجتماعياً (ونعني أيضاً اقتصادياً) بغرف الاستقبال، عكس الفئات الوسطى التي توزع اهتمامها وبالتساوي على الغرف بأجمعها، كما نلحظ تنوعاً في نمط الاثاث، وفي ديكورها (mélange de styles).

تتراوح متوسط مساحة المسكن الحالي:

1 ـ فيللا: من 800 م^2 إلى 1000 م^2.

2 ـ شقة Deluxe: من 200 م^2 إلى 300 م^2.

3 ـ شقة عادية: من 100 إلى 200 م^2.

أما الحديقة أو **jardin**، فقد كانت ضرورية في المسكن الحديث، لكن أهميتها الوظائفية قد طرأ عليها التغيير، إذ تحولت من الوظيفة الانتاجية الزراعية إلى وظيفة الزينة والديكور. لم تتجاوز مساحة الحديقة 600 م^2،

وفضلت عليها المساحات الداخلية للمسكن (كغرفة الاستقبال مثلاً)؛ لذا نجدها أغلب الأحيان مهملة وغير مدروسة كباقي أنحاء المسكن الداخلية.

إنه مسكن ذو دلالة تتماسك عناصره كي يعلن عن هويته، وكي يعبر عن حياته وعن انتمائه وعن ولع أهله بالبناء، وهو ولع قديم متجذر، لاحظه «هنري غيز» خلال اقامته في لبنان، واعتبره ميزة مشتركة عند اللبنانيين:

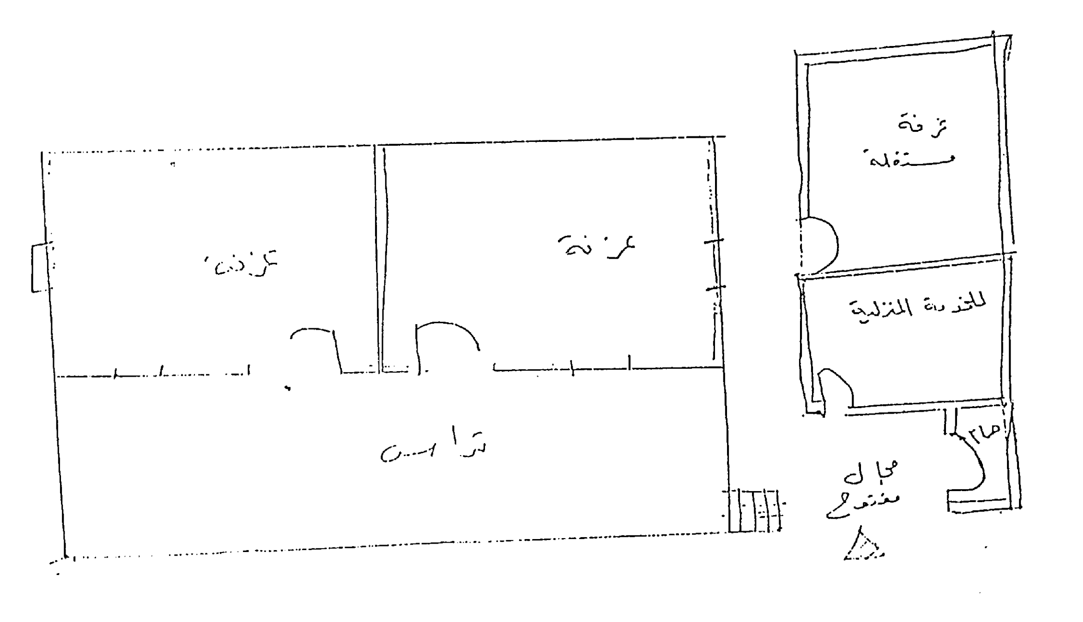
«أستطيع القول، بعد أن رأيت ما رأيت من السعة التي ظهرت في أسلكة بيروت، عندما ازدهرت فيها الأعمال التجارية، إنها، بوجه نسبي، أكثر ثراء من دمشق وحلب. إننا لا نجد اليوم شخصاً بيروتياً مرموقاً لا يملك على الأقل، بيتاً في الجبل. وفي هذه الأبنية التي تغمرها غالباً روح «الفخفخة» أكثر من الذوق السليم، تدفن معظم الثروات. إن حب البناء هو بصورة عامة داء معد عند الشرقيين. إنهم يحرمون أنفسهم من رأس مال يدر عليهم أرباحاً وافرة لو بقي في صناديقهم ويساعدهم على توسيع دائرة أعمالهم دون أن يضطروا في الساعات الحرجة وهم معرضون لذلك كثيراً، إلى الاستدانة المهلكة بفائدة أربعة أو خمسة بالمائة عن كل شهر»[1].

---

(1) هنري غيز - تعريب مارون عبود - بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن - الجزء الأول - منشورات دار المكشوف - بيروت 1949 - ص 108.

ملحق رقم (2)

بدء التحولات في المسكن

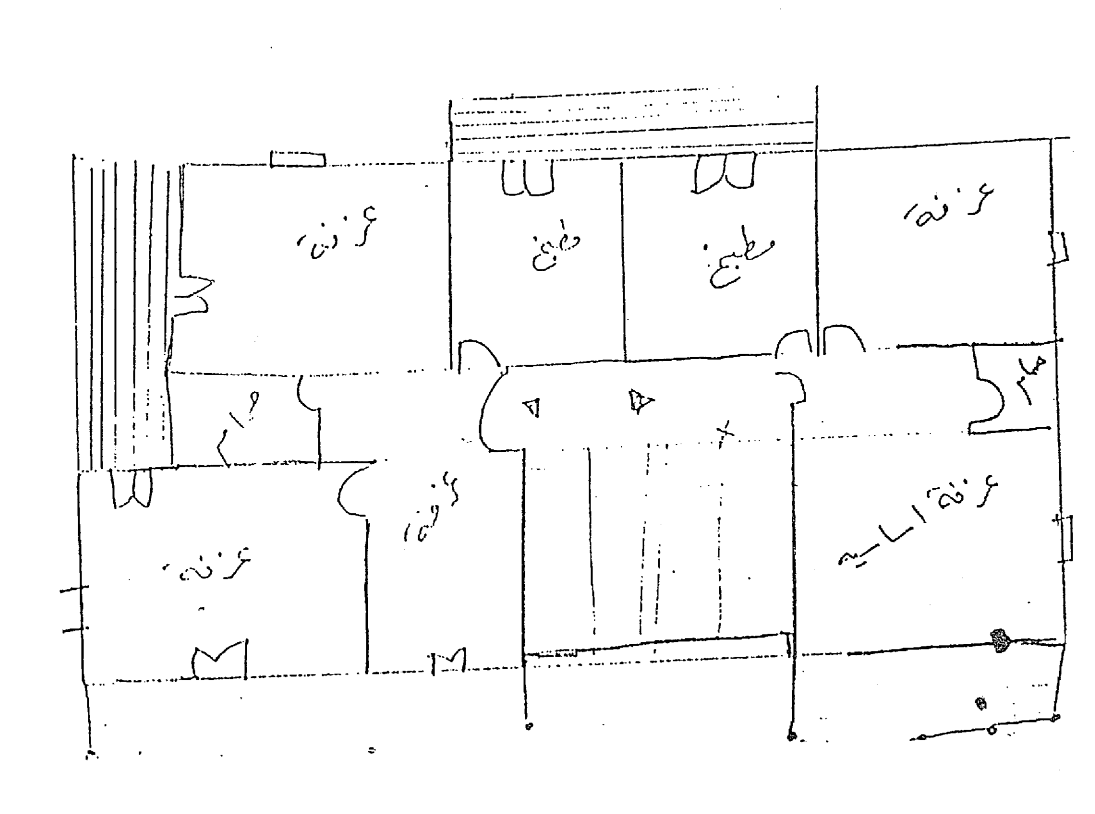


ـ المسكن التقليدي ما بين سنوات: 1940 ـ 1960

من ميزاته: استعمال الباطون المسلح ـ زيادة عدد الغرف ـ ادخال الحمام ـ زيادة التراس ـ انتظام في الشكل.

ملحق رقم (3)

بدء التحولات في المسكن



- البيت المديني منذ 1940
- دخول البلكون - درج أساسي - توزيع الغرف حول غرفة أساسية

الفصل السابع

رؤية في الجنسية وموقع المرأة في المجال

لماذا تتعرض هنا وفي هذا الفصل للمرأة بالذات؟

هذا التعرض ليس من قبيل التمييز إطلاقاً، ولا هو إقرار بالفروق الاجتماعية بينها وبين الذكر، بل هو نقل لوضعية اجتماعية حكمت بالمفارقة وبالتراتبية وبوضع الجسم موضع التساؤل. إن قضية المرأة هي حجر الاساس في مجتمع يتوق إلى نظام الحداثة. إنها نقطة ارتكاز ونقطة تحوّل.

لقد ترجم وضع المرأة الاجتماعي، ومنذ القديم، شكلاً من أشكال الغلب والمهانة[1]. ولقد كانت حركتها، في المجالين الخاص والعام، مقيدة، وميدانها الخاص والمفضل هو ميدان العائلة، وبالتالي داخل المسكن حيث تعزل وتعيش عبر فتحاته ومراكز الاجتياز فيه بين الداخل والخارج (كالعتبة والأبواب والنوافذ والجدران والفسحة الخ. . .) ذلك أن الخارج هو المجال الذكوري عكس الداخل حيث يتآلف معه ويتواجدن فيه **ويعطين داخله**، كما قالت الأديبة «ليلى بعلبكي» في كتابها «أنا أحيا»: أنا أعطي إذاً أنا أعيش، Je donne, donc je vis[2]؛ لأن المرأة العربية تجهد نفسها في العطاء. . . .

هكذا تدخل مسألة الحدود حادة بهذا الشأن؛ لأنها الشيء الفاصل بين المجالين. وهكذا كان المسكن مكان عزل للمرأة ووظيفة أساسية من وظائفه.

---

(1) عباس مكي ـ المهانة والغلب ـ المرأة العيادية للمرأة العربية ـ مجلة الفكر العربي عدد 64 ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1991.

(2) A. Bouhdiba: La sexualité en Islam. P.U.F. Paris 1979. p. 290.

1 ـ التربية وأثرها في رؤية المرأة وجنسيتها

يترابط السلوك الاجتماعي مع تركيبة المجتمع، والمنطلق الأساسي لتفهم هذه العلاقة يكمن في تحليل العائلة والعلاقات التي تقوم عليها، خاصة علاقة الوالدين بأطفالهما وكيفية تربيتهم ومعاملتهم في مراحل حياتهم الأولى. إن التربية والتثقيف في العائلة وبعدها في المدرسة «إنما يهدفان إلى قولبة الفرد على النحو الذي يريده المجتمع وتقرره الثقافة المسيطرة»[1]. ويحافظ المجتمع على بقائه واستمراريته بالمحافظة على عاداته وتقاليده وقيمه وعقيدته. وهذا ما يطبع السلطة الفوقية التي على كافة الناس أن ترضخ وتمتثل لها... تأتي العائلة هنا كمؤسسة اجتماعية أولى. كي تلعب دور الوسيط الرئيسي بين شخصية الفرد والحضارة الاجتماعية التي ينتمي اليها؛ لأن شخصيته تتكون ضمنها وهي التي بواسطتها تنتقل اليه أنماط السلوك المختلفة.

إلا أن التغييرات التي طرأت والتي يمكن أن تطرأ على الطرائق التربوية المتعلقة بالطفل تنبع وكما يقول «هشام شرابي» وغيره من موضع الطبقة الاجتماعية التي تنتمي اليها العائلة، أي من مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، كما تنبع أيضاً من وضعها الاتني والديني والاقليمي. وما دام أن المجتمع العربي ينمو بشكل عام إلى سيطرة الرجل وإلى الافراط في تضخيم دور الرجل والتقليل من أهمية المرأة، فإن أطفال هذا المجتمع قد نشأوا بدون أدنى شك على مثال هذه الصورة، وعلى تمييز الذكر عن الأنثى وعلى تحديد دور الأم في الحياة العامة وفي احتضارها بعلاقة مع الرجل لا يتعدى دور الزوجة أو الأم أو الشقيقة أو الجدة، لكننا ننسى لهذا التوجه، إن لهذه الادوار أثراً عميقاً في النفسية، إنه أثر خفي لا يعي «المجتمع القضيبي» رواسبه بوضوح، فينمو الفرد الذكر في إطار حب بروز وسيطرة؛ بينما ـ وبفضل حالة التمييز هذه ـ تنمو الانثى وتتعلم كيف تواجه مشكلات الحياة بصورة أكثر فاعلية من الصبي في أحيان كثيرة (وهذا ما هو **غير مثبت حالياً وفي كلتا** الحالتين).

---

(1) د. هشام شرابي ـ مقدمات لدراسة المجتمع العربي ـ الطبعة الثانية ـ الدار المتحدة للنشر ـ بيروت 1975. (المقدمة).

ربما عملت لاحقاً، وإذا توفرت لها الشروط الثقافية اللازمة إلى مجابهة النظام والتقليد الذي يسعى إلى سحقها باستمرار (حركات تحرير المرأة والانضمام اليها. . .).

ان العلاقة بالأطفال، ومن ثم العلاقة بالمرأة هما محددان أساسيان لتطور أو لتأخير مجتمع ما.

فالعلاقة بالأطفال ما لم تكن تحليلية ـ نقدية تبتعد عن أداة الترداد والحفظ، فإنها بدون شك علاقة كبت وقمع تؤدي بالضرورة إلى كبت جنسي يؤدي بدوره إلى تنمية نزعات الامتثال والاتكالية؛ ولقد ربط «رايش»[1] بين الكبت الجنسي وبين ضعف القدرة على النقد والتمرد عند الفرد.

أمّا العلاقة بالمرأة فهي علاقة إذا سيطر عليها الاضطهاد (كما هو الحال في المجتمع العربي) يستحيل تغييره؛ لأنها قاعدة المجتمع وركيزته، ولأنها قاعدة التربية، وأساسها العلاقات التي يتعرض لها الطفل منذ ولادته.

إنها نصف المجتمع، وهو نصف إذا شل في المجتمع بأسره.

2 ـ وضع المرأة التقليدي

كان من المفجع أن يولد إنسان أنثى في مجتمعنا، فهي لا تعامل إطلاقاً معاملة الند للند، وهي محرومة من الحقوق والواجبات التي يتمتع الرجل بها. على المرأة ألا تُرى نفسها لضرورات الحياة العامة. والحدود بين الرجل والمرأة، بين المرأة والمجال هي «حدود فيزيائية؛ لأن المكان الأنثوي هو الاقامة وهو المنفى، هو حياتهن العملية العملية وهو حلقة إتصال بينهن وبين باقي النساء المجاورات، خاصة خلال الصباح وبعد خروج الرجال؛ ذلك الأمر الذي ينتظرنه بفارغ الصبر؛ لأن ترك الرجل للمسكن هو مدعاة سرور للمرأة. . . أما عند عودته فيجب أن ينبّه عن قدومه؛ وعليه أن يتحاشى النظرات العميقة للنساء. . .»[2].

---

(1) W. Reich: L'irruption **de la** morale sexuelle-étude des origines du caractère compulsif de la morale sexuelle- **Traduit de l'allemand** par P. Kammitzer. Payot- Paris 1972. p. 33.

(2) J. Ch. Depaule ـ باب بيتك يحكمك ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 75.

عبر مشاهد الحياة اليومية (من مأكل ـ ملبس ـ نوم ـ عمل الخ. . .) التي تقوم بها المرأة، يمكننا أن نلتقط مدى التقليد في علاقتها بالزوج وبالأب وبالأخ.

أول ما يطالعنا الجسد، فهو جسد مكبل يحافظ عليه حتى بأدق أجزائه؛ لأن شرف الرجل من شرف المرأة؛ والشرف هو شرف الجسد ـ هو الهوية العائلية المقدسة. الشرف يعني بكثير منه «الخباء»، الداخل، الممنوع. لكنه ممنوع يتحرك بداخله يتمكن دائماً من إيجاد سبل للتخلص لا تتفق إلا مع «الخفاء»، أي إلا مع الداخل: **فالجسم المقيد والنظرات والأصوات المخنوقة تتمدد في الحياة اليومية، عبر الحدود المرسومة لها، كالأبواب والشرفات والجدران والنوافذ كي تعرف ماذا يخبئ لها الممنوع!**

إن الأبواب والشرفات هي نقاط حساسة؛ لأنها تصل السكن بالمساحة المدينية (الحي ـ الشارع ـ الزاروب). إنها نقاط انتقال وتبادل محدود (خاصة للطوابق الأرضية). لقد لعبت الشرفات دوراً كبيراً في الأدب العربي حيث كانت مكان الغزل والحب والهيام، ونذكر هنا ما ذكره مطولاً وعلى سبيل المثال ـ «J.Depaule» في كتابه «باب بيتك يحميك»، وقصة «عودة الروح» «لتوفيق الحكيم» ودور الشرفة لها، إضافة إلى دور المشربية (التي سبق التعرض لها في المسكن العربي القديم) في البناء الذي يكرر القاعدة العائلية بالرؤية دون أن نرى.

وبناءً عليه، فإن **زاوية** (الزاوية التي سبق وأن تعرضنا لها في إطار المجال السكني) المرأة هي زاوية للراحة، للهدوء، للاسترخاء، للفراغ، للوجود، للتماسك، للبقاء، فيما تكون زاوية الرجل هي زاوية، لأوراقه ولعمله ولاستقبالاته. في حين أن زاوية الأولاد هي زاوية للصراخ، للّعب، وللفرائض المدرسية. . . فتتمأسس الزاوية وتأخذ وظيفتها تبعاً للوظيفة الاجتماعية العامة، وتتغير تبعاً للتحولات التي تطرأ على المجتمع (تغيير زاوية المرأة).

إن مفهوم «**الجنسية**» بين الرجل والمرأة لم يرتبط فقط بمبدأ الوقت، وقت العمل أو وقت الفراغ أو الوقت الماضي أو الوقت الزائد، بل ارتبط أيضاً بمبدأ المجال، مجال العمل ومجال السكن، ويرتبط بمنطق الانتاج، وهو يلقن

منذ الصغر، وبضغط أقل على الصبي منه على البنت، فالجنس حق الرجل وحده. . . ولا يبتعد مفهوم ذكورة الجنس وتمجيد الذكورة عن باقي المفاهيم التي تعمل فكرياً ووظائفياً على نطاق الاسرة العربية، وأصبحت ظاهرات سائدة كدونية الأنثى وأحياناً أميتها وحجبها واللجوء إلى الخرافة والتعلق بالأوهام إلى الاستجداء وأحياناً ممارسة الاحتيال، وكلها تدخل في إطار التطورات والمعتقدات الايديولوجية السائدة.

أما عمل المرأة التقليدية فهو عمل أنثوي يحدث في أماكن النشاطات النسائية الداخلية كمكان الغسيل والطبخ وقليلاً ما يكون في البهو الداخلي أو أمام الحديقة؛ ذلك أنها لا يجب ألا تتواجد في أماكن تواجد الرجل أو ضيوفه. وغالباً ما يتناول طعامه بمفرده كي تكون هي جاهزة لخدمته بدون إبطاء أو تأخير، هذا ما يعكس نشاطاً اجتماعياً مستمراً ومكثفاً للرجل أكثر منه للمرأة، حيث لها حياتها الداخلية الخاصة، ولا تستفيد من الحياة المدينية ولا من مراكزها، ويصبح التآلف الاجتماعي على مستوى السكن وعلى مستوى الحياة الخاصة فقط، وهذا ما ارتبط بالزواج المتعدد أو Polygamie، الذي انعكس بدوره على شكل المجال السكني وعلى توزيعه (منزل كبير غرف متعددة لكل زوجة ـ حوش كبير للأولاد ـ أماكن طهو وغسيل مشتركة. . . .).

إنه وضع تقليدي يضع المرأة قسراً بمواجهة تقسيم جنسي حاد بينها وبين الرجل، ويرتبط بطبيعة البنى العربية الاقتصادية ـ الاجتماعية (التي تتصارع وتتفاعل داخلياً)، ومقاومة الرجل ورفضه لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى ضياع الامتيازات التي يتمتع بها وقوانين الأحوال الشخصية، خاصة في مسائل الزواج والارث وغيره. كلها تعود إلى واقع سلبي ينظر إلى المرأة نظرة تهميش واستبعاد.

إرتبط هذا الواقع الاجتماعي والاقتصادي بواقع القهر النفسي الانثوي؛ لأن الأنثى، ونتيجة قمعها من قبل المجتمع والرجل على السواء، تجتمع في وضعيتها كل تناقضات المجتمع، ويجتمع في شخصيتها كل نتاج حياتها الاجتماعية المعاشة.

3 ـ انعكاسات الوضع التقليدي على نفسية المرأة

إنعكس هذا الوضع على نفسية المرأة، وكانت عرضة للمشاكل

وللأزمات النفسية أكثر من الرجل. بمعنى آخر، لقد عرضها هذا الوضع إلى بنية خاصة في الشخصية، بنية مضطربة السلوك الجنسي (اقتناع وإغراء، متوترة في رعايتها لاطفالها، متناقضة المواقف (افراط في الحنان، ومبالغة في القسوة)، والسلوكات (طفلية وعدوانية)... إنها امرأة تقترب مظاهر شخصيتها من مظاهر الهستيريا أو الرحام - ومن مظاهر السوداوية - ومن مظاهر الهُجاس - ومن مظاهر الهوامية - وتتسم علاقتها بالآخرين بالدمج وبالذوبان وبالكبت وبالقلق. وهنا هو قلق الهجر الذي يفتش عن سند وحماية مستمرين. إنها علاقة تبخيس منه لها؛ أي من الآخر نحو المرأة، وهذا الآخر هو الرجل الذي يتعاظم عظامه (Paranoia) ونرجسيته أمام المرأة.

هذا السلوك وهذه العلاقة هما نتيجة للواقع بحد ذاته. وواقع علاقة المرأة بالرجل في المجتمع الابوي هو واقع رحامي[1] (أي هستيري ويشير إلى بنية خاصة في الشخصية، بنية تتكلم، تتضح بالمعنى، تتجنب الجنس، تنقله إلى الاحلام، التذهين. تستدعي الآخر وتصدّه عنها. الشخصية الرحامية لها مواصفات: اضطراب في السلوك الجنسي - الغذائي - الجسدي الخ...)[2].

تتجمع إذاً في وضعية المرأة كل تناقضات المجتمع، وفي سلوكها وتوجهها تظهر كل الأواليات التي أشرنا اليها. **إن النظرة** اليها هي التي تحرك سلوكها وتصفه في أقصى حالات التجاذب الوجداني، وتصبح عرضة أكثر من الرجل لاضطراب الذهن وقصوره ولاستحكام الخرافة... ويتلاقى في هذه التجاذبات في الموقف من المرأة، الاضطراب الاجتماعي والاضطراب النفسي[3].

فالمرأة أداة المجتمع وخصوصاً المتسلط، فعلى «المستوى الاجتماعي نلاحظ التذبذب الهائل في الموقف منها وإحاطتها بمجموعة كبيرة جداً من الأساطير التي تسلبها كيانها الانساني. وعلى المستوى اللاواعي تتحول المرأة الحقيقية إلى مجرد سند هوامي لكل العقد والمآزم والتصورات والمخاوف

(1) د. أنيسة الأمين: ندوة المرأة العربية بين الذات والموضوع (تعقيب) - الفكر العربي - عدد 64 بيروت 1991 - ص 20.
(2) المصدر نفسه.
(3) د. مصطفى حجازي - التخلف الاجتماعي - معهد الانماء العربي - بيروت 1989 - ص 209.

والرغبات والاحباطات المكبوتة»[1].

إنه واقع يحولها إلى مجرد رحم (أداة إنجاب الأولاد)، وشرف (عفافها الجنسي المتمثل سطحياً بغشاء البكارة) وخادمة ليس فقط للزوج بل للاخوة والأب، «حين تستنزف طاقة الأم. وهي تستخدم كأداة لتمرس أخوتها ببسط النفوذ الرجولي»[2].

وتطرح مشكلة المرأة وبحدة في الطبقة المتوسطة (حيث كان ينتمي اليها أغلب أفراد العينة)؛ لأن هذه الفئة التي تعي مشكلة المرأة عكس الفئتين: الكادحة وذات الامتياز): «فقد أتيح للمرأة في هذه الفئة أن تخرج من سجنها التقليدي، وأن تأخذ قسطاً متفاوتاً من العلم، وأن تبدأ حياة منتجة، وتشارك الرجل الأعباء والمسؤوليات داخل الاسرة وخارجها كما أن الرجل، من ناحيته بدأ يعي وضعية المرأة الفعلية وأهمية مشاركتها وضرورة نمو شخصيتها وبناء كيانها الذاتي، كشرط لارتقائه هو بدوره. . . فالرقي ليس شيئاً يكتسب فقط من خلال الدراسة والممارسة، بل قبل ذلك تغرس أسسه من خلال تربية الطفل وإعداده للحياة. . .

. . . إن هذه الفئة، في المجتمع النامي، لا زالت تعاني الكثير من رواسب الماضي - وذلك عند كلا الجنسين على حد سواء. والصفة المميزة هي الاختلال في توزيع الادوار، وغموض المكانة لكل من الرجل والمرأة. فالمرأة تتوق إلى الانطلاق وتعي ضرورته لها وحقها فيه. والرجل يتوق أيضاً إلى الانطلاق له ولقرينته. ولكن كلاً منهما ما زال أسير قيود تكبّله من الداخل وفي أساس بنية شخصية، وتحتاج للتخلص منها إلى مغالبة شديدة للنفس. فالمرأة تريد أن تنطلق، لكنها لا تجرؤ على طرح قضيتها جذرياً. . .»[3].

عدم طرح قضية المرأة بوضوح من قبلها وعدم دعم ومساندة الرجل لها في هذا الطرح، حمله الكثير من المهتمين بقضايا المرأة والذين وعوا أهمية تحررها في عملية تحرر المجتمع ككل، كان هؤلاء - الذين لن نتمكن من

---

(1) المصدر نفسه. ص 120.

(2) المصدر نفسه. ص 214.

(3) المصدر نفسه. ص 216 - 217.

حصرهم كلهم - من أطباء وأدباء وفلاسفة وعلماء تاريخ واجتماع وغيره. . .، قد تأثروا بما حدث في الغرب من تغيير اجتماعي يخص المرأة واستفادوا من ارتفاع عدد المثقفين ونسبتهم المئوية - الذين مهما صغر حجم مشاركتهم - الذي أضفى عليهم قوة ذاتية وطاقات يجب ألاّ أن تشكل صنمية تاريخية في المشاركة وفي الفعل.

4 - وجهة نظر دعاة التحرير

أعلن الغرب بعد الثورة الصناعية وإدخال الآلة وتغيير القوانين الاجتماعية أن قضية النساء هي قضية تحرر المضطهدين الذي يجب أن يكون من صنعهن. وثارت النساء في أمريكا، ووصلت الثورة على أشدها إلى فرنسا وكافة أنحاء أوروبا[1]، وكان هدف الثورة النسوية: التحرر لا التحرير، تحرر المرأة من الرجل، لأنه يعتبرها ملكه، كما يعتبر سيجارته وسيارته ملكاً له[2]. وكان الوضع الجنسي أساساً هو الانطلاقة، وعمل على مكافحة القيم الذكورية التقليدية. وكانت البنود الأساسية في برنامج الكفاح النوعي للنساء الثوريات هي:

- الاستقلال الاقتصادي.
- إلغاء العمل العائلي الاسترقاقي.
- الأمومة الطوعية.

ولقد شبه الرجل الذي تعوّد ألا يطلب من النساء سوى الشهوة والتحرش بالامبريالية؛ لأنه يستفيد من النساء مثلما يستفيد الامبريالي المستغل من البلد المستعمر[3].

أما على صعيدنا العربي، فقد نادى ومنذ ما يزيد عن مئة سنة، «قاسم أمين» بتحرير المرأة وبتعليمها وبخلع حجابها وبمعاملتها بالمساواة وبالعدل مع

---

(1) Andre Michel-femmes, sexisme et sociétés. P.U.F. Paris 1977.

(2) جيزيل حليمي وغيرها - ترجمة جورج طرابيشي: قضية النساء - دار الطليعة، للطباعة وللنشر - بيروت 1978.

(3) المصدر نفسه.

الرجل وبمشاركتها الحقوق والواجبات. وما زلنا حتى الآن ننادي بتحرير المرأة. فالتحرر لا يكون بإزالة الحجاب فقط أو بمنح النساء بعض الحقوق المدنية والمهنية؛ كما أنه لا يتحقق باقتباس عادات وملابس مستوردة، فكلها مظاهر خارجية تخفي نمط العلاقات التقليدية التي تعايش العلاقات الحديثة... إن التحرر لا يعني القبول اللفظي بحقوق المرأة، بل انها عملية انعتاق شاملة لا تتم إلا بتغيير علاقتها مع الرجل وبتغيير دورها ومكانتها داخل العائلة وبدرجة أولى.

هذا ما دعا اليه أغلب المهتمين بشؤون المرأة من رجال ونساء.

أ ـ نوال السعداوي

رأت «نوال السعداوي» الطبيبة المصرية المنصرفة للاهتمام بشؤون المرأة وما تعانيه من تخلف وقمع، أن قضيتها ـ أي قضية المرأة ـ هي قضية سياسية بالدرجة الأولى؛ لأنها لا تمسّ حياة نصف المجتمع فحسب، بل تمسّ حياة المجتمع كله. إن تأخر المرأة لا يؤخر النساء ويكبلهن، بل ينعكس على الرجال وعلى الاطفال، ويقود بالتالي إلى تخلف المجتمع ككل.

ورأت أيضاً أن القيود المفروضة على الانسان رجلاً أو امرأة، تعرقل تطوره الطبيعي وتؤخر نضوجه الفكري أو النفسي أو الجسدي، ويتعارض مع صحته النفسية. والهدف من تحرير المرأة هو إطلاق امكانياتها الفكرية من أجل إثراء المجتمع فكرياً ومن أجل إثراء حياة النساء بالعمل المنتج والمشاركة في تطوير المجتمع.

وأكدت نوال السعداوي أنه ليس هناك أي دليل علمي يثبت إن المرأة أقل من الرجل عقلاً أو جسداً أو نفساً[1].

للايجاز، نورد بعضاً من الأفكار الاساسية التي أوردتها في كتبها، خاصة في كتابها «المرأة والجنس»، الذي طرحت فيه أول نظرة علمية صريحة لمشاكل المرأة والجنس في المجتمع العربي، وفي مجلتها الأخيرة «نون»[2]

---

(1) د. نوال السعداوي ـ الانثى هي الأصل ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1974.

(2) تصدرها جمعية تضامن المرأة العربية كمجلة فصلية مطلبية تسعى لتوعية المرأة ولنقل مشاكلها الحياتية اليومية ولتحسين القوانين الخاصة بها.

التي مُنعت من الصدور في مصر ثم اوقِفَتْ لاحقاً.

1 - ليست الثقافة العربية أو الاسلامية هي الثقافة الوحيدة التي حولت المرأة إلى سلعة، بل ان الثقافة المسيحية كانت أشد وأفدح[1].

2 - يرجع اضطهاد المرأة إلى النظم الطبيعية الأبوية أكثر مما يرجع إلى الشرق أو الغرب أو إلى الاديان.

3 - تضمنت الأديان في العالم مبادئ مشابهة: تبعية المرأة، تمتع الاله بصفات ذكورية... سلطة الذكر. مع أن الاسلام أعطى المرأة حقوقاً جديدة تسلب منها اليوم في معظم البلاد العربية؛ لذا وجب البحث عن إيجابيات تراثنا وإيجابيات حداثتنا.

4 - المرأة ليست ناقصة العقل ومتخلفة بالنسبة إلى الرجل. فالتاريخ يدلنا على نساء سبقن الرجل بتفكيره وبمعرفته (الآلهة الأولى للمعرفة كانت «ازيس»).

5 - المرأة في الأدب القديم ليست هي مرآة المرأة العربية الحقيقية.

6 - لن يحرر النساء إلا النساء أنفسهن، وبعد أن يصبحن قوة سياسية لها قدرتها على الفعل واتخاذ القرارات الكبرى، ولن يتم هذا إلا من خلال قوة نسائية منظمة واعية بحقوقها وأهدافها.

هذا ما فعلته ميدانياً د. السعداوي عبر جمعيتها «جمعية تضامن المرأة العربية»، وما عملت على إيصاله إلى عامة الناس عبر مجلتها «نون» وعبر كافة مؤتمراتها وندواتها.

ورأت السعداوي، أن الثورة وحروب التحرير تسرع بعملية تحرير المرأة في الشرق أو في الغرب، إذ ربطت بين قضية تحرير الشعب ككل وقضية تحرير نسائه، فحرب «الجزائر» مثلاً هي التي كسرت الكثير من القيود في الجزائر، وهذا ما هو واقع في لبنان بفعل حربه الأهلية التي سنرى نتائجها في هذا الإطار لاحقاً.

---

(1) د. نوال السعداوي - الوجه العاري للمرأة العربية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 1977.

ب ـ د. سلوى الخماش

عملت د. «الخماش» على معرفة المشاكل الحقيقية التي تعانيها المرأة؛ لأن حل هذه المشاكل له تأثير مباشر وقوي على المسيرة التاريخية للمجتمع من حيث معدل تطوره وانتاجه وتحرره وإبداعه. فإلى أي مدى يتأثر الرجل بهذه المشاكل؟ فالتغيير ما زال محدود العمق في ذات المرأة وفي ذهنية الرجل ومواقفه ومحدودة الانتشار أيضاً في القطاع النسائي. إلا أن الأفكار الاصلاحية ـ رغم تذبذبها: بين الجرأة والخوف والتقليد السلفي والتقدم ـ ساعدت على تصعيد النشاط النسائي في معظم بقاع العالم العربي وخاصة المدن. إلا «أنه وبحكم طبيعة الفكر الاصلاحي وبتأثير عوامل منبثقة عن الواقع الاجتماعي والسياسي العربي وبتقليد بعض مظاهر النشاط النسائي في الدول الغربية، تحولت الحركة النسائية فكراً وممارسة في جزء كبير منها إلى متابعة الاعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية وبرامج تدريب الفتيات، ما لم يساعد وبصورة جدية في إذابة الرواسب العازلة بين الرجل والمرأة. . . .»[(1)].

وفي دراسة لها، استمدت مصادرها من:

1 ـ كتب التاريخ والاقتصاد والاجتماع.

2 ـ كتابات تتناول موضوع المرأة وعلاقتها، كما تعبر عنه الأفكار الدينية والكتابات المركزة حول الموضوع في الصحف والمجلات.

3 ـ الروايات التي كتبها الروائيون مصورين بها الواقع الاجتماعي من حيث رؤيتهم له ورؤية أشخاص الرواية.

وجدت أن ظاهرة تعدد الزوجات قد قلت وتقطعت، لكن الرجل ما زال يقيم الحدود والسدود ويقسم الوظائف إلى ذكرية وأنثوية، وما زال الكثير من الكتاب يصورون المرأة بأشكال خيالية بحتة بعيدة عن واقعها المر الذي تعيش فيه. وتعكس على الأغلب الصورة الخيالية المتركزة في ذهنه، والتي تستند إلى جهل حقيقي بواقع المرأة ونفسيتها، ولا تعبر إلا عن أحلام يقظة يغرق فيها الرجل حين يخلو إلى نفسه[(2)].

---

(1) د. سلوى الخماش ـ المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف ـ دار الحقيقة ـ بيروت 1973 ـ ص (هـ).

(2) المصدر نفسه ـ ص 145.

وتعتبر د. «الخماش» إن المرأة لا زالت تتحرك بتأثير قوى خارجية يفرضها الرجل والمجتمع والتقاليد دون أن يكون لها دور إيجابي، وما زال الكثير من القضايا بحاجة إلى البحث والصراحة لاستنباط الحلول.

وركزت على أن دور المرأة في تحرير ذاتها هو دور أساسي:

يجب تحرير عقل المرأة ذاتها وعقل الرجل من الخرافات التي كُبلت واستَعبدت[1]؛ لأن الرجل الذي يتوهم، نتيجة العقد التربوية والنفسية التي عاناها ويعانيها، انه مخلوق له الحق في التحكم والسيطرة على مصير مخلوق آخر، لا لشيء إلا لكونه ذكراً، إن هذا الرجل بحاجة إلى خلاص وتحرير من عقده وأمراضه بنفس الدرجة التي تحتاجها المرأة للخلاص من استعباد الرجل لها.

ورأت أن العلاقة بين الجنسين ترتكز في مجتمعاتنا على ثلاث دعائم أساسية:

1 ـ مكانة المرأة الدونية ومفاهيم العفة والأخلاق.

2 ـ جهل كل من الجنسين بالآخر نتيجة محرمات الجنس.

3 ـ إعتماد المرأة اقتصادياً على الرجل (أب ـ أخ ـ زوج): هو واقع حالي للوصول إلى السياسة.

ج ـ د. فاطمة المرنيسي

عملت د. «المرنيسي» عالمة الاجتماع المغربية في كتاباتها على الاحتجاج على «التعقير اللغوي الذي عضت به كتب المثقفين العرب ومقالاتهم»..

إنها تدخل الرجل العربي مجال اللغة التي تريد المرأة أن تكتب بها لأنها الأقرب إلى الواقع، ولأن المرأة أكثر منه معاناة لهذا الواقع، وهي بذلك أقدر على خلق وسيلة جديدة للارتباط بالآخرين من خلال الكتابة/ الاحتجاج».

إنها تخاطب الرجل العربي المثقف الساعي إلى الوعي فتقول:

---

(1) المصدر نفسه. ص 146.

«كم من شهرزادات حاولن الحوار معك واستثمرن طاقاتهن في بناء جسور للتسلق اليك ومناجاتك مناجاة القرين لا العبد للسيدة، وأنت منعزل ببناء الثورة التقدمية خارج المنزل وخارج الفراش، في خلايا الحزب والنقابة والجمعيات النقابية، والمؤتمرات والأيام الدراسية، وحملات التوعية الشعبية والمؤلفات في الايديولوجيا والاقتصاد والتاريخ»[1].

مخاطبتها للرجل العربي الواعي لم تأت بهدف الوعي الثوري والممارسة التقدمية، ولكن لتسرب إلى كل مجالات الحياة لدى من يسعى وراءها واقتحامها... إنها مخاطبة لجميع الأنشطة والعلاقات التي يمارسها الرجل ولا سيما الجنس، وهو من أهم الأنشطة والعلاقات التي تعاطاها الانسان المتمزق جنسياً أو عاطفياً، برأي «المرنيسي»:

إن كل رجل عربي يستهلك الباغية في المساء، ويتحدث عنها في الصباح كأنها تجسد شيئاً منفصلاً عنه أو تمثل عالماً لا ارتباط له به... إنه رجل يعاني من اضطراب الوعي معاناة يستحيل تجاوزها في المجال السياسي مثلاً، فكون العربي يحن إلى الديموقراطية والمساواة ولا يتحرج من التناقض بين هذا السعي وتدعيمه للامساواة في سلوكه الجنسي (وان أدركه)، لهو ظاهرة من الظواهر التي يجب أن ننكب عليه نساء «أو رجالاً» ونقبل على تحليلها ونبذل المجهودات الجبارة لتجاوزها.

وربطاً، تحدّثت المرنيسي عن الوضعية السائدة في المغرب، ودرست نماذج في مجالات العمل النسوي فيه، ورأت أن عمل المرأة قد جمع ما بين الفاعلية والتهميش معاً. أما **الابداع** عندها ـ خاصة عند المرأة الفقيرة ـ فينبع من الاحتياجات اليومية؛ لأنه ضرورة اقتصادية ومتنفس ذاتي، تجد المرأة من خلاله فرصة لصنع ما تريده وإثبات ذاتها من خلاله.

وأكدت المرنيسي أن أزمة المثقف العربي هي أزمة القطيعة بين السياسة والجنس... وفي معالجتها للناحية القانونية / الشرعية لخضوع المرأة،

---

(1) د. فاطمة المرنيسي ـ السلوك الجنسي في مجتمع إسلامي رأسمالي تبعي. دار الحداثة بيروت 1982. ص 18 من المقدمة.

أشارت إلى الوسائل التي يجب اعتمادها لتغيير وضعها في مجتمع اسلامي معاصر فعلياً[1].

د - د. هشام شرابي

يرى د. شرابي أن **المجتمع العربي يقوم على اضطهاد الفقير واضطهاد المرأة**. ويستحيل أن يتغير المجتمع العربي ما دامت المرأة في وضعها الراهن فهي التي تصنع الانسان العربي. وعملية تحرير المرأة لا يمكن أن تتم إلا بتغيير علاقتها مع الرجل، هذا يعني دورها ومكانتها في العائلة. وللحصول على هذه الحرية وهذا الانعتاق، لا يمكن الاكتفاء بالقبول اللفظي لحقوق المرأة.

ويتوقف مصير هذا المجتمع العربي - برأي شرابي - على مقدرته في التغلب على نظامه الابوي واستبداله بمجتمع حديث. وينبثق مفهوم النظام الابوي من ازدواجية نظرية، فهو «يشير إلى نظامين مترابطين لا إلى نظام واحد، النظام الابوي التقليدي أو القديم، والنظام الابوي الجديد أو المستحدث. والنظام القائم في المجتمع العربي اليوم ليس نظاماً تقليدياً بالمعنى التراثي، كما أنه ليس معاصراً بالمعنى الحداثوي، بل هو خليط غير متمازج من القديم والحديث، من التراثي والمعاصر: نظام يختلف عن أي نظام آخر. . . .

إلا أن هذا التغيير لم يؤد إلى استبدال النظام القديم بنظام جديد، بل فقط إلى تحديث القديم دون تغييره جذرياً. فانبثق عنه النظام الابوي المستحدث. . . إن مفهوم التراث ومفهوم الحداثة يشكلان المقولتين التحليليتين الرئيسيتين لواقع التخلف العربي ونظامه الابوي المستحدث»[2].

ورأى شرابي أن حجر الزاوية في النظام الأبوي المستحدث، يقوم على استبعاد المرأة. من هنا كان العداء العميق والمستمر في هذا المجتمع للمرأة

---

(1) Mernissi. Beyoned the veil: Male-female dynamics in a Modern Muslim Society- (Cambridge, Mass: sehenkman Publishing co. p. 975).

(2) د. هشام شرابي - النظام الابوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت - 1992 - ص 15.

ونفي وجودها الاجتماعي والوقوف بمحاولات تحريرها، «إنه مجتمع ذكوري لا وظيفة فيه للانوثة إلا تأكيد تفوق الذكر وتثبيت هيمنته. . . من هنا كانت العقبة المركزية في وجه التغيير الديموقراطي الصحيح في هذا المجتمع. ففي غياب الرجل والمرأة يغيب مبدأ المساواة في المجتمع ككل»[1]. أكد شرابي على أن قضايا المرأة عُولجت من منظورين: محافظ واصلاحي. عمل المنطق الأول على معالجة الوضع السائد بشكل معلن والتصدي لأي تغير؛ أما المنظور الاصلاحي فلم يجابه المشكلات الاساسية التي تشابكت مع المسائل الدينية والقضائية. ومع «نوال السعداوي» و«فاطمة المرنيسي» لقيت مسائل تحرر المرأة، وخاصة قضية الجنس معالجة مفضوحة، إعتماداً على منهج عقلاني يختلف جذرياً عن المنهج البياني والسطحي السائد الذي يعتمده المصلحون والتقليديون.

والتغيير الذي ينشده «شرابي» في كتبه كافة وعبر كافة المقابلات التي حصلت معه، لا يأتي إلا بتبديل نوع العلاقة القائم بين الرجل والمرأة، وهي **عملية طويلة الأمد تشتمل على تربية تركز على المساواة بين المرأة والرجل في جميع مراحل عمره.**

هـ ـ غيرهم

عمل الكثير على موضوع المرأة وعلى قضية تحررها، ولن نتمكن من ذكرهم كلهم، لكننا نشير سريعاً إلى كل من طرابيشي وبو حديبة. . .

«جورج طرابيشي»[2] كاتب سوري، أعلن أن العرب ليسوا مئة مليون بل خمسين مليون فقط؛ لأن النساء يشكلن النصف المشلول عن العمل. كما درس الرواية العربية من خلال علاقة الذكر بالأنثى وعلاقة الشرق بالغرب في إطار نقدي تحليلي.

(وهجرة الذكور إلى الغرب كانت المثال وكيف كانت تبنى علاقاتهم مع الأنثى هناك).

---

(1) المصدر نفسه ـ ص 16.

(2) جورج طرابيشي ـ شرق وغرب ـ رجولة وأنوثة ـ دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ 1979.

أما «عبد الوهاب بوحديبة»[1] فأكد على أن التحرر الجنسي للمرأة لا يمر إلا عبر تحرير الرجل، فيتحقق الانسجام بين الاثنين، ويؤثر لاحقاً على المجتمع.

إن أزمة المجتمع الاسلامي - العربي هي أزمة فراغ مرجعي، فهو يتأثر بما تقدمه وسائل الاعلام الغربي من «مثال مستورد» لا ينفع أمامه الاسلام الحالي الذي لا يبدو بالنسبة للاجيال الحالية أنه يحمل الحلول. لذا دعا «بوحديبة» إلى أن التجديد في علم الدين الاسلامي أصبح ضرورة لا غنى عنها لاعادته إلى صفوف الشعب الاسلامي، خاصة وأنه - أي الدين - يقدم بحراً من المعارف التي يجب استغلالها واعادة توضيحها، خاصة وفي ما يخص المرأة والرجل وفيما يخص «الجنسية».

5 - التحولات الطارئة

خلق المجال المديني الجديد، حيث إنطلق دعاة تحرير المرأة، عدة تغييرات وتحولات في الأسرة الواسعة الممتدة الابوية التقليدية، إنعكست لاحقاً في المجال السكني، حيث بدأ التوجه نحو نواتية جديدة في الأسرة وإغراق في مسالك حديثة للمسكن وللزوجين، ورافق هذا التغيير تحولات في البنية الطبقية المجتمعية في الوطن العربي وفي الوظائف الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية، وتداخلت بين مختلف الطبقات الاجتماعية، بحيث يصعب علينا دراسة هذه البنية باستعمال مقاربة واحدة.

وقد قاد هذا الانفتاح المديني إلى تحول ولو جزئياً، لكنه عميق لوضعية المرأة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية مقابل مشاركة اقتصادية ضعيفة، كما كانت بمواجهة تقسيم جنسي حاد بينها وبين الرجل؛ وبمعتقدات خرافية وطوباوية (ترتبط إلى حد بعيد بطبيعة البنى العربية **الاقتصادية والاجتماعية** التي تتصارع وتتفاعل داخلياً). صارع الرجل وقاوم ورفض بالطبع كل ما من شأنه أن يؤدي إلى ضياع الامتيازات التي يتمتع بها وقوانين الأحوال الشخصية خاصة في مسائل الزواج والارث وغيره، وهذا كله يعود إلى الواقع

---

(1) A. Bouhdiba, La sexualité en Islam. P.U.F. Paris. 1979.

العربي الثنائي التوجه: المحافظ والمتحرر والذي أنتج ما سماه «هشام شرابي» «النظام الابوي المستحدث» الذي لم يطوّر النظرة إلى المرأة وتغيير ذاك التهميش في دورها رغم إيمانه بالمسؤوليات التي يمكن أن تقوم بها.

وزاد ارتباط هذا الواقع الاجتماعي والاقتصادي بواقع القهر النفسي للمرأة التي تجمع وضعيتها كل تناقضات المجتمع. وزادت هذه التحولات غير المحسومة على صعيد التغيير الاجتماعي، من مآزمها النفسية والنفس - جسدية، وخاصة لدى المرأة التي تنتمي للفئات المتوسطة، التي أربكتها التحولات الاقتصادية الطارئة، فضاعت هويتها وموقعها. وهذا ما ينطبق تماماً على وضعية المرأة اللبنانية التي نضيف إلى معاناتها الاجتماعية معاناة الحرب.

إن تحول غالبية سكان لبنان إلى سكان حضر ومدن أدى مع عوامل أخرى إلى تعليم المرأة (ووصولها إلى الجامعة) وعدم حصر عملها في نطاق الامومة والبيت، وحصر إلمامها بمستلزمات الحياة ومتطلباتها وتغيير أدائها الوظيفي ووعيها لأهمية الاستقلال السكني مع زوجها (مقارنة بالعادات القديمة والسكن الجماعي الذي تبع نمط الاسرة التي ينتمي اليها).

ويعزى هذا التحول - في كثير منه - إلى تأثير الثقافة الغربية، حيث أن الكثير منهن ينظرن إلى هذه الثقافة كقاعدة أساسية يُبنى عليها التحرر. كما يبدو أن الأسرة المدينية من الطبقتين المتوسطة والدنيا، كانت على استعداد للسماح - قبل غيرها - لبناتها بدخول المدارس وبمتابعة دراستهن في الخارج[1]. ويمثل ولوج المرأة المجال الأكاديمي إنجازاً عظيماً يضع شكلاً من تحررهن الذاتي وفرض حضورهن المهني الذي يثبت أنفسهن وكفاءتهن التي لا تقل عن كفاءة الرجال في الوصول إلى المواقع الاجتماعية التي كانت حكراً على الرجال. إن النساء عامة راضيات عن وضعيتهن وعن مكانتهن، خاصة في المجال الأكاديمي، وحسب دراسة أجريت مؤخراً[2]».

إلا أن التوزيعات القديمة بين الرجال والنساء لم تغب تماماً، وارتبط ذلك بمستوى التحصيل الثقافي والعلمي للزوجين وبالمهنة وبالاجواء

(1) د. محمد صبور - مرجع سبق ذكره.

(2) المصدر السابق.

الاجتماعية العامة. ولقد طغت الطفرة الاقتصادية في لبنان وغيرت ـ ربما سطحياً ـ الكثير من الأدوار القديمة. ومما عزز هذا التغيير التقسيم المساحاتي الجديد للداخل، للمسكن. واختلف واقع الوحدة السكنية أو البيت الزوجي، وبدأت الزوجة بتغيير زاويتها (التي تحولت من الخفي الخجول إلى الظاهر المؤكد)[1]، وببسط نفوذها فيه، وغيرت حجمه وعدد غرفه، **وقللت من كثافته**، وبدأت بوعي مفهوم جديد لذاتيتها ولجسدها بداخله.

وكانت المساحة المفتوحة في البناء الحديث قد مكنت من الاتصال النسائي، وعملت على قلب محور الخفي ـ الظاهر بعد أن كانت مبنية على استراتيجية الخفاء والظل، وطرح السؤال حول مدى مشاركة المرأة في عملية البناء وفي تقييم هذا البناء، ليس فقط في المطبخ وحده (ولا ننسى أن للتحليل النفسي دوراً في إخراج الكلام ـ عندنا وليس فقط في أوروبا ـ عن الجنس والجسد والمتعة واللذة إلى العلن).

وبدأ بعض الرجال يشارك في أعمال المطبخ (زوجي يحب أن يحضر بنفسه هذا الطبق، كما يمكن أن نسمع من أحد النساء حالياً)... رغم أن المطبخ ومنذ القديم، يتطلب أعمالاً رجالية مقابل أعمال أنثوية كتحضير أمور الشواء واللحم.

وتحسنت نسبياً سياسة التعليم (مكافحة الامية والتعليم الابتدائي) والتربية التي قادت بدورها إلى تحسين نسبي في الثقافة والعمل، ففتح أمام المرأة باب مهن أخرى أقل تقليدية (كأمور الصحة والخدمات الاجتماعية وغيرها...).

أرفق تعليم المرأة وتثقيفها بثورة الايديولوجيات الثورية التقدمية في العالم العربي، والتي نشأت مع بدء الستينات، والتي أطلقت عنان كتابات وأبحاث تخص المرأة، والتي أرفقت بأيديولوجيا نسوية «تحريضية» (ككتاب نوال السعداوي مثلاً)، وعلى التأكيد بأن المستجدات العلمية قد أظهرت: أن البيولوجيا الذكورية والأنثوية هي اختلاف وليس تمايزاً وتفاضلاً، وان التكامل بين الجنسين هي أهمية مطلقة.

---

(1) أصبحت زاويتها: كرسياً هزازاً أو مقعداً مستقلاً ومريحاً تضعه في الغرفة الاساسية أو في الحديقة أو غيرها.

ورغم ذلك كله، فما زال الكثير يرفض عمل المرأة؛ لكن الوضع الاقتصادي الحالي في لبنان حدا بالأهل وبالزوج إلى الركون لعمل ما وإلى نزول المرأة إلى ميدان العلم والعمل لتخفيف عبء المسؤولية، فانتقل ميدان العمل من الزراعة، (خاصة زراعة التبغ في عينة الدراسة) إلى المصانع والمعامل.

ومع بدايات القرن العشرين والانفتاح على العالم الآخر، بدأ يتشكل بروز أسرة نواتية اعتبرت من أرقى أشكال الأسر التي تحققت حتى الآن. وكثر الاقتداء بالنمط الأوروبي، واستبدلت نماذج من المجتمع إلى نماذج في المجتمع. وما من شك أنه كان لهذا التحول أثره على المتزوجين وعلى وظائفهما وأدوارهما (كالجلوس معاً على المائدة ـ المشاركة في العمل وفي القرار وفي تربية الأولاد الخ...).

إلا أن الحرب اللبنانية أعادت نمط الاسرة المتحولة، بعد ظهور الأسرة النواتية، وذلك لمستجدات أمنية واقتصادية وأحياناً أخرى سياسية.

هذا وتأثرت المرأة اللبنانية بهذه الحرب، فحملت حكماً صفة **«المهجرة»** و**«المهاجرة»**[1]، خاصة أن عمليتي ترييف المدينة وتمدين الريف في لبنان، أدّتا بدون شك إلى سلوك نفساني اجتماعي. ورغم أن هذا الوضع (من ترييف وتمدين)، هو وضع غير مستقرٍ وثابت، «إلا أنه يبرز في حياة المرأة اليومية وما يفرض عليها من تكيف ومواجهة، من حزن ومُن صمود، فهي «الأم الحزينة» و«المرأة الباكية»، وهي أحياناً المهجرة المشردة التي فقدت بيتها، وأحياناً زوجها، أو أخاها أو أحد أبنائها... وهي أيضاً الركن الأساسي في المنزل، تؤمن الغذاء والكساء والمسكن للأطفال، وتجلب المياه، لأن أماكن سكن المهجرين تفتقر اليها... كما أنها تكافح أمام الافران للحصول على الرغيف[2]».... فكانت المعاناة وصعوبة العيش، وليس مع المرأة المهجرة فقط. وكانت ضرورة الخروج من الداخل إلى الخارج ليس لضرورة خلقتها

---

(1) د. علي فاعور ـ تأثيرات الهجرات الناجمة عن الحروب على أوضاع المرأة ـ دراسة لحالة لبنان ـ المستقبل العربي ـ عدد 136 ـ 1990.

(2) المصدر نفسه ـ ص 108.

تغييرات مدينية بقدر ما كانت هي ضرورات معيشية، وتلبيتها لم تعد تقتصر على الذكورة.

من ناحية أخرى، كثرت **نسبة العازبات** أمام صعوبة العيش وعدم الاقتناع بالخيار الأوحد المتوافر، ووعت المرأة الحقائق التي تحكم موضوعياً طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وأصبحت أكثر وعياً لحاجاتها ولطبيعة وحقوق جسدها في علاقتها مع الرجل(1).

وكثرت الحركات النسائية في لبنان التي عبرت عن واقع الرفض، وهو رفض لواقعها ولقوانينها، باسم الحداثة للاكراه التاريخي الممارس عليها.

كما **تقهقر** مبدأ **تعدد الزيجات** ومبدأ **الزواج الداخلي** endogamie، بعد أن كان قاعدة متبعة، ويكاد أن ينمحي في لبنان، حيث اتسعت ظاهرة الزواج المختلط، وبدأت فكرة الزواج المدني تتكاثر بعد التمازج بالغرب وبعد التداخل الطائفي(2).

إن المشكلة اليوم، ليس التحرر فقط. لقد طالت الحداثة وجوهاً متعددة من حياتها اليومية، ولقد اختلفت المرأة فيها من الاستلاب البيولوجي الايديولوجي، لكن ليس على المستوى العاطفي العميق، فأتت مستويات التحرر بانعتاق من الاستلاب البيولوجي وبمسألة نسبية للمستوى الايديولوجي حسب درجة الوعي الطبقي، يقابله رضوخ للمستوى العاطفي. إن الصعوبة هي صعوبة المرجعية التي لم تتثبت بعد، خاصة لدى المرأة الجنوبية، بعد اهتزاز صورة المرجعية السائدة التقليدية في لا وعيها.

المطلوب اليوم، هو التكامل بين المرأة والرجل؛ لأن أزمة المرأة تعبر عن أزمة المجتمع كله، في مشاركة المرأة **الفعالة** في العمل والسياسة والقوانين والقرار، وتسييس قضيتها واعتماد المساواة الفعلية في تبوء المراكز القيادية في

---

(1) د. عباس مكي ـ حول واقع المرأة اللبنانية ـ مجلة الأبحاث التربوية ـ عدد 1.
(2) إستناداً إلى:
أ ـ د. زهير حطب ـ تطور بنى الأسرة العربية ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1980.
ب ـ رجاء مكي ـ الزواج من أجنبيات في لبنان، بحث أعد لنيل شهادة الجدارة في العلوم الاجتماعية ـ بيروت ـ 1980.

الدولة والبحث في إيجاد قانون مدني اختياري للاحوال الشخصية، يسعى لتثبيت المرجعية ولتقليل التشعبات والتناقضات والأمراض النفسية أيضاً.

يجب العمل وبشكل جدي على مشاركة المرأة في العمل السياسي؛ لأن هذه المشاركة هي فعالة وأساسية، ويجب ألا تعتبر المرأة أن عملها ونضالها داخل الحركات النسائية هو الحل، بل يجب إشراك الرجل في مطالبها وفي مشاريعها.

لقد طالب د. شرابي وبإصرار، بإحداث تغيير في الوعي الاجتماعي، وهي مسؤولية تقع على عاتق المثقفين الذين عليهم أن يخلقوا وعياً، وأن يغيروا في طريقة كلامهم عن المرأة، وعليها هي بدورها أن تحضر وأن تتواجد في مختلف النشاطات والمجالات[1] .....

السؤال المطروح الآن:

هل إنّ ما بدأت المرأة بالحصول عليه جزئياً على صعيد الواقع المعنوي، هو حاصل فعلياً على صعيد الواقع الشكلي أي على صعيد البناء السكني؟ هل يعكس استغلال المساحة الحديثة واقعاً جديداً للمرأة؟

ولكن من هو الذي يبني؟ هل هو من الفئة الميسورة أو فئة الامتياز؟ من هي هذه الفئة الميسورة حالياً؟

فإذا كان موضوع البناء هو موضوع تباهٍ أكثر مما هو توزيع جديد للادوار، وإذا كان بحثاً عن الغنى (خاصة إذا حصل بشكل مفاجئ)، فإن حقوق المرأة الأساسية لا بد أنها ستضيع مجدداً، ولا بد من أنها تقترب من صورتها القديمة وتبتعد عن الحديثة.

تنبع تساؤلاتنا هذه ـ والتي ستجيب عنها الدراسة الميدانية ـ من الانطلاق بأن المساحة الداخلية تطرح مسألة المكان الخارجي للشخص، وكيف أنه يقيم حدوده من خلال محيطه ومن خلال معطيات هذا المحيط، فتتمخض المساحات النفسية عما هو مقدم لها من تشكيلات، تصبح لاحقاً حقيقية نفسانية. إن إدراك المجال والمساحة أمر مرتبط مباشرة بأمور التربية وبوعيها.

(1) حوار مع د. شرابي في جريدة النهار ـ عدد 18272 ـ الاثنين 6/ 7/ 92.

وعلاقة كل فرد مع المجال المبني هي علاقة ذاتية مربوطة بتاريخه العاطفي والاجتماعي وبانتمائه لمجموعة ولحضارة ما[1].

(1) M.Eleb. Espaces des autres. lectures anthropologiques d'architectures. collet. penser l'espace- éd. de la villette. Paris 1987.

الفصل الثامن

منطقة جبل عامل

طغت تسمية «جبل عامل» على جنوب لبنان. لأن في التمسية متغيراً طائفياً، إذ أن أغلب سكانه هم من الشيعة.

يطول الحديث عن جنبل عامل، ويتشعب خاصة أنه عرف من الخصوصيات التاريخية والفكرية والايديولوجية قفزات وتنوعاً جعلا الكلام عنه يطول ولا يتحدد، ولكن لا يهمل. فمنذ بداية عهد الاستقلال والانسان يواجه هناك منفرداً مشكلات الطبيعة والسياسة والتعامل معها بوسائل محددة. ولقد ازدادت خصوصية جبل عامل نتيجة موقعه الجغرافي بجوار اسرائيل، وما يترتب عن هذا التجاور من أطماع ولا استقرار واختصار في المشاريع التنموية؛ مما أدى إلى نزوح وهجرة الكثير من أبنائه (الذين عاد أكثرهم حالياً، وقام بتلك الطفرة العمرانية، وتسبب بهذه المظاهر التي تشهدها قرى الجنوب).

تخضع جغرافياً عينة البحث التي تتحدد بالطريق الممتدة من الزهراني حتى النبطية، لما يسمى جبل عامل. وسنورد في هذا الفصل بعضاً من النقاط التي نراها مهمة، والتي تدخل في تحديد الاطار العام للدراسة، ولن نخوض في التفصيل.

I - تسمية جبل عامل

تعود تسمية «جبل عامل» إلى قبيلة «عاملة» المهاجرة من اليمن منذ 300 سنة قبل الميلاد، والتي سكنت المنطقة الجبلية، بحيث أطلق عليها إسم «جبل عامل». إن الجنوبيين اللبنانيين هم إذا من بني عاملة، الذين هاجروا من جنوبي اليمن، ثم استقروا في الجبل الجنوبي، فعرف باسمهم «جبل عاملة»، وتخفيفاً «جبل عامل». أما تسمية الجنوب اللبناني، فتعود إلى عام 1918 م،

حين احتل الفرنسيون البلاد، وألقوا بثقلهم في تقطيع أوصال الشام، فأوجدوا ما أسموه «لبنان الكبير» في العشرينات، وضموا اليه طرابلس وجبل عامل، فعرفت الأولى مع الانحاء القريبة منها والمحيطة بها باسم محافظة الشمال، وعرف الثاني بمحافظة الجنوب.

ويمكن القول أنه في الفترة الواقعة بين الاستقلال وأوائل السبعينات كان استعمال عبارة «جبل عامل» يتناقض باطراد لمصلحة جنوب لبنان، ثم بعث هذا الاستعمال مع تفاقم الانقسام في المجتمع اللبناني وبنهوض العصبيات الطائفية.

II - موقع جبل عامل وتقسيمه الاداري

«جبل عامل» منطقة واسعة تزيد مساحتها عن 2000 كلم^2، أي ما يوازي تقريباً (14، 19٪) من مساحة لبنان، ويقدر عرضها بـ 40 كلم وطولها بـ 80 كلم.

تنقسم بلاد جبل عامل قسمين: جنوبي وشمالي، وقد الحق قسم وافر منه بجبل عامل كجزين وجبل الريحان[1].

تبدو في جبل عامل، الجغرافيا هي مساحة الصراع والحدود. والتقارب مع العدو الاسرائيلي ينتج سلسلة حلقات، هدفها فك العلاقات على كافة أنواعها من خلال:

«- ضرب علاقة الانسان بأرضه وبأدوات انتاجه.

- ضرب علاقة مجموع المنطقة المحتلة بالوطن الأم.

- ضرب علاقات المجموعات السكانية بعضها ببعض.

- ضرب علاقات الافراد في ما بينهم.

- نسف نظام القيم الذي شكل تاريخياً الوعاء الايديولوجي واللحمة المتينة لعلاقة الفرد. ويمكننا تسميته بيئة المجتمع على كافة مستوياتها التحتية والفوقية. لقد اتبعت اسرائيل مجموعة من التكتيكات المتناسقة والمتداخلة،

---

(1) السيد محسن الأمين - خطط جبل عامل - الدار العالمية - بيروت 1983. ص 61.

والتي يساند كل منها الآخر: الارهاب الامني، العزل عن المركز وتقديم البدائل، التغيير الديموغرافي (التهجير والتطبيق)، تدمير الانتاج المحلي وربطه بحاجاتها، خلخلة نظام القيم ونسق الاخلاق العامة، القضم الخ...»[1]

أما بخصوص تقسيمه الاداري، فإنه قبل 23 أيلول 1975، كان جنوب لبنان محافظة واحدة. وفي هذا التاريخ صدر قانون رقم 36/ 75 بولادة محافظة ثانية، وفصلت النبطية وقراها إلى محافظة خاصة، يمكنها أن تلبي الاحتياجات الجديدة المتمثلة بالتطور السكاني والعمراني، وسميت «بمحافظة النبطية»؛ لأن محافظة الجنوب هي محافظة واسعة المساحة، كثيفة السكان وكانت تضم سبعة أقضية[2].

1 ـ محافظة الجنوب = قضاء ← صيدا ـ الزهراني
قضاء ← جزين
قضاء ← صور

2 ـ محافظة النبطية = قضاء ← بنت جبيل
قضاء ← حاصبيا
قضاء ← مرجعيون
قضاء ← النبطية[3]

هذا بالنسبة إلى تقسيمه الاداري الحالي. أما طبيعة أرض الجبل العاملي فهي منبسطة، تشمل هضاباً متعددة، وأودية سحيقة، وجبالاً عالية، وفيه سهول داخلية وساحلية عندها أنهار وجداول. وفيه قلاع عديدة، ومقامات كثيرة للأولياء والصالحين. ففي جبل عامل اليوم أكثر من عشرين قرية تبدأ بكلمة دير، كثير من هذه المقامات عائد إلى ديانات مختلفة وعديدة، تشير إلى أن هذه البقعة كانت موطن حضارات قديمة[4].

---

(1) السفير ـ السبت 21/ 7/ 1990 ـ ملف الجنوب.

(2) من مقابلة أجريت مع محافظ النبطية السابق الاستاذ حسين قبلان بتاريخ 19/ 3/ 1990.

(3) فيه العديد من القرى الواقعة تحت الاحتلال الاسرائيلي، ولثلاثين قرية في هذا القضاء مجالس بلدية.

(4) د. محمد كاظم مكي ـ الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل ـ دار الاندلس ـ بيروت 1982 ـ ص 12.

III ـ تاريخ جبل عامل

هي لمحة موجزة نوردها هنا؛ لأن كل الاستعمالات اللاحقة للمجال وللتخطيط المديني تأثرت بالواقع وبضغوطه.

ولم يكن بوسع العامليين إقامة دولة ذات سياسة وأنظمة، يتشكل عنها بعد ذلك تاريخ سياسي مستقل، ولكن الذي يلقي عليه التاريخ ضوءاً فيبدو واضحاً هو أن العامليين استطاعوا مؤخراً الاحتفاظ بمقاطعاتهم ردحاً من الزمن في ظل مشايخ اقطاعيين يؤدون للسلطات العليا التي تحكم سورية «مراسم الولاء بالطاعة ودفع الجزاء»[1].

منذ حلت عاملة بر الشام، كانت موالية لدولة الروم. وبعد الفتح الاسلامي أصبحت هذه البلاد جزءاً من جزء فلسطين. وتولى الفتح العناية بالسواحل اللبنانية للحاجة اليها في الفتوحات البحرية... كما كانت أراضي الجبل وسواحله «مسرحاً لمعارك عديدة نصرها سجال بين العرب والصليبيين حتى سنة 584 هـ ـ 1188 م، يفتح فيها السلطان صلاح الدين تبنين وهونين بالامان، وكذلك شقيف أرنون وصفد. وتتالى بعدها الحملات الصليبية والقلاع العاملية تبقى هدف ضرباتهم»[2].

في سنة (922 هـ ـ 1516 م) أصبح جبل عامل كسائر المناطق الشامية داخلاً في حكم العثمانيين.

ولقد عانى الجبل في هذه المرحلة مشاكل اقتصادية خطيرة، خاصة إبان الحرب العالمية الأولى، ففرض الحصار البحري على الموانئ اللبنانية؛ مما أدى إلى نقص في التصدير والاستيراد وفي نقص للقدرة الشرائية أيضاً وأجبر الحكم التركي آنذاك الناس على التعامل بالعملة الورقية لتغطية نفقات الحرب التي كانت تصدر بدون تغطية ذهبية، مع الاشارة إلى أن الدولة العثمانية كانت تجمع الضرائب بالليرة الذهبية، فخسرت قرى وبلدات جبل عامل ثروتها الذهبية، وازداد الجوع والفقر إضافة إلى انتشار الجراد والتجنيد الاجباري.

---

(1) المصدر نفسه ـ ص 18.

(2) المصدر نفسه ـ ص 19.

وطبعت علاقة العامليين بالسلبية بشكل عام، خلال هذه الفترة، فعاشوا في إطار عصبيات مغلقة.

ورغم الحكم العثماني، لم يعرف جبل عامل نظاماً اقطاعياً لملكية الأرض كالذي عرف آنذاك في جبل عامل؛ لكنه عرف نظام المقاطعجية الذين مثلوا أكبر عائلات المنطقة، والتي تعود اليهم ملكية الأرض وحدها، فلقد حكم السلطان بواسطة العائلات وابنها الأكبر تحديداً.

من ناحية أخرى، ثمة حقائق تاريخية «تؤكد أن جبل عامل كان على علاقة وثيقة بتاريخ المقاطعات الفلسطينية كصفد ونابلس وعكا والحولة وغيرها، وكان أكثر ارتباطاً بها منه «لجبل لبنان» أو بالامارة المعينة ثم بالامارة الشهابية. ويتهم بعض مؤرخي جبل عامل السلطنة العثمانية منذ بدايات حكمها لهذه المنطقة، أنها حاولت على الدوام إخضاع جبل عامل لسلطة أمراء جبل لبنان. وكانت نتيجة ذلك أن كثرت الانتفاضات الأهلية في جبل عامل في محاولة للتملص من السلطة المركزية للأمير المعني ثم الشهابي»[1].

جاءت هذه الحروب والثورات دفاعاً عن الاستقلال الذاتي لجبل عامل. إلا أن عدد الانتفاضات والهزائم التي مني العامليون بها في حروبهم المتكررة، ومنذ وفاة فخر الدين المعني الثاني حتى مطلع القرن التاسع عشر، «تدل على «حجم الخسارة التي لحقت بالفلاحين وباقتصادهم البسيط، فتحولوا إلى مجموعات كبيرة من أشد فلاحي لبنان فقراً في تاريخه الحديث»[2]. من أبرز هذه الانتفاضات: معركة أنصار 1638 م، معركة عيناتا عام 1660 م، ومعركة النبطية 1666 م، ومعركة وادي الكفور 1667 م، ومعركة النبطية الثانية 1707 م، ومعركة أنصار الثانية 1743 م الخ...[3]...

ويرى د. مسعود ضاهر في كتابه، «الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعجي» إن الزعامة المقاطعجية في جبل عامل قادت فلاحيه إلى معارك دامية ومستمرة ضد الامراء المعنيين والشهابيين وضد الولاة المجاورين.

---

(1) د. مسعود ضاهر. الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعجي - دار الفارابي - بيروت 1988 - ص 43.

(2) (3) المصدر نفسه - ص 44.

فتأخرت انتفاضات فلاحي جبل عامل في بلورة قيادتها الفلاحية كما في جبل لبنان؛ لكنه رغم الاختلاف في جوانب تفضيلية من الصراع المقاطعجي الذي دار على أرض جبل لبنان، «فإنَّ نتائج الانتفاضات أو العاميات الفلاحية الأولى في جبل عامل واحدة، إذاً لم يحصل تغيير جذري في أوضاع الفلاحين؛ لأن قيادتهم ما تزال مقاطعجية[1].

لقد كانت مرحلة حكم الجزار أكثر الفترات دموية في تاريخ المقاطعات اللبنانية وفي تاريخ جبل عامل، إذ قتل فيها مئات الامراء والمشايخ والاعيان، وتعرضت لحملات منظمة من الابتزاز والبلص والمصادرة وإطلاق أيدي عساكر الارناؤوط والمقاربة ضد فلاحي جبل عامل... لقد خطط عهد الجزار لافقار القوى اللبنانية المسيطرة والمنتجة على السواء، وضبط الاملاك (قسم كبير من بساتين صيدا ومطاحن جبل عامل وكروم الزيتون فيه)، وتعرضت قرى العامليين باستمرار للنهب والسرقة والتعديات من جانب الجزار، واعتقل الكثير من الشباب العاملي وألقوا في سجون الجزار[2].

وفي غياب القيادة المقاطعجية العاملية لم يبق إذاً أمام العامليين سوى تشكيل العصابات أو الفرق الصغيرة: إنها عصابات فلاحية أولى في جبل عامل «لا تختلف في كثير من سماتها وأعمالها من عصابات جبل عامل وسائر المقاطعات اللبنانية. فاستمر نشاطها سنوات طويلة ولعبت دوراً هاماً في نهاية العهد العثماني وفي بدايات عهد الانتداب الفرنسي»[3].

لم يقبل العامليون بالانتداب الفرنسي، ونقلوا موقفهم إلى لجنة «كينغ كراين» عام 1919 م الملخص بأنهم لا يرضون بغير استقلال سوريا بقسميها الجنوبي والغربي (لبنان وفلسطين)، ولا حق اطلاقاً كما تدعيه فرنسا في أية بقعة من سوريا. وكانت تتأثر العلاقة مع جنرالاتهم ومنهم الجنرال غورو لدى زيارته للنبطية في أواخر شباط 1920 م. ونشطت عصابات الثوار ووجهت عملها ضد الاحتلال وكأنها استمرار للحركات الأولى، نذكر من هؤلاء الثوار: «صادق حمزة» و«أدهم خنجر» اللذين ربطتهما علاقة ود وصداقة «بحسين بك

(1) المصدر نفسه ـ 49.

(2) (3) المصدر نفسه ـ ص 53.

الدرويش» صاحب قصر «آل الدرويش» في «زفتا» إحدى قرى العينة، لدرجة أن الجنرال غورو أتى بنفسه إلى «زفتا» كي يحلّ مشكلة «أدهم خنجر» وثورته وكمائنه، فما كان من النساء،إلا أن أتين إلى القصر وزلغطن لنصرة «أدهم خنجر»[1].

وبعد خلق لبنان الكبير، بدأت الملكية الخاصة للأرض تتأسس في لبنان الجنوبي، إذ أعطى الانتداب المقاطعجية حق التصرف بالأرض، وانتفعت العائلات الكبيرة بالأمر؛ إلا أن هذا لم يكن كافياً، ولم يسمح بالتمتع بكامل المحاصيل لعامة الشعب الذي عانى من اللاعدالة الاجتماعية ودفع الضرائب مقابل جزء صغير له؛ مما ساعد وحمل على الهجرة.

وماذا عن عهد الاستقلال؟ نعمت منطقة الجنوب، بعد الاستقلال، بإمدادات الكهرباء والمياه الجارية وبشبكة طرق، وبدأت التجارة تنشط نسبياً مع بدايات صناعية كانت تنشأ. . . لكنه ومن ناحية أخرى، حوّل الاقطاعية إلى إقطاعية سياسية مقابل تجاهل مستمر للاعتداءات الاسرائيلية بعد قيام الكيان الصهيوني.

تطورت المدينة إبان الاستقلال، وفتحت أبواب الهجرة اليها، وكان السكن في الاحواش لتوفير الماء. ويعود أغلب المهاجرين اليوم إلى قراهم لتطوير منازلهم وللقيام بأعمال فردية تغير من وضع الحرمان السائد.

إلا أنه، ومع دورة الأيام وتغير الأحوال، طرأت تبدلات جوهرية على علاقات الانتاج الزراعية، فقد «تفتتت الملكيات الواسعة بحكم عدة عوامل، أهمها تعدد الوارثين، إلى ملكيات ما زال بعضها كبيراً نسبياً، كما برز على الساحة ملاكون كبار جدد بشقيه الاغترابي والمحلي مع غلبة واضحة للشق الأول. كذلك حل العامل الزراعي مكان الفلاح المرابع، وانتشرت الملكيات المتوسطة والملكيات الصغيرة بدل البورجوازية الكبيرة التي يقوم أصحابها باستثمارها كأسر يشارك معظم أفرادها في عملية الانتاج في ظل انتظام علاقات انتاج وسوق رأسمالية أصبحت هي النمط الشاسع»[2].

---

(1) حسب ما ورد في مقابلة مع أحد أحفاد «حسين بك الدرويش»، السيد «حسين الدرويش» الذي ورث القصر في «زفتا»؛ أجريت المقابلة بتاريخ 10/ 11/ 92.

(2) السفير ـ السبت 25/ 8/ 90 ـ ملف الجنوب.

IV ـ حول إقتصاد جبل عامل

إن التخلف والحرمان الحاصلين في المنطقة لم يكونا نتيجة صدمة، ولكنهما تجذراً عبر الحقبات السابقة من التاريخ ومنذ الاحتلال العثماني. لقد نتج عنه واقع اقتصادي واجتماعي مرير، ارتبط بنظام رأسمالي مركزه بيروت، واعتمد اقتصادياً وبشكل مثير للانتباه على الأسواق التي تقام مرة في الأسبوع في المدينة (مدينة مجتمع القرى)، حيث يتوافد السكان من القرى وهم من أصحاب الانتاج المحدود ليعرضوا انتاجهم (نذكر من هذه الأسواق: سوق النبطية وسوق بنت جبيل من أيام العثمانيين، وقد كانا مركزين لمحطات القوافل). وأكثر تجارة هذه الأسواق الحبوب والماشية. وما زالت الفكرة سارية المفعول حتى اليوم، لكنها تتضاءل أمام انتشار اقتصادي أكبر للمؤسسات والدكاكين (كسوق الاثنين في النبطية).

كما اعتمد جبل عامل في اقتصادياته على موانئه، خاصة موانئ صيدا وصور التي كانت ترسو فيها البواخر التي كانت تنقل الحبوب وتجلب البضائع[1].

لكنه وفي فترة الاحتلال الفرنسي صارت كل البضائع تنقل إلى بيروت، ومن بعدها تنقل في السيارات إلى المناطق التي أصبحت تعتمد على زراعتها الخاصة، فاستغنت عن استيراد الحبوب.

وكمورد رزق أساسي وكمرفق اقتصادي لهم، يعتبر نهر الليطاني (طوله 160 كلم) الأهم في جبل عامل، يليه نهر الأولي، ونهر الزهراني (الذي يمتد على طول قرى عينة الدراسة)، ونهر الحاصباني ونهر الوزاني.

من أهم الزراعات التي تنتشر فيه:

زراعة التبغ[2] التي انقرضت، والتي كانت لها الأهمية الكبرى في محافظة النبطية، حيث كانت تحتل 18360 دنماً أي حوالي 14٪ من مساحة الأرض الزراعية. ومما ساعد على سرعة انتشاره هناك، توافر تربية طينية رملية

(1) السيد محسن الأمين ـ خطط جبل عامل ـ الدار العالمية ـ بيروت 1983 ـ ص 171.

(2) ميشال مرقص ـ زراعة التبغ في لبنان. دراسة أعدت لنيل شهادة الجدارة في العلوم الاجتماعية ـ بيروت 1974 ـ ص 37.

معتدلة الاندماج والرطوبة والعميقة الغور، وتوافر الشروط المناخية الملائمة لمثل هذا النوع من الزراعة، حتى أصبح التبغ المصنوع يحتل مركز الصدارة في الانتاج الزراعي (في الستينات وأوائل السبعينات) إلى «بعد الحمضيات والزيتون والتفاح؛ فأمّن لمئات المزارعين والعمال والعاملات عملاً متواصلاً مثمراً. وصلت نسبة العاملين في هذه الزراعة (حتى أواخر السبعينات)» ما يزيد عن 160 ألف عامل وعاملة، على اعتبار أن هناك ما يقارب 29 ألف مزارع أو أصحاب رخص يتراوح عدد العاملين في الرخصة الواحدة ما بين 8 و10 عمال يغلب عليهم العنصر النسائي، إذ يتراوح عددهن ما بين 100 إلى 125 ألف عاملة».

عملت الاسرة الجنوبية بكامل أفرادها في عملية زراعة التبغ بكافة مراحله، حتى قيل أنها «زراعة بيتية». وكان هذا العمل هو المركز الأساسي في حال تواجد الملكية الصغيرة. أما في حالة الملكيات الكبيرة، فكان يقوم بها عمال وعاملات يتعاونون منذ الفجر على زرع التبغ وعلى قطفه وتوضيبه.

وارتبطت زراعة التبغ بالمرأة التي اعتبرت عنصراً فعالاً فيها، إذ تركز دورها في أصعب عمليات هذه الزراعة (خاصة القطاف)، مقابل أجر زهيد لا يوازي إلا جزءاً «يسيراً» من تعبها وإرهاقها والوقت الذي تصرفه في عملها مقابل ترك أسرتها. فتوزعت الأدوار الاجتماعية من جديد بين الجنسين في هذا النوع من الزراعة: فكان دور التابع المنفذ هو دور المرأة، ودور الاداري المصمم هو دور الرجل.

ونادراً ما كانت «امرأة التبغ» هذه متعلمة، لا بل انه ـ ونظراً لمستوى معيشتها المتدني ـ كان العمل في التبغ هو مجال العمل الوحيد في ظل غياب مجالات عمل أخرى كالصناعات مثلاً.

طرحت زراعة التبغ في الجنوب مشكلة اقتصادية مهمة، مشكلة الملكيات الكبيرة، فليس كل من يملك أرضاً تزرع بالتبغ هو مزارعاً، فهو قد حصل عليها إما بالارث أو بالشراء. ولما كان كبار المزارعين لا يعملون بأيديهم، بل بواسطة الشركات والمرابعين،. ينتج عن ذلك علاقة طبيعته بين المالك والمرابع، والأرض تورى اقتصادياً بالمالك والمرابع والارض وتهدد اقتصاديات الدولة بالبوار.

فنوع ملكية الأرض هو الذي حكم العلاقة بين الفلاح والمالك؛ مما ساعد على زيادة الهجرات إلى المدينة أو إلى الخارج لتحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي. كما أن اعتبار زراعة التبغ يدوية غاب عنها العنصر الآلي ساعد على مزيد من التطلع خارج القرية والمحافظة والقضاء، لتوفير عيش أفضل ولتأمين ارتقاء اجتماعي منشود...

وكانت التحولات الطارئة في المجال العام (من هجرات وأسفار وتقدم في المواصلات وفي وسائل الاعلام وفي المطالبة بوعي الفتاة وتعليمها... الخ)، قد دخلت لتغيّر في زراعة التبغ وتقللها حتى غزت المدينة الريف، وقضت على هذا النوع من الزراعة مقابل نمو مطرد لنشاطات أخرى.

تعمل الدولة حالياً ممثلة «بإدارة حصر التبغ والتنباك» ـ الريجي ـ، لعودة هذا القطاع إلى الانتاج على إغراء المزارع وإعطائه المزيد من التسهيلات التي ما زالت بحاجة لدرس ولتخطيط لاعادة جذبه إلى أرضه وإلى محصوله، كما كثرت الوعود بتحويل بعض المناطق المزروعة بالتبغ إلى أشجار لوزية مثل المشمش والكرز واللوز والدراق والاكدينيا، قد تعطي دخلاً ومردوداً أكثر إرتفاعاً من زراعة التبغ حالياً.

من زراعات جبل عامل الحالية: الحبوب، الحمضيات، الموز، الشتول في الخيم البلاستيكية، والتي تواجه مشاكل شتى، أهمها الكلفة وعدم التخطيط لها.

أما المواشي فكانت تربى بكثرة من أبقار وأغنام وماعز، وكانت تستغل ثروتهم الحيوانية. وربي الدجاج كنوع أول من الطيور، إضافة إلى تواجد الخيل آنذاك في جبل عامل.

ويعرف الجنوب اليوم بحبوحة اقتصادية، إذ قامت الكثير من المصانع والمشاغل التي أنتجت العديد من السلع، وانتشرت زراعات خيم النايلون، ونشطت المرافئ والحركة التجارية بعد التأثر بالحرب اللبنانية، وبعد توافر الرساميل (توظيف وعمل، زادها حدة عامل الانتماء، وكثرت أموال المغتربين، وتحولت الملكية الزراعية إلى أشكال من الاستثمار والمضاربة وتنشيط الخدمات وتدفقت الرساميل التي لا تتناسب كميتها مع قدرة السوق المحدودة). وبغياب المؤسسات الموجّهة كثرت التوظيفات القصيرة الأمد؛ مما أدى إلى فوضى عجيبة في ميدان الاقتصاد.

٧ ـ الثقافة في جبل عامل

لقد انفتح باكراً جبل عامل الحضارات الأخرى وعلى جيرانه، وسافر أغلب ناسه لطلب العلم والرزق والثقافة[1].

وتعددت كتبه ودورياته (من جرائد ومجلات ونشرات مختلفة على مدى ثلاثة أرباع القرن). ولقد شغل التراث العاملي الباحثين في الحقبة الأخيرة، وكثرت الابحاث الأدبية والعلمية عن جبل عامل، حتى قيل أن الأدب العاملي هو أدب النخبة. ومما عزز هذا الأدب الرحلات العلمية إلى الأماكن التي كانت حواضر فكرية ومراكز إشعاع (كالعراق وإيران ومصر...).

كما اعتبرت المدارس أهم عامل في تنشيط الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل.

وكثرت المكتبات التي ملئت بالكتب القيمة وبالمحفوظات. ورغم اتلاف الجزار لها ونقل الكتب منها على ظهور الجمال إلى عكا، فإن المكتبات الخاصة ما زالت منتشرة ويحافظ أهلها عليها.

رغم هذا الانفتاح الثقافي والنبوغ الحاصل عند أبناء جبل عامل نتيجة هدفهم الأساسي: تحصيل العلم والمعرفة؛ إلا أن وضعية التمايز الطائفي ووضعية النزاع الجغرافي على أرضه وقصور السلطة في ما خص هذا الأمر، أشعر العامليين بالحرمان الاجتماعي؛ فأثر هذا الحرمان أكثر ما أثر على ثقافة وفكر الجماعة؛ فجاء خطاب الشيعة وحسبما قال د. «رالف رزق الله»[2] هو خطاب الخطيئة والتأنيب، والاحساس بالذنب يقترن بالدين ولا يفترق عنه. وهذا ما يلحظ عبر مجالس التعزية (يقول «فرويد» أن الاحساس بالذنب ناتج عن قتل الأب في الرهط البدائي)، وما لها من خصائص أسطورية، وما تحكيه عن قتل الحسين[3] وتعذيبه. وهذا ما يوحي للمخيلة الجماعية بفكرة التعاضد الاجتماعي. أما حالة الحزن العميقة هذه فتجمع وتوحد الجنسين؛ لأن

---

(1) يلعب رجل الدين الشيعي في جبل عامل دور القيادة وتحديداً قيادة الرأي العام سواء من موقع سلطوي أو خارجي.

(2) R. Rizkallah- Contribution à une approche psychologique d'un rite chez les chiites du Liban- Sud. thèse de doctorat de 3e. cycle- Paris 7- 1977.

(3) قتل الأب هو مركب أوديبي ينتج عنه قلق وشعور، والذنب مقرون باللذة وبالأمنية.

الحسين، الامام، هو المنقذ والدليل والأب، إنه نقلة دينية، إنه رمز للصورة الابوية المثالية.

VI ـ الوضع السياسي في جبل عامل

إن سياسة الدولة وتعابيرها في التمييز الطائفي جعلت الحرمان والغبن والاهمال نواة إحساس أهالي جبل عامل. بينما كانوا يشعرون أن حسهم الوطني (الذي ترجمته ثوراتهم ومواقفهم التحررية) لا يقدر، وكأنه ضريبة عليهم وحدهم، «وكل ما قد حصلوا عليه لم يأت إلا بعد شق الانفاس عكس ما كان سائداً عند الآخرين الذين يأخذون أكثر ويعطون أقل، ولا يحس الواحد منهم بتعب أو يحتاج إلى ضغط للحصول على شيء ما. الأمر الذي عزز قناعة قيد التأسيس بأن الحرمان بات من نصيب طائفة ومنطقة أخرى... وكانت أوضاع الأطراف، خصوصاً المناطق ذات الغالبية الشيعية، إدانة صارمة لظلم الطائفية وفضيحة لدولتها ومؤسساتها. فقد أصاب التمييز القرى والمدن، كل حسب طائفتها، بحيث يخترق منطق الطائفية تفاصيل المجتمع والوطن والأرض والبشر، بعد أن اخترق المشاريع والموازنات وخطط التنمية ومؤسسات التعليم والتوظيف، وبدأ يهدد بالقضاء على البقية الباقية من فكرة الوطن القائم على دولة عادلة ومجتمع تتساوى فيه الطوائف بالحقوق والواجبات[1]».

وكان اللهاث وراء العلم والثقافة الهاجس الأكبر لأبناء جبل عامل، هاجساً مستمداً من أصول عريقة في هذا المجال، ومغذى من لهفة مستمرة لتحسين الواقع الاجتماعي وهادفة للترقي الاجتماعي.

وصادف عودة المغتربين إلى الوطن وإلى المنطقة، فنمت في الجبل طبقة من الميسورين الذين أخذوا يتحولون شيئاً فشيئاً إلى بورجوازية محلية ضاغطة. وبدأ يعوض جبل عامل حالة الحرمان القديمة والمفروضة عليه إلى حالة انتاج وفعل، غيرت الكثير من معالمه، وجعلت أهله يتباهون بوضعيته الجديدة أو بانتقالهم إلى ركب المدنية. لكن هذا كان وللاسف ـ على حساب استعمال فوضوي للمجال.

(1) د. علي الشامي ـ الامام الصدر بين الطائفة والوطن. النهار ـ الثلاثاء 1/ 9/ 92.

وتكون التغييرات الحاصلة في بنية جبل عامل هي تغييرات من نوعين:

ـ تغييرات خارجية إتصفت بعدم التجانس وبالسرعة وبعدم التطور الموضوعي المنطقي.

ـ تغييرات داخلية إتصفت بالتجانس وبالانتظام في التطور.

وفي النوعين، نجد أن هذه التغييرات الحاصلة هي تغييرات ميكروسوسيولوجية أثرت على المجال الاجتماعي العام، وتأثر بها لاحقاً المجال النفساني الخاص. وبدأ يتكون البعد الايديولوجي، خاصة أن حدة العلاقات العشائرية غير متواجدة حالياً في الجنوب بعد أن اختفت العائلات الاقطاعية، حلت محلها التنظيمات السياسية الجديدة، فألغيت معها فكرة الوجيه، وتقارب الغني والفقير من الناحية الاقتصادية.

كما يجب الاقرار بأن سياسة التخطيط في لبنان أثرت بشدة على نمو جبل عامل، وكانت النتيجة لاحقاً نقصاناً في التخطيط المناطقي لم يزل أثره حتى الآن. وانعكست حالة اللا أمن النفسي على تنظيم المجال الهندسي هناك، فاقترب إلى العفوية أكثر منه إلى التخطيط.

إن إهمال الدولة، الذي تحدثنا عنه، لمنطقة جبل عامل التي عاشت بدورها في ظل مستوى اقتصادي متدن وفي ظل حرمان اجتماعي وقهر نفسي، قاد إلى تدن في المستوى الصحي والتقني والاسري والثقافي للسكن. فالوضع المادي للشعوب هو الذي يكون الحافز الاساسي للتقدم وللتنمية. لقد حدد «د. فتحي ود. رشيدة التريكي» ستة عوامل تحدد الطاقة الانتاجية للبلاد:

1 ـ وجود موارد طبيعية للبلاد ـ أهميتها ونوعيتها.

2 ـ حالة التقنية والعلوم والمعارف المتصلة بالانتاج.

3 ـ نوعية القوى العاملة وأهميتها.

4 ـ أهمية رؤوس الأموال وتكوينها.

5 ـ سوق الاستهلاك ودرجة اتساعه.

6 ـ التنظيم الاداري والقانوني ونوعية تنظيم المؤسسات»[1].

---

(1) د. التريكي ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 11 ـ 12.

في دراسة أجريت سنة 1970 على المساكن في جنوب لبنان تبين افتقار العوامل الستة وغياب أية بنية تنظيمية مؤسساتية:

1 - وجود مطبخ في المسكن; لا يوجد مطبخ في 14115 مسكناً من أصل 44505.

2 - وجود حمام في المسكن: - لا يوجد حمام في 1185 مسكناً من أصل 44505.

- يوجد حمام داخل المسكن 25080 من أصل 44505.
- يوجد حمام خارج المسكن 6225 من أصل 44505.
- يوجد حمام خارج المسكن 1305 من أصل 44505
- أجوبة غير محددة 210.

3 - وجود مياه جارية: لا يوجد: نسبة 18045 من أصل 44505.

4 - تواجد كهرباء: لا يوجد: نسبة 7770 من أصل 44505.

إذا كانت هذه النسبة المتعلقة بالمسكن قد أفرزت هذه النتائج سنة 1970 م، فما هو واقع الحال حالياً؟ هذا ما ستقدمه لنا الدراسة الميدانية.

القسم الثاني

الدراسة الميدانية

- **الفصل التاسع**: المدينة والمحافظة.
- **الفصل العاشر**: الدراسة الاستطلاعية لآراء مهندسي المنطقة.
- **الفصل الحادي عشر**: ملاحظات على هامش الزيارات الميدانية.
- **الفصل الثاني عشر**: كيف رسم الطفل مسكنه.
- **الفصل الثالث عشر**: رأي المسنات بالمجال السكني الحديث.
- **الفصل الرابع عشر**: تقديم الاستمارة.
- **الفصل الخامس عشر**: تحليل ومعالجة معطيات الاستمارة.
- **الفصل السادس عشر**: دراسة علاقات التقابل والمقارنة في أجوبة الاستمارة.



الفصل التاسع

المدينة والمحافظة

1 ـ تسمية المدينة

استُوحي اسم «النبطية» من كلمة «نبط»Nabat. والانباط هم سكان شرقي الاردن القدماء. وليس بمستبعد أن يكون هذان المكانان «نبط» و«نبطية» في لبنان مستعمرتين أو مستقرّين لجماعة من الانباط نزلوا فيها»[1] [2].

ومعنى الاسم ربما كان «أهل الماء» أو «أهل الزرع والفلاحة». والأرجح أن الأنباط القدماء إنما سمُّوا بهذا الاسم لأنهم كانوا، أهل زراعة وفلاحة مقابلة لهم بالبدو الذين كانوا رعاة. فمن جذر نبط، الذي لا أثر له في السريانية، يفيد الماء أو البئر أو النبع، كما يعني في العبرية النظر والتطلع والرؤية (؟).

2 ـ خصائص المدينة العامة

إنها الآن عاصمة محافظة[3] مستقلة، أنشئت سنة 1975 م بموجب قانون رقم 75/ 36 وبتاريخ 30/ 9/ 75، وهو قانون إنشاء ينص على أن تنشأ الوحدات الادارية فيها بموجب مراسيم في مجلس الوزراء تطبيقاً لهذا القانون؛ إلا أن التنفيذ والاجراء الفعليين لم يريا النور حتى سنة 1985 م، إذ بدأ العمل بتطبيق المرسوم، وبدأ العمل يتركز باستحداث وحدات إدارية كمديرية التنظيم المدني ـ قسم السيارات والميكانيك ـ سرية لقوى الأمن الداخلي ـ دوائر قضائية الخ...

---

(1) (2) د. أنيس فريحة معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية ـ مكتبة لبنان ـ بيروت 1972 ـ ص 180.

(3) هو فصل يتعلق بالمدينة تندرج فيه بعض المعلومات التي تخص المحافظة، والتي تلقي بعض الضوء على قرى العينة (كالوضع الاقتصادي).

يبلغ عدد سكان النبطية 35,000 مقيم، كما يتراوح عدد غير المقيمين فيها ما بين 10,000 شخص و17,000 شخص.

عرفت النبطية منذ القديم بسوقها التجاري وبانفتاحها العلمي والحضاري. تتوزع جغرافياً إلى أربعة أحياء:

حي السراي - حي البياض - حي الميدان - حي المسلخ، يفصل بينهم شارع رئيسي يعتبر الشريان الحيوي للمدينة، وتنتشر فيه المحلات والمصارف والمراكز التجارية. وبفعل كثافة حركة البناء، فإن الأحياء الأخرى تشهد امتداداً ديموغرافياً واقتصادياً وعمرانياً ملحوظاً كحي البياض مثلاً الذي يصل إلى حي القصور). يدير شؤون هذه الاحياء مختاران اثنان.

إلا أن المشكلة الأساسية في المحافظة بشكل عام هي مشكلة التمثيل في البلديات. فآخر انتخاب تم سنة 1963 م، وهذا يعني ان أي مختار أصبح متوسط عمره السبعين؛ ومنها - أي من البلديات - ما فرط عقدها نتيجة عدم توافق بين الرئيس ونائبه. إلا أن أغلب البلديات انهارت وبقي المختار، وحتى المخاتير، فمنهم من توفي، ومنهم من لحق بمصالحه، ولم تعد تفي «المخترة» له بشيء.

«كل هذه البلديات مترهلة، ويمكن القول أن في قضاء النبطية 19 بلدية منحلّة. 3/4 البلديات منحل، أما البلديات القائمة فهي تشكل حالياً 1/4 البلديات في المحافظة. لذا فقد تم الاتفاق مع وزارة الداخلية في حال خلو مركز المختار، يكلف المحافظ أحد أعضاء الهيئة الاختيارية الأكبر سناً، وهذا ما حصل في دير الزهراني»، حسب قول المحافظ السابق في مقابلة أجريت معه بتاريخ 22/ 3/ 90.

إن عاصمة ثوار جبل عامل تقهقرت مرافقها السياحية، وتراجعت بفعل دوافع أمنية، ولم يبق منها سوى بعض المقاهي المتواضعة. وبدأ الانتشار والتوسع خارجها، فمن أراد أن يتنزه أو أن يقضي عطلة يقصد أماكن نشأت (كدير الزهراني مثلاً، وجهة بلاد الشقيف جنوباً، التي تشتهر بقلعتها). يتواجد في المدينة حسينية كبيرة أساسية وكنيسة أيضاً في «الحارة المسيحية»[1]. إضافة إلى مساجد وجوامع أخرى متواجدة في الاحياء كافة. وفيها ساحة كبيرة تقابل

(1) وهم أقلية إذا ما قيسوا بالسكان الشيعة هناك.

الحسينية الرئيسية، وهي نفسها التي تشهد عمل سوق الاثنين التجاري وعملية تمثيل استشهاد الامام الحسين التي تقام في عاشوراء. ذلك أن مدينة النبطية قد تميزت منذ القديم، ولا تزال، باحياء ذكرى عاشوراء، حيث يقصدها الكثير من الناس من أرجاء الجنوب كافة والمحافظات الأخرى للمشاركة في احتفال العاشر من شهر محرم. ويعتبر هذا الاحتفال واحياء ذكرى عاشوراء من أهم المظاهر الرسمية لهذه المدينة الجنوبية.

3 ـ النشاط الاقتصادي

تعرف مدينة النبطية حالياً امتداداً مدينياً واسعاً سمح لها بالاتصال عبر الحدود بالقرى المحيطة بها: حبوش ـ كفررمان ـ الكفور ـ ميفدون ـ زبدين. وبدأت تشهد إنجازات حديثة في طرقاتها، كأوتستراد الرئيس بري[1] لمدخلها الشمالي وإضافة إلى مدخلها الغربي، فوصلت بأكبر عدد من القرى، إضافة إلى محاولات تحسين أوضاع عدد من طرقاتها الداخلية(داخل أحيائها).

أثر هذا الواقع المديني على إعادة الحياة إلى النشاط الاقتصادي الذي انهار في أواخر العام 1986 م، وإضافة إلى أموال المغتربين العائدين أو الذين أرسلوا أموالهم إلى مدينتهم الأصلية، وهم كُثُرٌ وكانت وجهتهم: افريقيا بشكل أساسي ثم دول الخليج.

لكن مدينة النبطية ومحافظة النبطية هي بحاجة إلى إعادة تأهيل وتنمية اقتصادية تشرف عليها الدولة؛ لأن وضعها الأمني والسياسي ظلّ وما يزال عرضة للخرق من قبل اسرائيل ومنذ سنوات عديدة؛ مما ساهم في ازدهار الهجرة إلى الخارج وعدم استغلال موارده الطبيعية في اعتماد مورد رزق جديد: المضاربة العقارية وتجارة البناء ومواده، فكثر بناء الشقق وبيعها بالعملات الأجنبية؛ مما أوجد مئات الشقق المقفلة والمعروضة **للبيع** وليس **للايجار**. فانعكس هذا الوضع سلباً على وضعية المواطنين المقيمين وعلى قدرتهم الشرائية، خاصة في ما خص أسعار مواد البناء المستوردة

عُرف عن محافظة النبطية غناها بإنتاج الحمضيات من مختلف أنواعها وبزراعة التبغ التي يمكن أن تتحول إلى زراعة أشجار مثمرة لوزية، يمكن أن

---

(1) ويربط قضاء النبطية بكافة قرى بنت جبيل وبعض قرى قضاء صور واستمر العمل به ما يقارب 30 شهراً وأنجز ما بين 1991 ـ 1992 م.

تعطي مردوداً أكثر ارتفاعاً من زراعة التبغ. لكن هذا الاحتمال بالتحول التدريجي «يتطلب دراسة الجدوى الاقتصادية في كل قرية محورية على حدة بضوء الطلب المتوقع والكلفة الاستثمارية وكلفة التشغيل وأسواق التصدير داخل وخارج لبنان» (أنظر جدول رقم 1).

ولقد بلغ توزيع أكلاف الحاجات الانمائية والاقتصادية(مليون دولار) وعدد القرى المحتاجة على صعيد محافظة النبطية ـ المدينة المرجعية في هذا البحث ـ في مسح لم يتمكن من أن يشمل قرى المحافظة كافة لاسباب أمنية، كالتالي:

	موجود			جديد	
	وجيد	عدد			كلفة
* تربية المواشي	28	39			0,9
والدواجن	19	40			0,4
* تربية الأسماك	-	2			0,01
والنحل	16	31			0,16
صناعات خفيفة					
* ألبان وأجبان	4	15			0,4
* فخار	-	-			-
* وأوانٍ زجاجية	-	1			0,02
مؤسسات زراعية					
	موجود			جديد	
* تعاونيات تسويقية	1			38	
وانتاجية	-			26	
* تقنيات زراعية متقدمة	-			38	
* مصانع تعليب	-			6	
وشركات توزيع المنتوجات	-			1	
مرافق سياحية					
* فنادق سياحية	1			2	0,17
* مطاعم سياحية	-			5	0,3
		تأهيل		جديد	
		عدد	كلفة	عدد	كلفة
* حدائق ومنتزهات	-	-	-	24	0,2

جدول رقم 1 ـ عن مؤسسة الحريري ـ لبنان الواقع وحاجات التأهيل والتنمية ـ بيروت 1987 ـ ص 184 ـ 185.

- عدد قرى محافظة النبطية وأحيائها 68 التي شملها الاحصاء.

- الحاجة لـ:

- واقع واحتياجات بعض المرافق الاقتصادية

وإذا ما قورنت محافظة النبطية بغيرها من المحافظات تجد أنها الثانية بعد بيروت من حيث قلة الثروة الحيوانية، كما أنها من المحافظات التي تقل فيها الصناعات الخفيفة مقارنة مع جبل لبنان أو البقاع مثلاً. إلا أن المؤسسات الزراعية التعاونية الحديثة تزداد بعد أن كانت غير موجودة، كما بدأت بإدخال التقنيات الزراعية بعد أن كانت معدومة أيضاً.

نجد في الوقت نفسه أن الفنادق السياحية والمطاعم قليلة إذا ما قيست بنسبتها في محافظة جبل لبنان مثلاً (62 فندقاً و101 مطعم في حالتي الوجود والجودة). لكن حركة الحدائق والمنتزهات بدأت بالظهور.

أما المصانع التي تعنى بشؤون تصنيع المنتجات الزراعية فهي قد بدأت بالظهور لكن بخجل مقابل نمو صناعات أخرى.

يمكن القول أن الكثير من هذه الصناعات (خاصة الالبسة والمأكولات: الصناعات الخفيفة) جذبت «نساء التبغ»، اللواتي عملن في زراعة التبغ سابقاً لكنهن انتقلن من عمل الظهور إلى عمل الخباء.

إنتشرت أغلب الصناعات على خط العينة، وابتعدت عن مدينة النبطية التي ازداد فيها القطاع الخدماتي التجاري أكثر من القطاع الصناعي الذي ما زال في بداية عهده والذي ينقصه الدرس والتخطيط، فكثرت فيها المراكز التجارية والبنوك التي بدأت تنتشر على التقاطعات الرئيسية التي تجمع المدينة بالضواحي.

كما كثرت محطات البنزين والمشاتل الزراعية وشركات السياحة، المرافق السياحية والمنتزهات.

هذا كله بالاضافة إلى تحسن طرأ في الخدمات الهاتفية الرسمية التي تقلل من قوة الاعتماد على الاشخاص (وبشكل غير شرعي). بدأت خطوط

الهاتف تصل إلى البلدات المحيطة بالمدينة، ومنها بلدات العينة التي نعمت بخطوط تتراوح ما بين 40 و50 خطاً وصل حتى إلى القرية القديمة.

من ناحية أخرى تصلح بعض مناطق المحافظة لتربية النحل، حيث أن الازهار البرية والمتنوعة تتكاثر. لكن عدم وجود الرأسمال الضروري لانشاء خلايا تربية النحل واستخراج العسل كان منخفضاً، وهو يتزايد مع الوقت بفضل بعض المشاريع المستحدثة من قبل المقيمين هناك.

كما أن مشاريع إنشاء مصانع أسمدة زراعية وعضوية وصناعات حرفية، بدأت بالظهور، ويمكن أن تتطور إذا ما تدخّلت الدولة ونظمت الامكانيات البشرية والمادية تبعاً لمخطط تطمح اليه المنطقة.

4 ـ الوضع الاجتماعي

يبدو للوهلة الأولى أن انفتاح عائلات مدينة النبطية بفعل السفر والهجرة والعلم والثقافة، غير نمطها، وأبعدها إبعاداً شبه كلي عن النمط المتحول، خاصة أن المال الذي تمكن البعض من جنيه أو الارث أو الممتلكات الموروثة، كان مدعاة للتقارب: الأب من ابنه، والابن من أبيه، وابن العم من قريبه الخ... حفاظاً على المصالح المشتركة؛ لكنه كان في أحيان أخرى مدعاة للنزاع والمآزم.

كما دخلت المرأة بإصرار إلى ميدان العمل، ولحقت بالتطورات الحاصلة في المجال اللبناني والعربي العام، وكثرت الوظائف التي انتسبت اليها، ولم تعد تقتصر على التعليم. ولتلبية حاجاتها كثرت الحضانات والمؤسسات التي ترعى الأولاد بغياب امهاتهن. كما شاركت في العديد من المحاضرات والندوات العلمية والمعارض التي تكثر في المدينة وفي المحافظة. أما المرأة التي لا تعمل، فهي قد حصلت على قسط لا بأس به من التعليم، ونجدها تشارك في قرار زوجها وأولادها وتنفرد أحياناً بالقرار في حال سفر الأب، وفي شراء حاجيات مسكنها أيضاً.

ينطبق هذا الواقع النسوي على نساء المحافظة، وبالتالي على نساء بلدات العينة اللواتي تركن الزراعة والعمل الزراعي أو عمل الخدمة في المساكن، واستعضن عنه بالعمل في المصانع المتوفرة أو في المؤسسات

التجارية المتعددة في المنطقة، كما غيرت زيّها وموضتها، واحتذت حذو نساء المدن، حتى المحجبات منهن، فقد حافظن على أناقتهن وعلى إنسجام ملابسهن. . .

أما المدارس والمعاهد فقد كثرت منذ القديم، نظراً لما شهدته المدينة كمركز حضاري وثقافي وديني ومكتبي وثائقي يرتاده العلماء والأدباء، ويمارسون نشاطهم فيه، لا بل ينطلقون منه. فإضافة إلى المدارس الرسمية الموجودة في النبطية والتي حافظت نسباً على مستوى لا بأس به، تواجدت المدارس الخاصة ليس فقط في النبطية (التي كانت مقصداً تربوياً وتجارياً واستشفائياً لأهالي الجوار، وإنما أيضاً في البلدات التابعة لها، (من أهم مدارسها الخاصة: مدرسة الاميركان ومدرسة الراهبات)، كما فتحت الجامعة اللبنانية فروعاً عديدة لها هناك (كالعلوم وادارة الاعمال والفنون وغيرها).

وازدهرت المستشفيات نسبياً في المدينة فقط، وجهّزت بوسائل حديثة، وكثرت فيها عيادات الاطباء والمختبرات.

لقد تعمّرت مدينة النبطية رغم ما عانته من حرب ومن وضع مأساوي اجتماعي وسياسي يُفسرُ في دائرة الحرمان الذي خضع له جبل عامل. لقد تعمّرت وعمرت معها الجوار، لا بل أولدت هذا الجوار الذي تحول معيشه بسرعة هائلة، وبعد الاجتياح الاسرائيلي حتى الآن، إلى معيش مديني أو نصف مديني يحمل في طياته عملية انمائية واسعة المدى، وربما ساعد هذا المعاش المديني على الانتشار عامل جغرافي هو قرب المدينة ـ المركز ـ المرجع من البلدات المحيطة بها وتواجد ذاك الخط العام فكوّنت المدنية على صعيد السلوك: الخصم الذي نتماهى به والأب الذي نتعلق به.

5 ـ محاولة في تحديد الطريق العام[1]

حمل تحليل البنية الاجتماعية المعاصرة قيماً مختلفة تنطلق من أماكن

---

(1) نظراً لاتساع الميدان المدروس وبالتالي لكثرة المتغيرات، اضطررنا إلى حصر بلدات داخل هذا الخط واستثناء بعضها، فبدأنا مثلاً من زفتا وليس «المصيلح» كما استثنينا «كفررمان» البلدة الأكثر مواجهة مع المناطق المحتلة (التي استحدثت كخطوط تماس جديدة) والتي تعرضت وما زالت تتعرض لكثير من الاعتداءات، وحُرّمت على سكانها الاصليين في مناطق كثيرة منها.

السكن والتجمعات، ظهرت عبرها شبكة مواصلات تجمع بين المدن وبين مراكز التبادل وبين القرى[1]. من أهم ميزات شبكة الطرقات التي تفرعت فيما بعد إلى أساسية وفرعية والتي وظف في سبيل احيائها كافة المفاهيم والمصطلحات الهندسية الحديثة، فمن اتوستراد، إلى جادة (Boulevard)، إلى الدرب (Chemin)، إلى الشارع (rue)، إلى السبيل (Route)، إلى الخط السريع (Auto-route).

لقد ساهمت الشروط التقنية الحديثة لتنظيم الطرقات بأنواعها بالمنفعة العامة، فميزت ما بين الطريق الدولي والطريق السريع؛ والطريق الفرعي والطريق الرئيسي، وطلبت مراعاة العرض والطول والانحناءات والكثافة والمسارب والجسور...

سنعمل على تعريف الطريق الدولي - الاتوستراد والخط السريع لأن الالتباس حاصل في بلادنا على هذه التسميات الحديثة، وهذا ما يظهر بوضوح بخصوص طريق عام النبطية الزهراني.

أ - الطريق الدولي route internationale: هو طريق واسع، يراعي الاتساع خاصة بالقرب من المرافق المهمة، ويجب أن يكون محدداً برصيفين عرضهما متر على الأقل للواحد. كما يجب أن يأخذ طول الطريق بعين الاعتبار طبيعة كثافة المواصلات عليه[2].

وإذا كان هذا هو التعريف الهندسي، فإن تصنيف الطرق العامة التابعة لوزارة الاشغال العامة والنقل في الجمهورية اللبنانية قد اعتبرت الطرق الدولية طرقاً من الفئة الأولى:

«يعتبر طريقاً دولياً كل طريق يربط الموانئ البرية والبحرية والجوية اللبنانية بالبلدان المجاورة للجمهورية اللبنانية، طالما أن الطريق يؤمن السير الدولي حالياً أو في المستقبل»[3]. **وقد صُنِّفت طريق المصنع - مرجعيون - النبطية - الزهراني**[4] طريقاً دولياً طولها بالكلم: 63 كلم - وعرض الزفت

---

(1) Encyclopédie pratique de la construction et du batiment - quillet paris 1959- tome I.

(2) المصدر نفسه Tome III 1968.

(3) مرسوم رقم 1315 (تاريخ 19/ 3/ 1965) (تصنيف الطرق العامة).

(4) مرسوم 1742 (تاريخ 21/ 1/ 1979) (تعديل لوائح تصنيف الطرق العامة).

الحالي بلغ ما بين 7 و14 م، وذُكر أن الجزء الواقع بين الزهراني والنبطية منفذ حديثاً بعرض 14 م وبطول 25 كلم تقريباً[1]. وعليه فإن الأقسام التي تربط مرافئ الساحل بعضها ببعض ثم بالحدود اللبنانية الدولية فقد صُنفت طرقاً دولية[2]. . . على أن يفترض تراجع البناء عن محور وعن جوانب الطرق العامة الواقعة داخل وخارج نطاق البلديات والتي ترعى شؤونها وزارة الأشغال العامة والنقل: ستة عشر متراً عن محور الطريق (Plateforme) شرط أن لا يقل التراجع عن جانب الطريق (**حدود الاستملاك**) عن خمسة أمتار للطريق الدولية[3]. واعتبرت أقسام الطريق الدولية التي استبدلت باتوسترادات جديدة كأنها طرق رئيسية[4].

ما هي حدود الاستملاك (ما دام أن البناء على طريق العينة يقترب منه):

في الباب الثاني من قانون رقم 58 ـ قانون الاستملاك ـ وهو يتعلق بالاحكام العامة، وتحديداً في المادة السابعة والثلاثين نورد التالي:[5]

1 ـ تضم إلى الاملاك العمومية العقارات وأجزاؤها الداخلة في نطاق تخطيط وإنشاء الطرق والساحات العامة أو تعديلها أو توسيعها.

2 ـ يفترض مبدئياً أن يلحق الأجزاء الباقية من العقارات المصابة بالتخطيط تحسين في قيمتها، فإذا كانت مساحة الجزء المصاب أقل من ربع مساحة العقار ضمت إلى الأملاك العمومية دون تعويض باستثناء التعويض المتوجب عن المغروسات والأبنية والانشاءات، أما إذا زادت عن ربع مساحة العقار فتحدد قيمة الزائد على أساس السعر الرائج بتاريخ صدور قرار لجنة التخمين المبدئية.

3 ـ لا يجوز تملك الربع دون تعويض الا مرة واحدة مهما تكررت التخطيطات، ويتخذ أساساً لحساب الربع مساحة العقار مثل ان يصاب بأول تخطيط[6].

---

(1) (2) بيان عن شبكة الطرق اللبنانية ـ وزارة الأشغال العامة والنقل ـ المديرية العامة للطرق والمباني ـ مديرية الطرق (1973).

(3) (4) مرسوم 15299 ـ فرض تراجع للبناء عن محور وعن جوانب الطرق العامة ـ 5/ 2/ 1994.

(5) (6) الجريدة الرسمية عدد 23ـ 6/ 6/ 1991.

وحدود الاستملاك هذه تطبق على كافة خطوط السيارات، إلا أن ما يطبق يتنافى مع هذا القانون؛ مما يُفشل كل مشروع هندسي جديد للطرقات في لبنان، سواء كان طريقاً دولية أو أوتوستراداً أو خطاً سريعاً[1].

كما أنه يحظر الدخول إلى الطريق والخروج منه من غير المداخل والمخارج المخصصة لهذه الغاية، ويحظر استعماله للمشاة وللخيالة وللدراجات العادية والنارية وللحيوانات وللمركبات الزراعية ومركبات الاشغال العامة. كما يمنع استعماله لتعليم قيادة السيارات، وينظم السير وتعين السرعة في حدودها الدنيا والوصول وتوضع الاشارات والعلامات، ويحظر وضع الاشارات والاعلانات مهما كان، والانارات غير المعدة لاستعمال الاتوستراد، واستثماره ضمن نطاق محدد بخطين متوازيين لمحوره[2].... وهذا ما هو غير حاصل على الأرض وبخصوص خط العينة[3]، خاصة من حيث الوقوف عليه.

وإذا تمكنا من تحديد مواصفات الطريق الدوليّ، فهل ننجح في تحديد مواصفات الاتوستراد والفرق بينه وبين الخط السريع؟

ب ـ الاتوستراد Autostrade: وهي كلمة إيطالية الاصل، مرادفة لكلمة auto-route ـ بالفرنسية، والتي حلت محلها منذ الستينات، لم تعد شائعة الاستعمال لا على الصعيد الهندسي التخطيطي ولا على الصعيد الاجتماعي الشائع... ولا حتى على الصعيد اللغوي. وهي تشير إلى طريق لمرور السيارات، ولا يقوم عليها أي نوع من السكن أو الأعمال، وتمتد فروع ثانوية منها إلى مناطق السكن والعمل، ويمنع عليها وقوف السيارات وعبور المشاة قطعياً عليه. ويمكن أن تكون الطريق الدولية اتوستراداً له مواصفات سير وبناء يختلف عن الطرقات الأخرى:

---

(1) في مقابلة مع المدير في مديرية الطرق في وزارة الأشغال العامة، المهندس عصام بكداش، أجريت بتاريخ 2/ 3/ 93، الذي يعتقد أن قانون الاستملاك إما يعطل مفهوم الطريق بأنواعه وإما يحييه.

(2) مرسوم رقم 10619 ـ 16 آب 1968 ـ نظام وتنظيم الاتوسترادات.

(3) قبل الاحداث اللبنانية وبالتحديد سنة 1973 أحصي المعدل اليومي للسيارات المارة على خط الزهراني باتجاه النبطية ما يعادل 2600 سيارة (معلومات من وزارة الأشغال العامة والنقل).

«يخضع لهذا النظام أو التنظيم كل طريق يعرف عنه بمرسوم إعلان المنفعة العامة أو بمرسوم تصديق التخطيط إنه اتوستراد. ويمكن أن يُعطى هذا الوصف للطرقات القائمة حالياً بمرسوم يتخذ في مجلس الوزراء بناء على اقتراح وزيري الداخلية والأشغال العامة والنقل، كمادة أولى.

ويشتمل الاتوستراد على الطرقات وملحقاتها وسائر الانشاءات والتجهيزات الفرعية التابعة لها كالمداخل والمخارج ومراكز المراقبة والصيانة الخ. الداخلة ضمن نطاق التخطيط وحدود الاستملاك وفقاً للرسوم المنصوص عليها في المادة السابقة والخرائط المتممة لها. كمادة ثانية»[1].

ج - **طريق الخط السريع أو auto-route**: وهي المصطلح الهندسي الحديث والشائع في الغرب وأميركا، وهو رديف حالياً لكلمة الاتوستراد، ويعرف على أنه الطريق الواسع الذي يحتوي على سطحين معبدين ومزفتين منفصلين (chaussées) ومختلفي الاتجاه، ويمكن أن يجمعا مسارب مختلفة (vries)، ويجتازه السيارات المسرعة (a une grande vitesse) والدراجات النارية (motocycles) فقط، ولا يتقاطع مع أي مسرب آخر، ويمنع الوقوف عليه[2]، ويمنع أن يبنى عليه الجسور وما شابه[3] [4].

نستنتج أن الالتباس (في التسمية) حاصل ليس فقط على الصعيد اللغوي الشائع، بل حاصل على صعيد التعارف الرسمية التي لا تنطبق عليها مواصفات التعريف الأخير auto-route، والتي تنتهك في حرمة تعاريف الاتوستراد المرادفة لتعريف الطريق السريع[5]. ولكي أسمي طريقاً دولياً، علمياً، عليّ أن أنظم هذا الطريق الذي يجمع ما بين المرافق المهمة المتنوعة، وان أخطط له هندسياً كي يجيب على حاجة مفهوم «الدولية».

1 - ان الالتباس الحاصل هو التباس إداري رسمي قبل كل شيء؛ على ما

---

(1) مرسوم رقم 10619 - صادر بتاريخ 16 آب سنة 1968 - نظام وتنظيم الاتوسترادات.

(2) Y. Choppy: Dictionnaire de l'industrie routière - Eyrolles- Paris 1977.

(3) مصدر سبق ذكره .Encyclopédie pratique de la construction- Tome III

(4) «يمنع عليه مرور الشاحنات والدراجات».

(5) تستخدم كلمة خط وهي كلمة أدبية هنا أكثر مما هي هندسية.

يبدو في هذه الحالة، لأنّ الشائع هو الذي يتحول إلى تعاريف رسمية.

2 ـ التباس شعبي للمفهوم الاداري ضاع معه التطبيق بغياب إشراف وتوعية عرف تاريخها ما قبل الحرب الأهلية 1975 م، وفساد استعمال كلمة الاتوستراد وتساوي الرسمي والشعبي بهذه التسمية التي لا تتوافق مع متطلبات العصر والعلم (الطفرة والهندسة).

3 ـ الابقاء على المراسيم القديمة التي لا تتناسب مع الطفرة الحديثة ولا مع الهندسة الحالية، يعني الابقاء على حالة اللاتخطيط والركود. نحن بحاجة لاعادة بلورة وصياغة مراسيم جديدة تزيل الالتباسات، وتنظم من جديد الطرق بأنواعها وبمواصفاتها (ماذا نريد من الطريق الدولية؟ ما هي مواصفاتها: طريق رئيسية أم طريق خاص سريع منفصل إلى جسرين مستقلين: (2 voies).

4 ـ التعامل الحالي مع تنظيم الاتوستراد هو تعامل غير صحيح وغير منظم وغير محمي كي يبقى اتوستراداً بالمعنى السليم للكلمة والمفهوم (حدود الاستملاك ـ مبدأ الخروج والدخول ـ خط السير ـ الفصل ما بين الذهاب والاياب ـ الرصيف المحاذي. . .).

الفصل العاشر

الدراسة الاستطلاعية لآراء بعض المهندسين

«. . . البيت المفتوح بيت مفتوح حقيقة ومجازاً. مداخله أربعة مشرعة على الطريق، تلجه من أيها شئت، وفي الوسط باب المضافة. المضافة مدار البيت. **والبيت كله أعجوبة يشيب لها رأس أي مهندس يقيم حساباً لحياة الأسرة المغلقة ولثمن الأرض. والحق أن المهندسين براء منه؛ لأن أياً منهم لم يُجْر برسم تصاميمه قلماً، وإنما صممه صاحبه.** صممه ولبث يبنيه أربعاً وعشرين سنة، ولم يكن أكمله عندما هدمته القذائف. لم يكن قصراً، وقد بنى مئات الجنوبيين أفسح منه وأجمل في سنة واحدة. واشتغل صاحبه وهو يبنيه، مع نفر من أهل التقوى بتشييد واحد من أفسح نوادي الحسين في جبل عامل آنذاك، وهبه الأرض وأنجز بناءه في سنتين أو ثلاث. **وأما البيت فكان سر صاحبه»**[1].

. . . هذا المهندس، الذي كان يحل محله صاحب المسكن أو معلم العمار، وكما ورد في النص بدأ الموقف الايجابي يسير باتجاهه وباتجاه التعاون معه.

ولن نبحث في هذا الفصل عن طبيعة الابداع الفني للمهندس المعمار، ولن ندخل أيضاً في تحليل مناهج الابداع المعماري أو مصطلحاته، بل سنعمل على الدخول في تحليل لميزة نتاج الشكل ومحتوى المظهر، والبنيوية الاجتماعية للعمارة. . . وإذا كانت الهندسة المعمارية هي أول الفنون، فالمسكن هو أهم تعبير عن **الأنا**؛ والمهندس المعماري هو مصمم الموضة

---

(1) د. أحمد بيضون ـ ما علمتم وذقتم ـ المركز الثقافي العربي ـ بيروت 1990 ـ ص 252.

ورائدها، وهو تابع بدوره تماماً مثل «مجنون الموضة ومهووسها».

يرى Marc أن الهندسة المعمارية قد بقيت ولفترات طويلة من الزمن أغنى وسيلة تعبير إنسانية، وإذا أضاعت ذلك اليوم، فلأن الانسانية تعبر اليوم بطريقة أخرى. لكنه مما لا شك فيه، اننا قد أضعنا بعمارتنا الحالية معنى الرمز ومعنى التاريخ. ويتابع «Marc» في كتابه Psychanalyse de la maison، الحديث عن واقع الهندسة المعمارية التي تضيع قيمتها الرمزية وتقدم للتقنيات الحديثة حقلاً واسعاً من التطبيق الذي سيصبح في الغد **بناءً مصنعاً**... أكد «O. Marc» أن أية هندسة معمارية هي هندسة كونية أساساً؛ لأنها مليئة بالمعاني، وتكون أساس اللغة والفن اللذين يمنحان ولادة المسكن. فأساس هذه الهندسة هو أساس التجربة الانسانية الأولى مع الأشكال، وهي نفسها التي يرسمها الطفل عندما يطلب اليه أن يرسم، كيف ذلك؟ **عبر إشارات رئيسية** سبع تسمح للانسان باختصار العالم واختصار العلاقة التي تقيمها معه. ولقد وجدت منذ وجود الانسانية، وطورت تبعاً لما يجده الانسان باستمرار من تعابير وصفات وخصائص هندسية غنية وواسعة بالتشكيلات والتجسدات، وأكد هذه المسألة أو الفرضية التحليل النفسي باستعماله الصور الهندسية كأساس لألعاب أو لاختبارات تسعى لتنمية اليقظة عند الطفل، حيث البنى النفسية في حالة تشكيل وتنظيم مستمرة، لا تخرج عن إطار النزعات الطبيعية التي تخترق الانسان وتخترق بنيته.

قسم Marc الاشارات السبع إلى مجموعتين[1]:

1 ـ أربع إشارات هندسية، ترمز إلى:

- الدائرة Le cercle (تعبر عن الوحدة وعن الكل).
- المثلث Le triangle (يعبر عن الحماية ـ عن الملاذ ـ انه السطح بعلاقة مع السماء).
- المربع Le carré (يعبر عن الانسان في تقاطع مع الدائرة).
- الصليب Le croix (التقاطع والاتصال).

(1) O. Marc. Psychanalyse de la maison- Seuil- Paris. 1972. ص 44

سمحت المجموعة الأولى وبكامل رموزها ببناء كافة معابد الأرض (من أهرام مصر وأميركا، وصولاً إلى كعبة مكة، وإلى مدرجات الهند وهمالايا). إنها مجموعة مليئة بالمعاني، وقد أعلن تواجدها ولادة المسكن (هذا الشكل المحفور في الحجارة)[1].

2 ـ **ثلاث إشارات أخرى ترمز إلى:**

- اللولب أو الحلزون La spirale.
- الموجه أو الموج L'onde.
- النقاط Les points.

يقول Marc مارك أن الشكل الأول والثاني غالباً ما رصع بنقاط صغيرة يستعملها بكثرة المهندسون المعماريون الناشؤون في مشاريعهم الاكاديمية. بنت مجموعة الأشكال الثانية السكون. إنها تعني نزعات الطبيعة الانسانية.

أخيراً تسمح هذه الأشكال الهندسية المتعلقة بالأنا، بالذات بأن يشعر الانسان ويرتبط بإدراكاته النفسية، وأن يعرف نفسه من خلالها فيصبح المسكن، الذي يساعد المهندس اليوم أكثر من أي وقت مضى باتمامه، أن يصبح الملاذ والملجأ وان يرى صورته بداخلها[2]....

وبهذا المعنى فإن الملاذ الذي ينتجه المهندس هناك هو شكل هندسي حديث يتوافق بالضرورة مع بنية نفسية تطرأ عليها تغيرات، وبالتالي مع موقع عمراني مستحدث، نفضل تسميته **بالطفرة** وليس **بالنهضة**؛ لأن النهضة تتميز بالدراسة وبالتخطيط وبالاستيعاب وهذا ما هو غائب هنا في عينة الدراسة.

لقد تم الوقوف على رأي المهندس المعماري «رابط البنية النفسية بالشكل»، بناء على مقابلات ميدانية أجريت مع العديد منهم، وتحديداً في الفترة الممتدة ما بين 19 و25/ 3/ 90؛ نظراً لما يلعبه المهندس المعمار في دور البناء، خاصة أن أغلب أصحاب العمارات هم من المغتربين الذين تسمح لهم ظروفهم المادية بالاستعانة به.

---

(1) المصدر نفسه. ص 51.

(2) المصدر نفسه. ص 59.

كيف يقيم المهندس أسباب هذه الطفرة العمرانية؟

هذه الطفرة التي بدأت تحديداً ما بين سنة 1984 ـ 1985 م، أي بعد الاجتياح الاسرائيلي، والتي انتشرت بوضوح في السنوات 1986 ـ 1987 ـ 1988 ـ 1989 م، والتي تضاءلت نسبياً في السنتين الأخيرتين بفعل الوضع العام القلق الذي كان يعيشه البلد، فقد قيم المهندس المعماري هذا الوضع عبر نقاط محددة هي التالية:

1 ـ **الحرب الأهلية**، التي كانت حافزاً مهماً دفع بالكثير من أبناء الوطن إلى الهجرة وإلى جمع الاموال التي سمحت لهم لاحقاً ببناء مسكن كبير مستقل «**المسكن ـ الحلم**» ، بعد أن كان يقتصر أمر البناء على غرفة أو على اثنتين . . .

2 ـ **عودة المغتربين**، إقبال هؤلاء على شراء الأراضي على الخط العام؛ مما ساهم في ارتفاع سعر الدونم من 100 دولار أميركي إلى 60,000 دولار وما فوق.

لقد فتح المغترب المجال أمام انتاج فعلي، ودفع برأسماله إلى السوق من دون توظيفه. . . فبدأت «الهجمة» على الاتوستراد، وازداد الطلب على **المحلات**، وسيطر المفهوم التجاري أكثر مما سيطر المفهوم السكني، حيث أن الأراضي حافظت على قيمة أموالها، فاستفاد صاحب العقار ببناء محلات يبيعها على الخريطة ويسلمها بنوعية متدنية جداً. فتأسست **المحلات** التي أشيدت فوقها البنايات بدون أي تصميم.

3 ـ **هدوء الوضع الأمني نسبياً**، بعد المواجهات التي حدثت بين الاسرائيليين والفلسطينيين، وبين الاسرائيليين وأهالي المناطق الجنوبية المواجهة بعد حدوث الاجتياح الاسرائيلي، تحولت المنطقة إلى مناطق عسكرية مستباحة دفعت بالنزوح وبالتهجير القسري (ما بين 1974 ـ 1983 م) وباستبعاد فكرة البناء نظراً لانعدام التوازن والأمن. . .

هذا الهدوء النسبي المستجد، «دفع بابن المنطقة للعودة إلى أرضه وتأسيس مشروع أو مصلحة تؤمن له دوام العمل واستمراريته»[1]، وترافق ذلك

---

(1) شملت هذه الهجرة المعاكسة نتيجة حرب بيروت (حرب السنتين) ـ حوالي 160 ألف نسمة ـ

مع بدء نشوء مفهوم **اللامركزية** الذي فرض نفسه وحمل الأغلبية على إيجاد بدائل عن بيروت ـ المركز.

4 ـ **دور المدينة (النبطية)** كمركز وكرمجع مهم، وما مثّلت للبلدات المجاورة لها، وللخط، محو البحث، من دور أساسي في انتشار عملية **التغلغل المديني**. لقد وسعت دائرتها المحيطة، فأصبحت القرى حولها امتداداً وضاحيات لها، لكن اكتفاء داخلي وذاتي، ولكن ذلك لم يخفف من «عجقتها الخانقة» التي لا زالت تغص بها (بفعل سوقها ومؤسساتها ومكاتبها)... للنبطية الآن دور استشاري تجاري لا يمكن أن يهمله المهندس ـ حسب قوله، لأن الطفرة العمرانية امتدت من **الداخل** (النبطية) ووصلت إلى الخارج....

هذا الخارج الذي بدأ يستغني بوضوح عن سوق النبطية مثلاً ومن مطاعمها وعن خدماتها، لدرجة أن الكثير من أهلها تركها باتجاه الضواحي الجديدة الامتداد والبناء...

5 ـ **قيم المهندس هذه الطفرة بالسلبية**، وذلك لأسباب موضوعية ولأسباب ذاتية:

أ ـ **أسباب موضوعية**: رأى مهندسو المنطقة أن نسبة 50٪ من الناس

= من الجنوبيين الذين تركوا مساكنهم في بيروت وضواحيها وعادوا إلى القرى الجنوبية؛ مما أدى إلى تزايد في عدد السكان المقيمين وتحسن الوضع الاقتصادي، وبلغ عدد سكان قرى النبطية على ضوء هذا الواقع حوالي 41476 نسمة.

(د. علي فاعور ـ جغرافية التهجير ـ المؤسسة الجغرافية 1993).

هذا، ومن ناحية أخرى فإن التهجير الجماعي من العاصمة بيروت، نتيجة أحداث العنف التي بدأت في 14 آذار 1989 واستمرت حتى بداية أيلول 1989، والتي مثلت أقصى جولات العنف التي شهدتها العاصمة خلال أعوام الحرب، أثرت وعملت على ازدياد عدد السكان في مناطق عدة منها الكثير من قرى الجنوب اللبناني:

	فئات العمر الكبرى		
المقيمون في بعض قرى الجنوب اللبناني	صفر ـ 14	15 ـ 64	65 سنة وأكثر
	36,0	58,7	5,3

(د. علي فاعور: تأثير الهجرات الناجمة عن الحروب على أوضاع المرأة العربية: دراسة لحالة لبنان. المستقبل العربي ـ 136 ـ 1990 ـ ص 103.

يقيمون الطفرة بالسلبية، و30٪ ينتقدونها بدون وعي أو تبرير لها، و20٪ فقط منهم ينتقدون أبعادها وقيمها منطقياً وموضوعياً.

إن النظرة الموضوعية لا تقتضي رفض الطفرة؛ لأنها رغم أخطائها فقد حسنت وضعية المنطقة وجعلتها مركز استقطاب. لكن المستفيد الأول هو صاحب الأرض على الخط العام: فانطلقت المنفعة العامة من المنفعة الخاصة وليس العكس، فكان الرفض للجيد والتقليد للأسوأ.

ب ـ **أسباب ذاتية** تعود إلى أخطاء المهندس نفسه؛ إذ كثرت المخالفات في البناء على أراضي المشاع وعلى الممتلكات العامة، وتجاوز عدد الطوابق الحدود المشار اليها في قوانين التنظيم المدني وما يتبعها من إيجاد مرافق أساسية.

في البناء (مرآب ـ مياه ـ كهرباء ـ الخ). لقد انتشرت قضايا «الرخص المستعارة» وهي رخص بناء يتم توقيعها وهمياً (راجع ص 282) وبرضى وبمعرفة المهندس المعماري المسؤول نفسه، وانتشر معها البناء دون أن يقابله تخطيط لانتشار جديد لمحطات التغذية بالماء وبالكهرباء... ولتنظيم الطرق المؤدية إلى أماكن الانتشار العمراني[1]!.

ولحصر هذه المخالفات، دعا المهندسون المستجوبون نقابة المهندسين إلى وضع اليد وإلى إيقاف الرشوة والرخص غير القانونية، وإلى تعديل قانون **استثمار الأرض**[2]. بعد أن ازدادت مساحة الاستثمار العرضي بغياب الدولة، التي عليها ـ وبدورها ـ أن تسعى جاهدة لاعادة التخطيط والتنظيم والرقابة.

ج ـ **كنتيجة**: قُبِلَ المهندس وحل محل معلم العمار وصاحب المسكن، بعد أن سادت فكرة تحاشيه، وربما يكون هذا التحاشي عن جهل وحياء في الوقت نفسه؛ لأنهم لا يودون رصد مبلغ لاتعابه التي يمكن أن ينفذها معلم العمار، حتى لو كان التنفيذ يتعلق بمشروع كبير، «فيأتي بعيداً عن التنظيم

---

(1) يتوقف اقتصاد المنطقة المدروسة ـ وفي كثير من الأوقات ـ على البناء، وترك الكثير من الأهالي مهنهم الأساسية واشتغلوا «بالعمار».

(2) ما هو حاصل هنا ـ غير مقبول في الخارج ويهدم قبل إنجازه! والقلة من وعى حاجة البلد وعمل على إيجاد تجمع سكني أو مصنع منظم أو أماكن ترفيه عامة!

وخالياً من التخطيط. . . ذلك أن المهندس قد أهمل في ظل غياب الدولة، وتتم الاستعانة به في حال كان أخاً أو قريباً»[1]. . .

لقد تطورت علاقة المهندس ـ العميل اليوم، ومنذ ست سنوات بدأ التردد على المكاتب الهندسية، فتحجم دور المقاول، مقابل ما يؤمنه المهندس من جمال شكلي خارجي يكون مدعاة تباه وربما مدعاة اقتصاد أيضاً.

أين ينفذ المهندس مشاريعه الحي الداخلي القديم أم الحي الخارجي الجديد؟

يختلف البناء السكني عن البناء التجاري، حيث يكون هذا الأخير في قلب المركز والمدينة. وغالباً ما يطلب في البناء السكني أن يكون منفرداً على التلال المحيطة بالمركز، تلك التلال التي كانت بوراً والتي كانت منعزلة والتي كان أهل المدن والقرى لا يفضلونها؛ لأنهم يودون التقارب والتجاور وعدم تعريض أنفسهم لمناطق غير مدجنة يسكنها «الواوي» والثعلب ومعرضة للبرد أكثر من غيرها.

أما اليوم، وبفعل التحولات والامتدادات باتجاه الاحياء الجديدة، وحيث تزداد الاسعار كلما ازداد الابتعاد عن المركز الذي يبقى البناء فيه مختصراً على سطح القديم للاخ أو للابن أو لزيادات بسيطة داخلية، فإن النزعة الانفرادية والاستقلالية تتزايد بشكل هائل. وأعطى أحد المهندسين مثلاً عن هذه النزعة: في المباني حيث يود كل مستأجر أو صاحب شقة الانفراد بخزان مياهه أو مولده الكهربائي أو آلات التبريد والتسخين الخ. . .، فضاقت العلاقة بين سكان المبنى الواحد واتجهت نحو الفردية الذاتية individualisme. . . .

إلا أن أغلب من يطلب تنفيذ مشاريعه في هذه الاحياء الجديدة، فإنهم من فئة أصحاب رؤوس الأموال والمغتربين، سواء أتركوا بلاد الاغتراب أم لم يتركوها. وربما كان من بينهم من يود مساعدة الأخ المقيم في لبنان بأمواله ليصبح قادراً على البناء المميز، لدرجة أن تصنيفاً للمكاتب الهندسية قد أخذ سيره: فهذا مكتب مختص ببناء القصور وذاك بالفيللات. . . هؤلاء لا يتأثرون

(1) مقابلة مع أحدهم جرت بتاريخ 24/ 3/ 90.

بمسألة الوقت بل بالجودة وبالنوعية (عكس المشاريع التجارية السريعة الانجاز)؛ لأن ذلك تحقيق للحلم داخل الوطن وأغلب لعدم الانصهار في بلد الاغتراب، فيزداد التنافس وتحقيق الأكبر الأجمل.

هذه الأكثرية الاغترابية تتجه نحو المشاريع السكنية الخاصة، والأقلية النادرة تتجه نحو المشاريع المؤسساتية الخدماتية مستشفى/ جامع/ مدرسة/ مصنع.

كل هذا، ساهم بازدياد أسعار الأراضي التي ترافقت مع ارتفاع سعر الدولار فتراوح سعر الدونم ما بين 30,000 دولار و60,000 دولار، ويمكن أن يصل في النبطية إلى 100,000 دولار. وكما سبقت الاشارة فإن الكثير من الأراضي المشاع يتم البناء عليها.

غالباً ما تتزين هذه الأبنية بالحجر الصخري[1] (كزينة وليس كحماية) الأبيض أو الأصفر، وتتزين أيضاً بالقرميد وبأشكال هندسية تتراوح بين **الدوائر والمثلثات والمربعات** التي لا تخلو من **النقاط** ومن اللوالب والتموجات المختلفة... لقد ترك المجال للمهندس للتعبير عن إمكانياته وقدراته الهندسية المعمارية عبر الاكثار من هذه الأشكال في **الخارج** (كتطوير القناطر واستعمالها هندسياً). لا شك من أنها ستبدو علاقة غنى! إنها من جماليات البناء الخارجية الملفتة للنظر، دون أي حساب لتسهيل أمور الخدمة الداخلية. وأغلب أصحاب المشاريع يكون قد تأثر بفيللا غريبة الطراز يريد إعادة بنائها في بلده ليقال «فيللا فلان على نسق فيللا فلان الأجنبي»... وحسب قول المهندسين أن الكثير منهم، لا يميز بين الشرفة وبين السطيحة (Balcon et terrasse)، ويطلب «بلكون» لكل غرفة نوم مقابل هدر مطلق في **المساحات** (تطلب غرفة السفرة أو المدفأة Cheminée للديكور مثلاً، أو أن يزداد اتساع الصالون وعرضه دون أن يدخله أحد)، يحدد رمز الغنى والعز...

ذلك ما يطلبه بحرارة صاحب المشروع!!

أما القناطر فلم تعد لها نفس الأهمية في البناء كما سبق منذ سنوات أو

---

(1) حصل التغيير في استعمال مواد البناء التي انتقلت من الحجر الرملي إلى الباطون المسلح.

يزيد، وتترك الورقة من الباطون في أبنية الفئة الوسطى، والقليل منهم من يعتمد على الغرانوليت والتلبيس. ولقد بدأت المواد البلاستيكية بالظهور، فهي تمنع النش وتسمح لنا بالحصول على اللون الذي نريده، إضافة إلى استعمال الالمنيوم والخشب الذي يزداد الطلب عليه.

هذا ولم يعد لمسألة «العتبة» ـ والتي حل مكانها سفرة الدرج ـ الاهتمام الذي كانت تلاقيه مثلاً، خاصة بعد غلاء المواد وبعد تغير المفاهيم (نريد انجازات أكثر عصرية).

لكن على المهندس أن يراعي مسألة «القبلة» في التوجه، والتي أصبح ينفذها سواء أطلبت منه أم لم تطلب منه (يجب ألاّ يكون مقبلاً أو مديراً). وما يلفت النظر أنه لم تدرج العادة في العمل على إيجاد «مخارج فجأة» (Sorties de secours) أو توجه تقني يحمي من الرطوبة.

بخصوص المساحات المخصصة للاطفال، فإنها لا تُطلب إلا قليلاً؛ ولقد علل ذلك أحد المهندسين إلى أن أغلب من يقوم بالبناء هو صاحب العائلة الكبيرة والتي كبر أولادها، حيث أنه من النادر أن يبني رب العائلة النواتية حالياً مسكناً له[1]. وآخر قال أن صاحب المشروع بفضل اهتمامات أخرى غير التركيز على مساحات لأطفالهم الموجودين.

وفي حال طلبت هذه المساحة، فإنها تكون داخلية في أغلب الاحيان (غرفة الأولاد)، ويستعاض عنها بالحديقة. هذا مع العلم أن اتساع المسكن وتواجد ساحات أمامه أو داخله للعب الأولاد يخفف من عادة الخروج إلى الشوارع والساحات العامة للعب، حيث يمكن لهذا الولد أن يتلقى مبادئ الانفلات والانحراف!

كما أن تخصيص زاوية لمكتبة خاصة في المسكن غير مطلوبة إلا إذا عرضت من قبل المهندس. أما الألوان المختارة ففاقعة، مذهبة، غير متناسقة، وجدرانها عارية من أية لوحة، وزواياها خالية من أية آلة موسيقية (بيانو مثلاً).

ويرى هؤلاء المهندسون، أن المساحات التي تطلبها المرأة أو تخصص

(1) عكس ما ظهر في العينة.

لها فغالباً ما تكون المطبخ أو البلكون وغرفة الجلوس[1]، وتهتم كثيراً بواجهات الستائر وبغرفة المونة وبشكل المسكن الخارجي، ونخص بالذكر «فتحات الأبواب» وإقفالها.

لكن زيارات المهندس تكون من قبل الزوج والزوجة التي تشاركه الرأي، علماً بأن نسبة الثقافة والمستوى التعليمي بين هؤلاء ليست عالية، فالقليلات منهن من يعرفنَ قراءة المسطح أو الخريطة، وغالباً ما تحل الزوجة محل **زوجها المسافر**. وبرأي أحد المهندسين فإنها هي - أي المرأة - المثقفة أكثر من الرجل الذي يقتصر تفكيره على التكاليف والأموال.

ولم يطلب من عينة المهندسين ترميم منزل قديم والمحافظة على معالمه.

إن أزمة السكن، هي أزمة فعلية هناك، رغم كل مظاهر الانفراج العمراني، فشراء المسكن لا يقدم عليه إلا الميسور. كما أن عامل الاستثمار المفروض يدفع المواطن للمخالفة وللمشاكل. هذا ما يراه مهندس منطقة النبطية - الزهراني، الذي يؤكد أنه رغم ذلك، فإن الأصول الهندسية تختفي في العمل، والمطلوب وبإلحاح: التعاون والتنسيق بين مصلحة التنظيم المدني وبين نقابة المهندسين.

وقبل الانتهاء من هذا الفصل، نعرض لبعض آراء ملاكي الابنية والمساكن والمحلات في العينة، والتي بدأ بناء أغلبها مع بداية سنة 1986 م وبفعل أموال: الاغتراب أو الخليج أو الامتلاك (إمتلاك قطعة أرض على الخط العام)[2] أو التجارة (خاصة في العقارات).

---

(1) يلحظ المهندس غياب اللمسات الخاصة في ديكور المنزل، مما يغيّب أيضاً الحميمية والالفة والزمنية (مساكن لا تستدعي أي ماضٍ وأي ذكرى).

(2) بناء على مقابلة مع كاتب عدل النبطية الاستاذ «أحمد شكرون» والتي أجريت بتاريخ 19/ 3/ 90. وقال بأن هناك نوعين من المعاملات التي تسجل عنده: الأولى ذات طابع تجاري (بيع عقارات - أموال منقولة أو غير منقولة)، والثانية ذت طابع نقل وارث من ملكية الأب مثلاً إلى ملكية الابن وما شابه. وتختلف هذه الأنواع تبعاً للأوضاع وللظروف الأمنية والاقتصادية والسياسية. ومهما يكن فإن مسألة البيع والشراء للأراضي خفقت في ظل إقطاعية العائلات الجنوبية الكبيرة.

يتألف أغلب البناء من خمس طبقات، في كل منها شقتان، من الداخل (3 غرف نوم ـ صالون ـ سفرة ـ حمامات ـ مطبخ)، وتتوزع في أسفله المحلات التجارية المختلفة، وصالات العرض والملاجئ.

أعدت هذه الطبقات للسكن العائلي ولاستثمار ما تبقى. ويكون المشروع الأهم، هو إنشاء المحلات في الأسفل، حيث كلما تعددت، ازداد ربح المشروع. وترتفع «بنايات» المغتربين دون أن تباع شققها ودون أن تسبب إشكالات لديهم، خاصة في مشاريعهم في مدينة النبطية التي ازدادت المشاريع فيها بشكل أكبر من حجمها، والتي يوجد فيها الكثير من الشقق الخالية المعروضة للبيع، ـ حسب قول أحد المهندسين ـ وكلها تشكو من امدادات المياه والكهرباء التي لم تعمّ شبكاتها بعد كل المناطق والاحياء الحديثة؛ وعليه فقد ترك أصحاب الشقق منازلهم القديمة داخل مركز البلدة القديم، حتى لو كان مجهزاً بأحدث الوسائل.

استعان جميع هؤلاء الملاكين بمهندس مشرف ينفذ مشاريعهم من الجنوب «الذي كان منبوذاً وخالياً من المصانع ومن التوجيه، لكن وللأسف فإن أساس هذه المشاريع أعمال فردية ترد لمصلحة الفرد ذاته وليس للمصلحة العامة»[1].

---

(1) مقابلة مع أحد الملاكين، أجريت بتاريخ 23/ 3/ 1990.



الفصل الحادي عشر

ملاحظات على هامش الزيارات الميدانية الاستطلاعية

تمكّنا عبر زياراتنا الميدانية الاستطلاعية الأولية من تشكيل سلسلة من الملاحظات تتلخص بالنقاط التالية:

1 ـ إن الرخاء ينتج العمران، والرخاء هنا هو رخاء مادي مصطحب بلا مركزية اقتصادية، إرتفعت معه البنايات وكَثُرَت امتداداً رغم الأوضاع العامة في البلد كله.

يأتي هذا الرخاء من بلاد الاغتراب. . . ويعيشه المقيم، لأنه رخاء طال تفاصيل الحياة اليومية بأكملها. الكل، مثقفاً كان أو غير مثقف، يتحدث عنها ويحتار كيف يحلل ويلخص ملاحظاته. ويُتوقع أن يزداد لجوء أموال الاغتراب إلى الوطن الأم في حال استمرت سياسة الاضطهاد والتهجير والإبعاد لمغتربي افريقيا.

ويبقى الدور الفعال لتجار الدولار من أثرياء الحرب أو سماسرة الأراضي (تلك التجارة التي ازدهرت بفعل الحرب وهي ذات كسب سريع) في القفزة العمرانية التي اكتسحت كل قرى العينة ما عدا «بفروه» التي شكلت نموذجاً مختلفاً إلى حد ما، نظراً لوضعها كأقلية في المنطقة.

2 ـ أجمع الكل في المنطقة على أن نشوء العمران بدأ يزداد مع ترك الفلسطينيين للأرض الجنوبية، «بعد تجذر الوجود الفلسطيني المتغلب على إرادة أهل المنطقة وليس أهل القرية فقط، ودفعنا هنا إلى النزوح إلى بيروت بداعي الخوف، ولم يبق سوى 10٪ من السكان. إلا أنه بعد حرب الشرقيتين، رجع إلى «بفروه» مثلاً 75٪ من الناس. وبعد الدخول الاسرائيلي لم يعد

بإمكان الأهالي أن يتحملوا التشرد أكثر، فأكثر فالتصقوا بالأرض وامتدوا في مواجهة القصف الاسرائيلي»[1].

3 ـ وجود التنافس والغيرة ما بين القرى ـ البلدات من جهة وبين هذه القرى ـ البلدات ومدينة النبطية من جهة أخرى.

4 ـ النهضة أو الطفرة العمرانية هذه، خلت من القيم ودحرتها؛ إذ أن الجميع اشتكوا غياب القيم والأصول وأخلاق المحبة والتسامح وتغير النفوس... لقد عبّر عنها بوضوح مختار حبوش، وقائمقام النبطية، ومختار دير الزهراني.

لقد ألغت هذه الطفرة المرفقة بظروف أخرى صورة «الوجيه» أو «البيك» أو حتى «المختار»، فالكل يتساوى، وزالت الفروقات الاجتماعية، وحتى المهنية: الأجيال تتراتب هنا وجيل الآباء يرفض توجه جيل الابناء نحو نفس مهنتهم كتربية الماشية أو امتلاكها مثلاً قائلاً له: «تعلم يا بني واعمل على جمع المال... ففلان مش أحسن منا... ليش بدنا نزوره كلما عاد من المدينة... أيام زمان راحت...».

5 ـ شكا الكثير من قلة المياه بفعل ازدياد المعامل وكثافة السكان والعمران. هذا نفسه ينطبق على مسألة الكهرباء، «فصاحب القصر يسرق الكهرباء ولا يدفع أي شيء بالمقابل، ولا يأتي بمحطة خاصة...»، حسب قول محافظ النبطية.

وفي غياب البلديات تظهر مشكلة أكثر تفاقماً هي مشكلة رمي النفايات؛ إذ أن تناقض عمال البلديات الذين لا يقومون إلا بتكنيس وتنظيف ساحة البلدة وبعض شوارعها، يدفع الأهل إلى رميها على الطريق العام أو إلى حرقها بأنفسهم.

6 ـ **إنعدام للثروتين الحيوانية والزراعية** في منطقة النبطية، رافقها قلة في عدد الاطباء البيطريين والمهندسين الزراعيين المقيمين.

في ما خص **الثروة الحيوانية**، فقد بدأت تقل ما بين 1985 و1986 م مع

---

(1) المقابلة التي جرت في بفروه.

غلاء كلفة التربية؛ ويعود ذلك إلى أن العارف بهذه الثروة لديه الامكانيات لبناء مزرعة، ومن معه الإمكانية قلت لديه الخبرة، ومن كان يهتم بالحيوان قديماً كبُر وشاخ حالياً ولم يعلّم ابنه المهنة والتوجه.

ومع غلاء التكلفة وانتظار مردود التربية توجهت الانظار إلى رأس المال والبناء والعمار حيث يتسارع الانتاج ويتكاثر المال، فانقرضت معه الثروة الحيوانية.

وتقل المزارع الحيوانية الخاصة[1] في بلدات العينة، إذا لم نقل أنها غير متواجدة وحلّ مكانها المزارع الزراعية التي تنتشر في بلدة زفتا بالتحديد.

ولإعادة تحسين الثروة الحيوانية يجب العمل على صعيدين:

أ ـ نقابي، يحفظ حقوق المزارعين والأطباء على السواء، وينشر التوعية، ويراقب الثروة، ويحث الاسرة على تنمية التربية الزراعية الحيوانية لديهم.

ب ـ رسمي، يشرف على الأدوية، ويؤمن اللقاح، ويساعد على وعي خطر انقراض الثروة الحيوانية

أما في ما يخص الثروة الزراعية التي هي في إنقراض مستمر أيضاً، فإن الأراضي الزراعية يَحلُ محلها البناء والعمار.

ومع إنقراض زراعة التبغ، إنقرضت باقي أنواع الزراعات التي يُعمل حالياً على استبدالها بالخيم البلاستيكية، والتي يرى أحد المهندسين الزراعيين المقيمين هناك أن الخط العام النبطية ـ الزهراني قادم على كثافة لها[2]. لقد ازداد الجهل في هذا المضمار وقلّ التوجه نحو الهندسة الزراعية[3] التي تزداد كلفتها، وحلّ محلها التوجه الأكاديمي نحو الهندسة المعمارية أو السفر أو المهنة التي تدرّ الربح الوفير. لذا فإننا نجد أن نسبة المهندسين الزراعيين قليلة جداً في الجنوب.

---

(1) يمكن وبهذا الخصوص مراجعة الفصل التاسع عن المحافظة ـ النبطية.

(2) مقابلة أجريت بتاريخ 21/ 3/ 90 ـ وقد عمل على إقامة العديد من المحاضرات (بدعوة من نادي النبطية وغيره)، لتحسين وضعية المزارع ولتشكيل نقابة واتحاد فلاحين ولتأمين آبار للمياه.

(3) نلفت النظر إلى أن تجربة الجامعة اللبنانية تجربة حديثة جداً في هذا الميدان.

إن عدم وجود نقابة للمهندسين الزراعيين ولمزارعي الخيم بشكل خاص، وانعدام فكرة التعاونية الزراعية يؤثر سلباً على الجهود والشخصية.

7 ـ أما الصناعة فقد بدأت تشق طريقها في بلدات العينة التي لم تتحول كلياً إلى النمط الصناعي[1] الذي يقوم بدوره أيضاً على مبادرات فردية. لقد انتشرت الحرفة والمهنة أكثر مما مضى، وتواجدت محلات «الحدادة» و«البويا» وكافة أنواع ميكانيك السيارات «والأفران بكثرة على خط العينة. تحوّل الماهر أو المتدرب على مهنة الخياطة، إلى العمل في مصانع الألبسة الجاهزة.

وتقدمت التجارة، وكثرت المحلات التجارية على أنواعها، وازدادت المضاربة بين أفرادها، كما لم تغب عنا مكاتب بيع الأراضي والمكاتب العقارية. نذكر أن تجارة كافة مواد البناء هي تجارة ناشطة طوال الخط وتحظى بالمضاربة القوية.

ويمكن القول، أن كل هذه القطاعات ـ التي سبقت الاشارة اليها ـ هي قطاعات حديثة ساهمت في انتاج **مجال** حديث (مجال اجتماعي عام)، يبتعد عن الفكر القروي وعاداته ويقترب من التفكير المديني ويبني علاقاته على أساس العرض والطلب. كما أنه يقيمُ العلاقات من منظور المنفعة الخاصة وليس المنفعة العامة. إنه مجال حرفي أكثر منه مجالاً علمياً، الحرفة فيه والمال هما المحددان. وإذا كان المجال العام له هذه المواصفات الُتي سنفصلها لاحقاً ـ فكيف يتكون المجال النفساني الخاص؟

هذا ما ستجيب عليه الدراسة الاستطلاعية (الاستمارة)!!

8 ـ نلحظ إقبالاً متزايداً على ظاهرة «المقاهي» التي تعتبر برأي الكثير من الأهالي «ظاهرة مسيحية ربما حلّت مكان الساحة القديمة...».

لكننا ومن ناحية تاريخية، نجد أن المقهى ظاهرة قديمة في بلدات جبل عامل وحتى في قراه. و«الاستراحات» في الخمسينات والستينات كانت «صحارى» «القثاء» و«الخيار» وعرزالات الكروم. تلك كانت أماكن اللقاء

(1) يمكن العودة إلى الفصل التاسع الذي عرض للصناعات الحديثة التي تقوم على الخط العام وفي منطقة النبطية بشكل عام.

والحوار (أماكن الاحبة والأصدقاء والأقارب الخ...)، لكن أشكالها ومواقعها ووظائفها قد تغيرت وتبدلت مدخلة النمط الأوروبي خصوصاً على شكلها وهندستها. هذه المقاهي الحديثة الحلة، كثرت على خط عام دير الزهراني؛ فالمنطقة تتكاثف سكانياً، واضطر الكثير إلى اللجوء اليها، وقلّت نسبياً معها ظاهرة الحجاب، وأصبح المقهى أو المنتزه مكاناً للقاء الشباب والصبايا[1].

هذا وحسب قول مختار دير الزهراني السابق، إن مشاريع الاستراحات والمنتزهات مستمر ويتكاثر الاقبال عليها، يقابله إقبال على ظاهرة محلات **«بيع الورود»**[2].

كما ازداد الاقبال على محلات التزين النسائي...

ومن ناحية اجتماعية، ونرى أن مسائل الترفيه والتسلية وتمضية أوقات الفراغ لا تظهر إلا نتيجة راحة أساسية، إنها دليل ارتياح واستقلالية ورخاء حسْبما عبر عنها J.Dumazedier في كافة كتبه[3].

9 ـ لقد كان لمحافظ النبطية السابق ـ والذي كان محافظاً أصيلاً لدى القيام بالمقابلة معه ـ ولمسؤول التنظيم المدني في المحافظة رأي في هذه **الطفرة العمرانية**.

يرى **المحافظ** أن الطابع التجاري هو الذي يطغى هنا، «فالشخص الذي يستثمر من هذا المجال، يتوخى الربح السريع ويحاول بيع المحلات والشقق على **«العظم»**، فيكون ثمن الشقة والمحل قد انتهى منه بمجرد انتهائه من عملية البناء (بالدولار الأميركي). ولا يختلف هذا الأمر كثيراً عن مسألة تختلف عن تجارة الدولار التي اعتبرها متناغمة وموازية لها ومردودها لا يعود إلاّ على صاحبها: يبيع مرة واحدة ويربح مرة واحدة.

---

(1) يتواجد في دير الزهراني وحدها 4 منتزهات أو استراحات، تتجمع في الكثير من الأحيان بين المطعم والمقهى، أهمها منتزه الشقيف الذي خصص أماكن كثيرة من مساحته للصغار ولألعابهم، وهذا ما لا يتواجد حتى في بيروت حسبما قالت صاحبة المنتزه، ولدى تأسيسها له سنة 1989، إذ كانت بيروت غارقة في اضطراباتها الأمنية والسياسية.

(2) مقابلة أجريت بتاريخ 19/ 3/ 90.

(3) ونخص بالذكر كتاب: J. Dumazedier. Vers une civilisation de loisir? éd. du seuil paris 1962.

هل هو يفيد الآخرين لأنه يعين حارساً أو حجاباً؟ في وقت تهمل فيه كل المشاريع الصناعية التي يمكن أن توفر العمل لليد العاملة؟

أما رأي المهندس المسؤول عن التنظيم المدني[1]، فيتجه صوب سياسة التنظيم المدني إلى تقيد البناء وتمنع المخالفات، إلا أن المشكلة تكمن في تجاوزات هذه القوانين داخل النبطية وخارجها؛ مما يساعد على ارتفاع قيمة الأرض وصعوبة الحصول عليها لأي كان.

إن قانون البناء في المنطقة يجب ألا يتجاوز الثلاث طبقات، وذلك بموجب تصميم توجيهي عام يحدّد الاستثمار السطحي والاستثمار العام.

ولقد تم استحداث قوانين، آخرهما كان قانون تسوية سنة 1985 م يحدّد الاستثمار السطحي وعدم التعديات على الاملاك العامة تحت طائلة دفع غرامات كبيرة. . . وصف مهندس التنظيم المدني، إن الناس يأملون باستصدار قانون تسوية جديدة.

10 ـ إنعكست الفوضى في المجال العام، والتي برزت خلال الزيارات الميدانية على فوضى في المجال السكني، أول سماته نقصٌ في التخطيط وغياب للرقابة.

لقد أتى هذا المجال وللوهلة الأولى مقسماً بشكل مدروس (أهل ـ أولاد الخ. . .)، عكس المساكن القديمة التي كان ينقصها غرف وتوزيع فردي، وقد أدى هذا التقسيم الحديث إلى تفتح أذهان الأولاد وابتعادهم عن الانجراف الجنسي المبكر الذي يمكن أن يحصل في التقسيم القديم لانحصار الاسرة كلها في غرفة واحدة. لكنه هل أمن من ناحية أخرى سلامة تربية الأولاد وراحة عيشهم؟ وهل هو المسكن/ الحلم «لباشلار»، بعد التحول في المسكن الزراعي؟

إنه مسكن لم يعد يحاكي الشعور والحس بقدر ما يحاكي المركز ويدخل في صلب المادة التي لم تكن وسيلة للتغيير بل أصبحت غاية.

وتساوى الافراد بالبناء، ولم تعد مسألة الارتفاع فيه هماً، بل استبدل

(1) مقابلة مع المهندس عزيز مهنا ـ أجريت بتاريخ 22/ 3/ 90.

الارتفاع الداخلي والخارجي (درجات للدخول ـ الدبلكس ـ التربلكس. . .)، ولم تتقيد وجهة البناء بأيّ توجّه أو بأي تصميم سابق. ما عدا الحمام الذي أخذ بعين الاعتبار وجهة النظر الدينية.

وبناء على هذا الواقع، أتت الطفرة «عملية تخريب» وليس عملية نهضة، حسبما قال أحد المهندسين، الذي رد على أحد المغتربين الذين قالوا «إننا عمرنا البلد». . . فالأموال ابتعدت عن المشاريع العامة والصناعية والصحية والتربوية، واستغلت أموال المغتربين أسوأ استغلال».



الفصل الثاني عشر

كيف رسم الطفل مسكنه؟

إنها رسوم بعض أطفال عينة البحث، ووصلت إلى الأربعين.

توزع هذا العدد على صفوف الرابع الابتدائي لمدرسة رسمية ولأخرى خاصة، تقعان في داخل العينة المدروسة، بحيث طلب من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 9 و11 سنة رسم مسكنهم أو أي حيز محبب لهم من داخل هذا المسكن، سواء أكان هذا الحيز خارجياً أم داخلياً[1].

وقبل أن نقسم هذه الرسوم إلى أنواع، وقبل أن ندخل في إشاراتها ورموزها ودلالاتها، سنقدم هذه التقنية من حيث مصدرها ومرتكزاتها وحدودها.

I ـ تقديم التقنية

1 ـ ما معنى كلمة رسم؟

إشتقت كلمة رسم أو dessin من كلمة لاتينية Signum أو Signe أو Signal وهي تعني الاشارة أو العلامة. إنها صورة مرسومة ومخططة بخطوط أنجزت بواسطة الريشة أو القلم أو الفرشاة، ويمكن أن تقدّم شكل شيء أو شخص أو منظر طبيعي نراه أو نتخيله[2].

ويكون نتاج الرسام فناً مدروساً. أما عند الأطفال والأولاد فيصبح لغة ووسيلة لتجسيد الفكر ولتقديم قصة بدون كلام، حسبما قدّم من قِبَلِ

---

(1) اختبار أجري بتاريخ 21ـ 22/ 3/ 90.

(2) P. Foulquié- Dictionnaire de la langue pédagogique. P.U.F. Paris 1971 p 40.

G.Naidenoff[1]. وتختلف علاقة الطفل مع الرسم بعلاقته مع استاذه، حيث أنه يسيطر في الثانية الاغراق في التعبير الكلامي وفي القراءات والأحكام؛ أما في الأولى فيكون العكس، إذ أن الطفل يعمل ويعبر في الجزء الأكبر من الحصة[2].

2 ـ تطور مفهوم الرسم

وكما حددت الفقرة السابقة، فإننا نفصل ما بين الرسام ـ الفنان البالغ الذي يرتكز في انتاجه على قاعدة فنية معيارية لا تفلت من إطار الاسقاط والرغبات، وما بين رسوم الأطفال ـ موضوع الفصل.

توازي تطور الخط والبيان عند الطفل بتطوره النفسي ـ الحركي Psychomoteur. يتم هذا التطور تدريجياً ولكن بسرعة ملحوظة ليحدد نمط الطفل الخاص به؛ ذلك أن الطفل، وفي مرحلة من تطوره، يكتسب توازناً جديداً يجيب على المتطلبات الحديثة التي يعيشها والتي يدركها. إنه لا ينسخ الواقع بل يعيشه، ويخرج عبر خطوطه، خاصية هذا الواقع المعاش. إن الطفل وبواسطة الصورة يطابق الواقع مع حقيقته الداخلية التي يبنيها على هذه المساحة البيضاء: الورقة[3].

من خصوصيات أسلوب الطفل[4]:

- الشفافية أو تصوير الداخل والخارج معاً.
- التنقيص أو تنوع نقاط التقارب وزوايا المقاربة.
- تخطيط التفاصيل وتراصفها في مسطح واحد أو أكثر.

3 ـ التعريف النفسي للرسم

قبل أن نورد موقف علم النفس من مسألة الرسم، نستنتج أن كل ما سبق

---

(1) المصدر نفسه ـ ص 40.

(2) Cl, Jeanmart, cahiers Pédagogiques. no. 72, p. 25.

(3) Léla. Chikani-Nacouz. L'expression d'une guerre à travers des dessins d'enfants de sept à douze ans. in, La femme Libanaise témoin de la guerre. Mission de la ligue arabe à paris. 1987. p. 40.

(4) المصدر نفسه ـ ص 40.

وتقدم من تعريفات وشروحات أخذ بعين الاعتبار نفس الطفل ومكنوناته الداخلية.

تتجاوز كلمة رسم في علم النفس حصر التصوير بالقلم وبالريشة، وتعنى باللوحات المائية والعادية. يرى Anzieu أن الرسم يطلق المجال أمام الرغبات غير المشبعة على صعيد الواقع. إنه يحقق الحلم والرغبة، ويحمل وظيفة وقدرة سحرية عند الولد الذي يفتش عن الاقتناء أو التملك أو الحيازة. . . إنه نوع من استلاب الشكل والأشخاص الذين يميل في تقديمهم أو الاتصال بهم[1].

يستخدم علماء النفس الرسم لفئة المراهقين والبالغين بعد فحص أولي وكعنصر تشخيص ووسيلة لاقامة العلاقة معهم. أما عند الأطفال، فيعتبر عالم النفس، أن الرسم هو وسيلة التعبير المفضلة، ويستخدمه كاختيار قياس النمو العقلي وكوسيلة لدراسة الشخصية.

وحتى سن الثلاث أو الأربع سنوات، فإن الطفل لا يعرف سوى «الخربشة». وبعد هذا السن، يبدأ بخط الخطوط غير المنتظمة والدوائر والمربعات، وفي سن الخامسة تبدأ هذه الرسوم الهندسية بالتجمع لتجسد صور أشياء محببة (المسكن ـ القطار ـ السيارة ـ الخ. . .).

أما في سن السادسة، فيبدأ الطفل بتنظيم مجموعة الأشياء حول موضوع محدد (المزرعة والحيوانات مثلاً). . . في الثامنة تظهر ميوله للأشكال وللأبعاد (جبل ـ طريق). **ما بين التاسعة والحادية عشرة ـ وهي سن الأطفال الذين رسموا في هذا البحث ـ يظهر دور الظلال والربط ومزج الألوان[2]. . . إنها مرحلة الشفافية.**

كنتيجة، ومهما كانت رسومات الأطفال متشابهة تبعاً لكل عمر، فإن الرسم يعلمنا عن مستوى فكري محدد.

في أميركا، اعتبر اختبار F.Goodenough (1886 ـ 1959 م) اختباراً

---

(1) P. Foulquiè ـ المصدر نفسه ـ ص 1128.

(2) N. Sillamey- Dictionnaire usuel de psychologie- Bordas- Paris 1983. p 199.

جديداً (Le dessin du bonhomme) سمح بتحديد سريع للنمو العقلي للطفل ما بين 3 و13 سنة. بعدها وفي سنة 1963 م، طبع D.B.Harris اختباراً آخر (Goodenough-Harris of drawing test) يطلب من الطفل رسم: رجل - امرأة - ذاته، واستحوذ هذا الاختبار على الثقة، أكثر من ذاك الذي نقيم الطفل فيه من خلال رسم واحد[1].

ويمكن أن يطلب من الولد - كي نقيم صفاته أن يرسم لنا رسماً حراً (dessin Libre) لشجرة أو لغيرها. وكان اختبار الشجرة (le dessin de l'arbre) المأخوذ من عالم النفس السويسري (1906 - 1958 م)، والذي تميز بسهولته وتسليته، لكنه ارتكز على علم نفس معقد ومستعار من Yung، فكانت صلاحيته غير كافية.

نذكر سريعاً، من الاختبارات الأخرى الرائجة: اختبار الاسرة (Le test de la famille) - اختبار الوضعيات الاسرية وغيره من الاختبارات التي تأخذ بعين الاعتبار شكل الرسم ومحتواه الرمزي الذي يمت لعالم الطفولة ولتجاربه الواقعية[2].

4 - حدود التقنية

لتقنية الرسم قيمة إسقاطية، إنه يُعبّر عن حالة عاطفية وعن عالم التخيل عند الطفل الذي يسقط صراعاته ورغباته ومكبوتاته، فيصبح رسمه معطى مادياً غنياً مقدماً للتأويل التحليلي.

إنه، وبمعنى آخر، تقنية اسقاطية، تبرز وتكشف الشخصية من خلال تقديم منبّه يحمل بعض العلامات الاخبارية كي يحدث جواباً حراً قدر الامكان[3].

إنها - إلى جانب بقية التقنيات الاسقاطية - تجارب مهمة، ولكن لا يمكن الادعاء بأنها كافية لاستنباط ولمعرفة جوانب الشخصية كافة. ولقد جرت العادة

(1) المصدر نفسه ص 199.

(2) المصدر السابق - ص 199.

(3) المصدر نفسه ص 528.

أن يتخصص عالم النفس العيادي (Le psychologue clinicien) باثنين أو ثلاثة كي يتعرف إلى مؤشرات منسجمة عن الشخصية التي يدرسها. لكن الحذر أساسي في الاستنتاج والنتائج المتصفة بجزئيتها وليس بكليتها، فيحكم عليها بالليونة التي لا تتجاوز فرضيات العمل. وبناء عليه يجب اللجوء إلى تقنيات أخرى مساعدة تدخلنا إلى أعماق النفس التي ندرسها[1].

نقول أخيراً أن تقنية الرسم هي وسيلة اختبار تكفي لفهم جانب من الشخصية (العلائقية ـ الوضعية ـ الذكاء). ويمكن أن يضاف اليها اختبارات أخرى سبق ذكرها. وتدخل في مجال التقنيات الاسقاطية التي لا تخلو من محاذير الانكماش أو الانفلات لدى تطبيقها = techniques Projectives) méthode retractive)[2].

II ـ كيفية تطبيق التقنية على فكرة المسكن؟

1 ـ فرانسوا منكوفسكا F. Menkofska

يعرض Bachelard، في كتابه «جماليات المكان»، أهمية البيت، فهو أكثر من منظر طبيعي، إنه حالة نفسية، ويقول بأن الصورة البسيطة والعظيمة تكشف عن حالة نفسية. وقال أن علماء النفس بشكل عام، وفرانسوا منكوفسكا، بشكل خاص، درسوا مع الذين نجحوا في اثارة اهتمامهم بالموضوع، **صور البيوت التي يرسمها الأطفال واستعملوا هذه الرسوم كوسائل اختبار** «وميزة البيت كمادة للتجارب، إنه ـ البيت ـ يعشق التلقائية؛ لأن الكثير من الأطفال يرسمون البيوت بتلقائية وهم يحملون مع الأوراق والأقلام»[3]. ولقد استعان بقول «لآن باليف» بهذا الصدد:

«عندما تطلب من الطفل أن يرسم بيته، فإنك تطلب اليه أن يكشف لك عن أعمق حلم للملجأ الذي يرى فيه سعادته. إن كان الطفل سعيداً سوف

---

(1) المصدر نفسه ص 528.

(2) إذا أردنا تحليل الطفل، لا يجب الاكتفاء بالطلب اليه الرسم فقط! أما في وضعية الدراسة الحالية، فهو اختيار يعطينا الدلالة والرمز والاشارة الخاصة بالمسكن وكيفية رؤية الطفل له.

(3) غاستون باشلار: جماليات المكان ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 86.

نرسم بيتاً مريحاً، تتوفر فيه الحماية والأمن، بيتاً مبنياً على أساسات عميقة الجذور»[1].

وحين يكون البيت سعيداً، فإننا نرى دخاناً ناعماً يتصاعد في حلقات مرحة فوق السقف، ويمكن أن نرى بوضوح دفء الداخل «ناراً مشتعلة وكبيرة إلى حد أنها تخرج من المدخنة»[2].

وحين يكون الطفل تعيساً، فإن البيت يحمل آثار التعاسة.

لقد نظمت منكوفسكا ـ التي أطلق عليها «باشلار» لقب عالمة نفس بيوت، معرضاً لرسوم الأطفال البولنديين واليهود الذين تعرضوا للقطاعات النازية خلال فترة الاحتلال الألماني.

واحد من هؤلاء الأطفال الذي كان يتم إخفاؤه في خزانة ضيقة حين يقوم الألمان بالتفتيش، استمر يرسم بيوتاً ضيقة، باردة ومنغلقة لفترة طويلة بعد انتهاء الحرب. فأطلقت منكوفسكا على هذه البيوت اسم «الساكنة»[3]. وتقول عنها أنها متصلبة، وظهرت صلابتها في ستائرها وأشجارها المستقيمة[4].

ولاحظت في رسم طفل في الثامنة، أن هناك مقبضاً للباب، واستنتجت أن هناك أناساً يدخلونه ويعيشون فيه. «إنه ليس مجرد بيت مبني، بل هو مسكون»[5].

2 ـ رابوبور **Rapoport**

في كتابه Anthropologie de la maison ـ تجربة رسوم أطفال أقيمت في لندن ومأخوذة عن: **Cowburn, popular Housng, Aréna, Sept, oct 1966**.

حيث رسم أطفالٌ لندنيون عاشوا وترعرعوا في حيين للسكن الجماعي (immeubles collectifs) صورة مسكن مستقل معزول، ويقترب من حيث مواصفاته للقصر الصغير: إنه رسم مرتكز على المرجع ـ الحلم الذي يريده

---

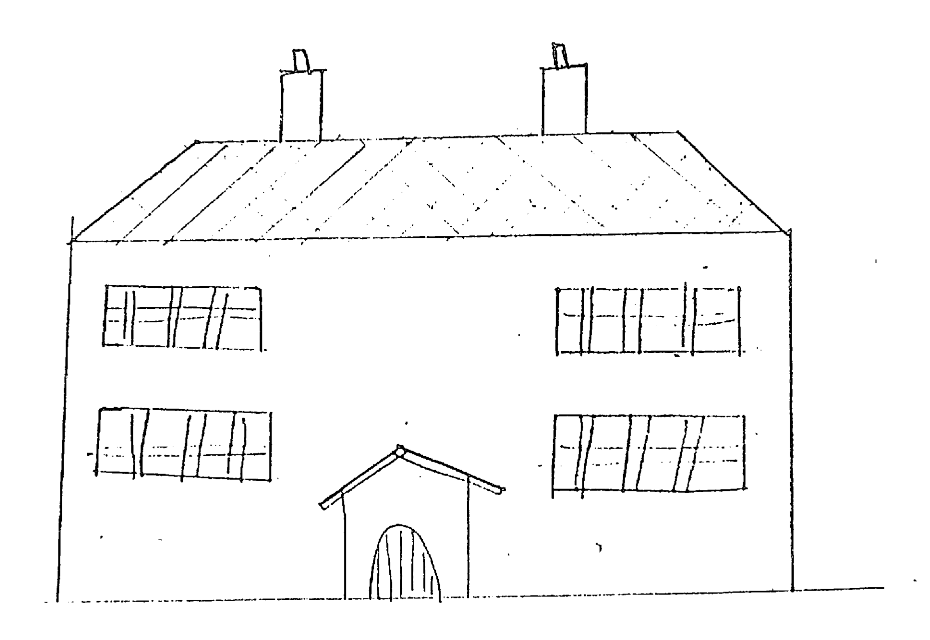
(1) (2) غاستون باشلار: جماليات المكان ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 86.

(3) المصدر نفسه ـ ص 87.

(4) (5) المصدر نفسه ـ ص 87.

هؤلاء الأطفال لانفسهم[1].

وأتى الرسم على الشكل التالي:



3 ـ مارك O. Marc

اعتبر «مارك» أن رسم المسكن هو من رسومات الطفل الأولى، وهو عندما يرسم المسكن، فهو لا يستعين بأي موديل خارجي بل يستوحي من كل ما يراه ويعيشه. فهو يقرب الحقيقة عبر رؤياه الخاصة للأشكال.

يرسم الطفل أو الولد، ليعبر، ليخرج إدراكاته الداخلية، فيصبح مسكنه المصور أو المرسوم بمثابة القياس الذي يقيس **الموديل الداخلي** القابع في أعماقه.

ويرى «مارك» أنه يرسم بطن أمه ليخرجها للوجود ولكي يجعلها آنية، ليحسها وليدركها أكثر. كي يتأكد من أنه لم يضيعها. فبالرسم يخفف الطفل قلقه، ويحس بأنه خلاق وساحر؛ إذ يقوم بعملية استخراج لمواقفه الداخلية

(1) مصدر سبق ذكره A. Rapoport une anthropologie de la maison ص 186.

كي يعيشها في نهاره، في حقيقته وفي واقعه[1].

إن الرسم - بالنسبة «لمارك» - هو إعادة خلق وتحرير من القلق[2] الذي يمكن أن يسكن المولد، والذي لا يتمكن من تجنبه.

إن الرسم تعبير عن الكون وعن النزعات والنزوات، ينطلق من فكرة أساسية يعبر عنها في البداية «بخرطشات» مبهمة ما تلبث أن تنتظم في خطوط. أو عندما يرسم الطفل فهو يرسم «أناه» بكل هواجسه ووساوسه[3]، إنه يرسم ملاذه الذي يميزه بشكل أولي السطح - قبل الدخول في تفاصيل الجزئيات - لأن المسكن بدون سطح هو كالجسم بدون فكر.

4 - عناصر رسومات المسكن ودلالاتها النفسية

لقد طلبت من أطفال العينة رسم مساكنهم (فرسمها أغلبيتهم، أما الباقي فقد اختار التركيز على بعض التفاصيل: فرن غاز - غرفة نوم - حديقة[4]، والتركيز على التفاصيل يمكن أن يعني تواجد مشاكل عاطفية ما).

مما هو ملفت للنظر أن الأغلبية قد أدخلوا **الألوان الزاهية** في رسوماتهم؛ وهذا يعني الغبطة والسعادة. أما غياب الألوان فيعني الكبت والكبح inhibition. نأتي الآن لذكر سريع لأهم العناصر المتواترة في رسم المسكن ولدلالاتها:

- **السطح** : يعني الطمأنينة والأمان والحماية.

- **الباب** : متغير العلاقة الاجتماعية والبعد العلائقي، ويظهر بتفسيرات مختلفة تبعاً لوضعيتي: الفتح والاغلاق، الداخل والخارج.

إن حركة الفتح هي حركة نحو الخارج تنفي الخصوصية، لكنها لا تنفي الوضعية العلائقية المرضية، أما حركة الاغلاق فهي حركة أكثر حدة وصرامة من حركة الفتح، إنها تعني الداخل، كما تعني الهوس؛ لأن الخارج هو مصدر الخطر.

---

(1) O. Marc مصدر سبق ذكره.

(2) حالة الرسم تُخرج وتُهدئ من القلق.

(3) المصدر نفسه - ص 51.

(4) الداخل والخارج. والخارج هنا يعني الاستعراض والاظهار Exhibition.

لكن الحركة ما بين الاغلاق والفتح (1/2 باب مفتوح) تعني تواجد الباب ـ الدفاع الذي يمكن أن نتحكم به في إغلاقه أو فتحه كيفما نشاء وساعة نشاء.

ـ **النافذة**: تظهر في أحيان كثيرة أهم من الباب؛ لأنها تعني الداخل أكثر، وبالتالي هي تعني علاقة الذات بالداخل. ويجب رصد حركة فتحها إذا ما كانت نحو الخارج أو نحو الداخل. إن وظيفة الفتح والاغلاق هي حركية يمكن أن ينساها الأطفال الموترون.

ـ **مقبض الباب**: يعني تواجد الناس ودخولهم للمسكن وله دلالة وظيفية.

ـ **مفتاح الباب**: إنه المفتاح الذي يغلق أكثر مما يفتح؛ لأن المقبض هو الذي يفتح أكثر مما يغلق...

ـ **الأشخاص**: تواجدهم مهم من الناحية العلائقية (إنغلاق نفسي).

III ـ كيف رسم الطفل مسكنه؟

1 ـ العناصر الدالة

إعتمدنا في تحليلنا لمضمون رسومات الأطفال التي حصلنا عليها على مستويين:

أ ـ الشكل: ـ الألوان = تواجدها + عدم تواجدها.

ـ التفاصيل = تواجدها (ما هي) + عدم تواجدها.

ـ السطح.

ـ الانجاز (رسم منجز أم غير منجز).

ـ الاشخاص ـ جنسهم.

ب ـ المضمون: توسع Expension وانطواء Introversion: (من خلال مؤشر المساحة)

ـ مفتوح ومغلق (العلائقي).

ـ داخل وخارج (الاستعراضي).

2 ـ جدول مقاربة الرسومات

الشكل						المضمون				
استعمال	تواجد	تواجد	الانجاز في الرسم	تواجد الاشخاص		التمدد أو الانكماش المساحة	الملائقية		الاستعراضية[1]	
الألوان	التفاصيل	السطح		ذكر	أنثى		مغلق[2]	مفتوح[3]	داخل	خارج
30	23[4]	30[5]	30	8	6	35	33	7	18	30
				14			40		48[6]	
40	40	40	40	40		40	40			

جدول رقم ـ 3 ـ

(1) أغلب رسومات السطح كانت مسطحة وغير مثلثة.

(2) البابـأو النوافذ وحركتا الاغلاق والفتح. وإذا لم يرسم الطفل مقبض الباب أو الشباك فإنه رسم مقبض الخزانة.

(3) المرجع نفسه.

(4) تواجد مقبض الباب ـ الطاولة ـ الكرسي ـ الخزانة ـ فرن الغاز . . .

(5) ظهر في أغلب الرسومات الداخل والخارج معاً، فالمجموع 48 يعود لنفس عدد الرسوم، لكنه يحمل صفة التكرار لبعض منها.

(6) راجع هامش رقم (1).

كنتيجة لقراءة الجدول، نجد أن استعمال **الألوان الزاهية** خاصة، كان طاغياً في الرسومات ما عدا تلك التي اقتصرت خطوطها على اللون الرصاصي.

إلا أن النصف تقريباً ـ ممن طلب إليهم رسم مساكنهم ـ ركز على التفاصيل التي يمكن أن تكون خارجية وداخلية في نفس الوقت. وما دمنا نتعرض للداخل وللخارج، فإن الخارج قد سيطر في أغلب الرسومات الموجودة بين أيدينا، والتي أنجزت بنسبة كبيرة منها، والتي شكل **التمدّد المساحاتي** الاستعراضي أحد أهم ميزاتها.

أما **الأشخاص** فقد قلوا بنسبة كبيرة في الرسومات، وكان غالباً ما يختلط علينا جنسهم، ومع ذلك فإن بروز الجنس الذكر كان غالباً (بحدود النسبة الموجودة)، لكن وجود الجنس الأنثى لم يكن غائباً. وتبدو لنا مسألة العلائقية معدومة في رسومات العينة؛ لأن كافة الأبواب والنوافذ رصدت تقريباً (فُتِحَ منها 7 فقط).

3 ـ تحليل رسومات الأطفال

سنقسم أولاً أطفال هذه الرسوم إلى ثلاثة أنماط:

أ ـ النمط الحسي: الذي طغى عليه الاهتمام بالعالم وبالجمال الخارجي، حيث أوحى بغنى مادي واضح. وكانت تأتي **الحديقة** في أغلب الأحيان أهم من داخل المسكن. وظهر في هذا النمط غنى في الخيال مع قدرات إبداعية، وفُتِّشَ عن الحب، ورسمت معه القلوب على الشبابيك مثلاً. وكانت الألوان زاهية فرحة توحي بالتفاؤل وبالانبساط.

ب ـ النمط العقلاني: حيث كان الاهتمام بالتقسيم الهندسي الأنيق الذي وضع في داخله بعضاً من الحياة. وغالباً ما أتى هذا التوجه كمحاولة لتغطية بعض المشاكل الداخلية، حيث رسم الخارج بإعطائه أهمية مطلقة عبر الأشكال الهندسية الموزعة بأناقة مفرطة. وربما كانت هذه المحاولات عبارة عن تغطية الميول العاطفية المكبوتة، فطغت التقنية والهندسية.

ج ـ النمط العاطفي: كبت البعض عواطفه وأحاسيسه من خلال عدم تواجد الألوان في رسمه، مثلاً، والتفتيش عن التفاصيل الداخلية، كأنه يفتش

عبرها عن علاقة حميمة السرير ـ المطبخ ـ الحمام).

وكثرت الرغبات بالأمان (الدوائر)، كما كثر استعمال اللون الأحمر واللون البرتقالي واللون الأخضر واللون الزهر.

بعد هذا التقسيم السريع للأنماط حصيلة رسومات الأطفال، نعتقد أن الأغلبية مالت إلى رسم المسكن المرغوب في أكثر الأحيان، وليس نقل الداخل كما هو، خاصة أن هذه التقنية المستعملة في هذا الفصل ما هي إلا تقنية مساعدة وليست تقنية أساسية، حيث أنه لم يعد بوسعنا دراسة شخصية التلميذ ـ وليس هذا هو المقصد الأساسي لهذه الدراسة. فالاسقاط يخف جداً بعد عمر 10 ـ 11 سنة في تقنية الرسم، إضافة إلى أننا لم نتمكن من مرافقة كل الرسومات في نفس الوقت واتباع تطورها وكيفية تنفيذها. إنما هناك تلك **اللقطات اللاواعية** التي تظهر في طريقة رسم الموضوع والاهتمام به من حيث اللون والخط والحجم الخ...

نلفت النظر إذاً، إلى أن تحليل هذه الرسوم بعيد عن فهم الواقع المعيشي لكل تلميذ على حدة ودراسة ميوله وشخصيته التي يفترض ـ في حال الاعتماد عليها ـ أن تقترب وتقترن بمعلومات وبحوارات وباستقصاءات عن حياته داخل أسرته مع مقارنة بمنزله الحقيقي (لمعرفة مكانة المسكن الحلم والواقع).

لكن الاطلالة الأولى على هذه الرسوم، تدلنا على أن المسكن القديم ـ في حال رسمه (شكلت النسبة 5 ـ 10٪) فإنه يُرسم من الخارج بينما يُرسم الحديث باهتمام لتفاصيله ولتقاسيمه الداخلية (ولفرشه خاصة)، دون أن يهمل خارجه بنوافذه وأبوابه وبحدائقه. إنه المسكن الغني بالمحتويات وكأن المسكن القديم هو المسكن الفقير الخالي من الفرش والأثاث، وهو المسكن الذي يقضي سكانه أغلب أوقاتهم في الخارج. في حين تحتم المساكن الحديثة على الأولاد القعود والجلوس في الداخل؛ لأنه أوسع وأجمل ويحتوي على الأدوات الكهربائية (خاصة **التلفزيون**)، وعلى الألعاب المسلية[1]، وهو أيضاً

---

(1) تم التركيز أيضاً على الستائر ـ الخزائن ـ الاضاءة الداخلية ـ الدرج الداخلي سيارة المسكن أو (الجيب) ـ الحديقة، بمقاعدها الحديثة والوثيرة.

علاقة حضارة وعلم، حيث ألغي دور الشارع، فلم يعد مفهوم اللعب فيه مسموحاً به، بل «عيب».

وأغلب من رسم المسكن الحديث كان تلاميذ المدرسة الخاصة، حيث الترف المعيشي والاستقلال المعماري للبناء (وأغلبهم ينتمون إلى فئة المسافرين أو أصحاب رؤوس الأموال، ولقد ظهرت الأم بصورتها الحديثة تحل محل الأب المسافر أو المنهمك بأموره المادية أو الحزبية ـ السياسية).

لقد خُلطت المواقع بين الداخل والخارج وهذا يمكن أن نرده الى أزمة علاقة بين داخل المسكن وخارجه.

لكن **التواتر العلائقي** ما بين صاحب الرسم وأهالي المسكن شبه معدوم، ويتصفي بالكبت وبالانكماش؛ ويظهر ذلك من خلال انعدام الأشخاص المرسومين أو لنقل قلتهم، كما يظهر بشكل أساسي من خلال إغلاق باب المسكن ونوافذه وعدم الاتصال مع الخارج، فهل نفسره في إطار انتشار **الفردانية** والخصوصية؟

وإلى أي حد يتفق هذا مع مبدأ **الاستعراضية** المنتشرة ليس في العينة فقط، بل في الرسومات أيضاً التي اعتنت برسم الخارج المنظم بحدائقه وبأنواع أزهاره[1]. ونعرض هنا إلى ذلك الاستحسان الذي وجدناه لدى تلاميذ المدرسة الخاصة للفكرة، ولأن رسم المسكن سيعبر عما يفتخرون به ويعتزون بامتلاكه، خاصة إذا كان المسكن شقة في بناية أو فيللا مستقلة، لدرجة أن واحداً منهم استعاض عن رسم مسكنه الحديث[2] بمحطة بنزين جديدة بناها والده في المنطقة هناك.

فنفهم أن التركيز على المظهر في العيش فكرة يتشبعها الطفل حالياً من خلال سياسة تربية أهله (سواء أكانت هذه السياسة واعية أم غير واعية) **الاستعراضية**.

---

(1) قل في الرسومات تواجد أشجار الكرمة (العرائش) التي طغت في كل مسكن قديم، والتي اعتدنا على زراعتها في مساكن الأرياف، والتي تحتل السطوح فيها، لكنها لم تخل من المحلات التي غالباً ما تصدرت أرض البنايات.

(2) عرفناه حديثاً بعد التقصي عنه.

لقد كانت النزعة الفردية أقل ظهوراً في رسم تلاميذ المدرسة الرسمية الذين ينتمون بمعظمهم إلى أسر مثقفة متوسطة الحال أو فقيرة معدمة، فرسموا مساكنهم حلهم لاقتناء مسكن حديث أو بناية كبيرة[1]. وقد كثرت في هذه المدرسة رسوم المساكن التي رقمت أو التي أضيف اليها بعض الغرف لتقترب من مواصفات السكن الحديث المجتمع؛ إلا أن أغلبها من الباطون المسلح غير المطلي.

أما الحيوانات فهي لم تظهر إلا كحيوانات أليفة تربى حديثاً (كالقطة أو الكلب)، ولم يظهر الدجاج إلا في رسمين اثنين.

وكان عنصر المياه عنصراً مهماً في كل الرسوم تقريباً، نظراً للأزمة التي تعيشها المساكن الحديثة من امدادات المياه منها، فتواجدت بكثرة خزانات المياه (على سطح الفيللا أو المسكن) أو البركة الخلفية وما شابه.

إلا أن من اللافت للنظر وجود سمتين متناقضتين:

1 ـ سيطرة الأمان والحماية لدى الأكثرية، إذ ظهر ذلك برسم سطح المسكن وبانجاز الرسم، وكأنهم لا يعوضون فقط عن نقص مادي سبق وسيطر، بل عن حرب طويلة سادت ودمرت معها المساكن، وكأن الطفل يقول: «خربوا البيت، عمرنا بيتاً جديداً».

2 ـ عدم وضوح التصور في ما خص المسكن الحديث (المغلق الموتر العلاقة مع أفراده في الداخل نظراً لقلة رسم الأهل مما له دلالة مرضية) حتى من قبل ساكنيه؛ وهذا من أهم الأدلة على عدم نضج لاستيعابه وعلى تبين داخلي لهذه الفكرة ـ الطفرة[2] (التي ربما تحددت بالشكل أكثر من المضمون)، التي برزت بأحد أهم ميزاتها: التمدد المساحاتي.

وعطفاً، نلحظ بعضاً من التوجه الديني عبر خلط للمواقع بين **الداخل والخارج**[3] (أزمة علاقة بين الداخل والخارج)، ترجم الخارج دون الغاء الداخل وخاصة بصفته الانثوية.

---

(1) قمنا بالحصول على بعض معلومات عن واقع التلاميذ المعيشي من خلال الاساتذة والادارة، واقترن الرسم غالباً بمهنة الاب فظهر (الأب المقاول ـ والأب الحداد الخ..).

(2) غياب تصور تربوي من قبل الاهل للاولاد.

(3) غابت الكثير من النوافذ رمز النظر أو أغلقت، وكأنه لا يراد أن يُرى أحد داخل المسكن.

إلا أننا نستنتج ـ على الصعيد النفسي ـ وبشكل عام في هذه الرسوم، حالات ثقة بالذات مع إعطاء قيمة لهذه الذات، قيمة مفرطة فرض لها ورغبة في الاستقلالية وقدرة على مواجهة الأهل، مع بروز ميول عقلانية لا تخفي توازنات برزت من وقت لآخر في شخصية الكثير من التلاميذ نتيجة التغيير الحاصل في الأسرة، فهو وان كان مغلقاً لا يطول في كشف نزواته والتعبير عنها.

إنه طفل أكثر استقلالية وأكثر إنفتاحاً.

هي صورة بسيطة، لكنها متناقضة تجمع بين النقيض وطرفه، وتكشف عن ملجأ سعادة الطفل!



الفصل الثالث عشر

رأي المسنات بالمجال السكني الحديث

استخدمنا لانجاز هذا الفصل ـ وكما سبق وأشرنا ـ تقنية المقابلة نصف الموجّهة مع مسنات تراوحت أعمارهن بين 75 سنة و85 سنة وقد بلغ عددهن عشر مسنات، وكلهن من داخل عينة الدراسة، وقد تواجد أغلبهن:

ـ اما في مساكن حديثة مع أبنائهن.

ـ وإما في الطابق الأرضي من منازل الابناء، المعاد ترميمه وبناؤه. وقد تكاثرت هذه المساكن الحديثة ليس فقط في الاحياء الجديدة، بل في داخل الحي القديم، (حي الساحة أو غيره)، ولم يتوان الأولاد عن بناء منازلهم الحديثة فوق سطوح مساكن أهلهم القديمة المرممة.

ـ وأما في مسكن مستقل ـ ربما كان تقليدياً قديماً ـ أعيد بناؤه أو ترتيبه تبعاً لمواصفات معمارية حديثة إلى حد بعيد.

سبق وحددنا، أن الهدف من هذا الفصل هو ترك المسنة وليس المسن، تتكلم عن رأيها بالمجال الحديث حولها ومدى **تأقلمها معه وحبها لاستكشاف الحداثة وإدراكها لهذه المساحة المبنية، وذلك عبر رصد بعض من سيرتها الذاتية للوصول إلى معيشها الاجتماعي، فكان العمل في هذا الفصل توضيحياً دالاً أكثر مما هو تحليلي** (لأننا لن نقوم بدراسة الحالات مفصلة) يقترب من الفصل السابق، خاصة أن المسنة عاشت أيامها الماضية في مسكن مختلف وفي مجال مختلف سادت فيه موازين علاقات مختلفة: القوة هي للرجل ـ الزوج؛ كما ساد التعب والارهاق الصحي والنفسي في كيانها، وما كان عليها إلا أن ترضخ وترضى بهذا الوضع وبالعمل داخل المسكن وخارجه، فالاطاعة واجبة.

وقبل عرض إجابات المسنات التي تنوعت ـ رغم تشابهها ـ تبعاً للوضع الصحي، وتبعاً للوضع النفسي (من مرارة ما عانته قديماً)، سنطرح المحاور التي دارت على أساسها أسئلة المقابلة معهن[1]:

1 ـ رأي المسنة بهذه المساكن الحديثة التي أنجز بناؤها أو هي قيد البناء، وأين يمضي أصحابها أغلب أوقاتهم داخلها؟

2 ـ ترددها على المدن (كالنبطية بحكم الجوار أو العاصمة بيروت بحكم إقامة الأولاد أو الأقارب).

3 ـ آرائها حول:

- الهدايا التي يتم تبادلها اليوم، اعياد الميلاد والزواج، مراسم الاعراس اليوم وفكرة الاوتيل أو الفندق والمطعم، الأزياء النسائية والرجالية الحديثة.
- الاختلاط بين البنت والصبي وطريقة تربيتهم. مسألة قيادة الأنثى للسيارة.

4 ـ عودة للماضي حول الانجاب والزواج وكسب الرزق وطاعة الزوج وضيوفه. (مقارنة مع اليوم):

- العلاقة بين أفراد الأسرة والحياة الخاصة لكل منهم. كلفة بناء المسكن القديم وتأثيثه وعلاقتها بمستوى الدخل. العلاقة بين داخل المنزل وخارجه (الدار ـ الحاكورة ـ الجيران). الزوار والاختلاط بين الذكور والاناث. أعمال الصيانة وأعمال التنظيف وأعمال المطبخ والحمام. . . .
- الحب أيام زمان والساحة والعين وغيرها.

5 ـ مقارنة بين راحتها اليوم والأمس ـ بين مسكن اليوم ومسكنها القديم.

6 ـ زاويتها المفضلة قديماً وحديثاً.

7 ـ روزنامة عملها خلال يوم واحد.

1 ـ المجال السكني والاجتماعي القديم للمسنة المستجوبة

عملت المسنة طويلاً مع زوجها خارج المنزل (في الأرض والفلاحة)،

(1) مقابلات أجريت خلال شهر أيلول 1991.

ومن أول النهار حتى آخره، وكانت تنقل الحطب بنفسها[1] (على رأسها)، كما كانت تنقل المزروعات وغلة الأرض وكافة حاجيات المسكن حتى في حال مرضها أو حملها (حتى لو كانت في الشهر التاسع حسب قول إحداهن). كما كانت تحضر الأكل والمونة بنفسها (البرغل والحبوب بأنواعها وشراب البندورة والمربيات وكافة مونة الشتاء)، وتصنع الخبز، إضافة إلى عملها الأساسي، والتلقائي في «زراعة التبغ»، أو كما تسميه «زراعة الدخان»، تلك الزراعة التي كانت تشارك في أدق مراحلها وأصعبها؛ مما كان يتطلب منها بذل الجهد والتعب.

لقد عرّجت كافة المسنات ـ لدى سؤالهن عن مجالهن القديم الماضي ـ على هذا النوع من الزراعة وما أخذه من وقت ومن عمال يدوي نسائي بغياب التسهيلات اليومية الحديثة.

وإذا غاب العمل الزراعي الخارجي فقد كان ينوب عنه العمل في «الحاكورة» أو في الأراضي الزراعية التابعة للمسكن، ناهيك عن الاهتمام اليومي بالماشية على أنواعها والتي تخصها وعائلتها.

أكدت المسنة ـ المستجوبة، أنها كانت تقوم بنفسها، وفي كثير من الأحيان بأعمال صيانة المسكن القروي القديم، بترميم أو «بِحَدْل طِين سطحه»، أو بدهنه و«بطرشه». أما أعمال التنظيف فلم تكن تأخذ من وقتها الكثير؛ لأن معيشة العائلة اليومية كانت تنحصر في غرفة أو اثنتين، واتجهت أعمال التنظيف لتستبدل بتسهيل أمور المنزل اليومية (ماشية ـ زراعة ـ طبخ ـ غسيل). ولقد كان يوم «الغسيل» هو الأطول والأكثر عناءً؛ لأنه كان يتم على حافة النهر التي كانت المسنة مضطرة للمشي مسافة طويلة كي تصل اليه (نهر الزهراني، ويقترب من حدود اقليم التفاح)، وهي حاملة حاجيات الغسيل التي تعود بها في المساء، وربما بمساعدة أحد أولادها.

ولم تكن أعمال المطبخ أسهل من غيرها؛ لأنها كانت تتطلب العمل اليومي (من طبخ وتحضير مائدة أو غيره) بغياب آلات التبريد والحفظ الكهربائية. وكانت تطبخ كميات كبيرة («بالدست» حسب قول احداهن

(1) لاتقاء شر البرد، يقابله نقل المياه في الصيف للاعمال البيتية ولاتقاء شر الحر.

وباستعمال الحطب أو «بابور الكاز»)، نظراًلاتساع أفراد عائلتها ونظراً لعلاقات القرابة والجيرة (يوزع على الأقارب والجيرة خاصة في طبخ المواسم: «الهريسة» و«القورما» وغيرهما).

وكانت كل هذه الأعمال ذات طابع أنثوي محض، ولا يمدّ يده الذكر - الأب أو الذكر - الابن بالمساعدة إلا نادراً وساعة هو يشاء وللتسلية فقط. وربما أتت المساعدة من «الجارة» التي تشتد أواصر وروابط العلاقة معها، والتي تأتي هي وزوجها للسهر في مسكن الجوار. وكان المسكن مفتوحاً ليس فقط للجيران بل للزوار وللضيوف القادمين الذين «كنا نستبقيهم على مائدتنا وفي مسكننا أو كنا نقدم لهم (وللجيران)، «طاسة» (كاسة) من «العشبة» (الزهورات)» حسب قول إحداهن ولاحظنا خلال إجراء المقابلات، إن حديث المسنة عن ماضيها لا يثيرها ولا يداعب أفكارها ويُداعيها بقدر ما كان الحديث عن المجال الحديث مثار اهتمام بالنسبة اليها:

«من زمان، كانت أيام «عزارة» على المرأة و«تعتير»، عليها أن تصبر، خاصة أن الكل يقول أن عقله أكبر من عقلها». وهي تطرح هنا أمر علاقتها مع الرجل، أو بمعادلة أخرى: أمر العلاقة بين الذكر والأنثى!

إنه، أي الذكر، له الحق والأولية حتى بالزواج، ونذكر أن أغلب **مسنات هذه العينة سبق لأزواجهن الزواج من نساء أخريات**، واحدة منها (أي من العينة) تزوجت ثلاث مرات دون أن تنجب، وقالت: «الرجل يظلّ أركز وأكبر... هو السيد، مع هناك في نساء فهيمات أكثر من مئة رجل».

إن **المعاناة** - معاناة المستجوبات - **مع الذكور**، كانت تجمع بينهن وتوحدهن، ما عدا تلك التي دخل زوجها وشارك في المقابلة، فقالا: «من زمان ما اختلفنا، رأينا على بعض، نتبادل الآراء ونتعاون في جميع المسائل». إنه إتفاق يخفي خلافاً ظهر خجولاً لدى تدخل الزوج وإجبار زوجته على أن ترد على الأسئلة بطريقة معينة ترضيه.

كانت **طاعة** الزوج والأولاد الذكور واجبة على الأم الأنثى وأيضاً الأخوات، وكان الاختلاط محدوداً بما هو مسموح من قبل رجل الاسرة. إلا أن مسألة **الاختلاط** هذه لم تثرها كمشكلة أغلب المسنات؛ لأن اللقاء - كان يتم على ما يبدو - أثناء العمل الزراعي أو الموسمي...

إنه مجال ماض مرهق بالنسبة إلى مسناتنا هنا، بحيث لم يعشن قصص حب (النّوافذ والسهول والعين والساحة والجاروش والبيدر والنهر)؛ والسبب يعود إلى زواجهن المبكر. لكنهن أكدن على تواجد ذاك الحب أيام زمان، «وكان حلواً مراً» «أما إذا علم أحد بالأمر فيا ويل الحبيبة». . . . كما عبرت إحداهن.

كان الحديث عن القديم، لا يتم إلا بالمقارنة مع الحديث، فسبل راحة العيش اليومي الحالي مريحة مع أنها أفقدت المسنة زاويتها الحميمة المتواضعة التي لم تشغل سوى الحيّز الأصغر من المسكن القديم.

إنها اليوم، ليست بحاجة للقيام بأعمال الماضي، إنها تقوم فقط بقضاء حاجاتها الخاصة في حال توفرت لها الصحة والهمة والنشاط، كما تقوم بتبادل بعض الزيارات والنوم بعد سهرة متواضعة دون أن تغيب جلسات التأمل والمقارنة بين ماضٍ متعب بحاضر أقل تعباً لا يشكو إلاّ من قلة الأمن والاستقرار السياسي حسب رأي المسنات.

2 ـ إدراك المجال السكني الحديث

هناك إجماع من المسنات على جمالية هذه المساكن، خاصة إذا ما قورنت بالقديم، «فاليوم يعيش الناس في مهد عيسى»، وهي جملة رددتها أغلب المسنات ـ المستجوبات، وأكد عليها في إحدى المقابلات، وزوج إحداهن الذي دخل على خط سير المقابلة وعمل على الاجابة، دون أن يُسأل، إجاباته لا تتنافى مع إجابات زوجته، ولم يكن دخوله هذا إلا ليؤكد أهمية العيش والمجال السكني الحالي، (فالناس من قبل كانوا يفتشون عن كيلو اللحمة أو كيلو الفاكهة. . . مين زمان. . . مين كان يأكل. . . الناس كانت تأكل «بشله»، «باقية») ـ (وهي أنواع من الحبوب البرية) حسب قوله.

لقد صارت كل المساكن جيدة و«منيحة» ومرتّبة، فتحول الجميع عن «قش البلأن» إلى الوظيفة للبنت أو الصبي. . . «فالبلد كثير منيحة اليوم. . الناس تعيش بشكل جيد ومعها مصاري. . . حتى أنه في الحسينية لم تتوان الفتاة عن التبرع بآلاف الليرات. . . قبل كنا الفرنك ما نحصل عليه. . . اليوم الله مفيّض النعمة على الناس، فتلك التي لا تطبخ لها فقط بل للقطط وللكلاب من حولها. . . وآخرون يرمون الطحين والأكل، أو يضعونه للدجاج، في

وقت كان مضى، كنا نفتش عليه تفتيشاً. . . اليوم ما عاد حدا يزرع، فالعامل المياوم يكلف أكثر من الأرض وانتاجيتها. . . اليوم اختفى البرغل الذي كان أساس تموينا وطعامنا. . . العمار اليوم كثير حلو. . . شي بيحللي مع زراريع ومنشيات الخ. . .».

وقالت أخرى: «اليوم يُبنى الصالون والسفرة. . . اليوم أحلى. . . كنا بالأول على بركة الله. . . اللي طالع اليوم أحسن، بدل اللّبن والقناطر. . . كله على الطراز الحديث، بس الله يهدي البال».

وقد ركزت هذه المسنة تكراراً على غرفتي الصالون والسفرة اللتين قد لفتتا نظرها ـ على ما يبدو ـ وحلوا مكان الدار الكبيرة قديماً.

ومقارنة مع الأمس، نستنتج أن العمل الزراعي لم يكن يدر المال، انه عمل موسمي ومحدود يعتمد على القدرة الجسمانية (المتغير هو متغير نوعي مادي).

وبادرت مسنة أخرى إلى القول: «نحن نتفاخر بالبناء اليوم، لقد صارت بلدتنا معروفة ومنيحة وكبيرة وحلوة. . . كل ساعة اليوم مقابل 100 سنة من قديم. . . ليش من زمان كنا نقعد؟ بيت أولادي داخل الضيعة القديمة، وعمروا لي غرفة صغيرة، بالقرب منهم، فيها كل ما يلزم لي. . . العمار اليوم حلو. . . بلكون. . . حدائق. . . .».

لكن إحداهن اعترضت قائلة: «أيام هلق منيحة، بس أيام زمان أحلى حيث لم يكن المصروف كاليوم ولكن. . . الكل عايش بمسكنه مبسوط وعم يأكل ويشرب. . . من زمان مين كان يذوق الليمون والموز مثلاً؟!

ومما لفت نظر المسنات البلاط في المجال الحديث الذي هو «عالدراج» حسب قولهن. لقد أجمعن أن اليوم الجنة وقبل كانت النار. . .

هذا ولقد وَعَيتْ «المسنة» تواجد غرفة الجلوس وأهميتها في المساحة الجديدة، حيث يمضي أغلب الناس أوقاتهم فيها.

لكن تردد هذه المسنات على المدينة إنقطع تقريباً، وذلك بفعل تواجد كل شيء داخل البلدة أو بفعل تواجد أسواق أخرى.

أحدثت السيارة ضجة في المنطقة، لكن المسنات قبَلن بها حتى لو قادتها أنثى: «ما عاد حدا يمشي، أمام كل مسكن تتواجد ثلاث أو أربع سيارات. . . من منزلي[1] للساحة ما عاد حدا يمشي. . . البنات التي ترتدي شرعي تسوق أيضاً. . .». لكن هذه المسنة ـ المعترضة دائماً، . ولكن بدلال ـ لم تستحسن قيادة الأنثى للسيارة، وقالت باستهزاء: «تسوق السيارة وتشرب سيكارة وبتسابق الرجل!. . . طالما هي ترتدي زي الرجل، هل ستصعب عليها قيادة السيارة؟! وهي تختصر المسافة والوقت وتأخذ أولادها للمدارس. . .».

ومسألة **الهدايا** مسألة تتابعها المسنات بشغف، فهي حلّت مكان أمور بدائية، حيث كانت تُغلى الأعشاب بالطناجر وتقدم بالكاسات، واليوم هدايا ومشروبات وحلويات (شوكولا وبقلاوة. . .).

فالهدايا تتكاثر اليوم خاصة في عيد الأم (قمصان نوم ـ عبايات ـ قالت ذلك إحداهن وهي ترفع حاجبيها باعجاب شديد لما وصلنا اليه اليوم).

والهدايا هي أيضاً للولادات وللاعياد، ويتم شراؤها مهما غلا سعرها، حسب قول إحداهن التي تشارك زوجها عملية البيع في محله المجاور للمنزل.

أما **أعياد الميلاد** فقد أصبحت متفشية حتى لدى الكبار.

لكن إحدى المسنات ركزت على أهمية عيد الميلاد بالنسبة إلى الأطفال، خاصة لدى استلامهمْ هداياهم التي غالباً ما تحوي الألعاب التي قالت عنها أنها مهمة للطفل ولتفتحه.

إلا أن أغلب المسنات ذكرن، وفي هذا المضمار بالذات (الميلاد وهداياه)، المناسبات الدينية التي زاد الاحتفال بها اليوم أكثر من السابق، شباباً وشيوخاً. لم يعد حضورها يقتصر في المدينة بل يُحتفل بها في كل منزل وبشكل منظم ومرتب «غير همجي مثل زمان».

أما فكرة الاحتفال بالأعراس كما تتم على الطريقة الحديثة، فلم تلق الكثير من الاستحسان كغيرها من المسائل.

(1) منزل هذه المسنة قريب من ساحة البلدة.

من زمان العرس ما كان يكلف كثيراً، اليوم يكلف بالملايين خاصة في احتفال الأوتيلات. . . لكن المادية مع الناس منيحة. . . وبَطُلَ زواج الأقارب. . . عدم استحسان كيفية الاحتفال اليوم بالزواج تلاقت مع عدم استحسان للأسماء الحالية التي وُصفت بأنها ثقيلة وخالية من الذوق؛ لأنها ليست على أسماء الأئمة والأنبياء[1]، اللي ما عاد في منها. . . من أين يأتون بهذه الأسماء المخترعة. . ويمكن الأسماء هي رأي، ولم تمر من أيام زمان. . .».

وقد أصرت الحاجة. . . على القول:

«هي أسماء جديدة، لا يدير لساننا عليها، على أسماء الشياطين شو أنا بدّي دير بالي الها؟!». . .

أما الأزياء الحديثة فهي كثيرة برأيهنّ، «وعندما تبطل من حيث الموديل تصبح للرمي وللكب». . .

وما هو موقفهم من التربية الحديثة؟ بادرت إحداهن بالقول: «ما في واحدة بترفض طلب لابنها. . . ومش منيح اختلاط الصبي بالبنت. . . أنا أقول لا لهذا الاختلاط ولكل منا رأيه. . . اليوم يتعلم الولد ويسافر الخ. . .». وعبرت اخرى عن رأيها بأن الاختلاط «منيح بس يكونوا مستورين وأوادم. . . اسم الله على هالوقت. . . المهم يكونوا أوادم. . . اليوم التربية على الاميركاني وعالأوروبي. . . .».

وحول التفرقة بين الذكر والأنثى قالت هذه المسنة: «من زمان كانوا يكرهوا البنت للعار، اليوم البنت أعز من الصبي، البنت عم تتعلم وتتوظف. . . والتربية الجديدة «شيء منيح».

كخلاصة، نوضح أن هذا الفصل هو فصل مضاف إلى الفصل السابق بحيث أن معلوماته تندرج في إطار المعلومات الاضافية التوضيحية أكثر مما تتجه توجهاً تحليلياً يمكن أن يصل إلى دراسة الحالة. فكلمات هؤلاء المسنات، لم تكن إلا مؤشرات ذات دلالة على واقع يومي متغير وانفتاح على

---

(1) لفظت إحداهن اسم رشا: رشي - ناتالي: ناتللي الخ. . . وهي أسماء أولاد جيرانها.

عالم خارجي جديد مقارنة مع عالم قديم مغلق (بعد أن كانت السيارة، حين تمرّ قديماً، يتراكض الناس للتفرج عليها...)، قبلت به هؤلاء المسنات، ولكن دون إفراط أو إسراف، وواكبنه بدون حسم...

هذه المواكبة وذلك القبول لم يخلُ من رفضٍ كان ينم عن تناقض بين ماضٍ تجذر رغم صعوبته وبين حديث محبب سهل الانجذاب نحوه... إنه رفضٌ ما يلبث أن يتلاشى كي تترك حرية الآراء للأشخاص المعنيين مباشرة بالحداثة (إسماً وزواجاً وزياً). أساس حرية الرأي التي وهبتها المسنة، في حديثها لابن اليوم، حزن عميق مكبوت ومهانة وغلب[1] قديمان عبّرت عنهما إحداهن: انا ما كنت مبسوطة أيام زمان... شغل وتعب وزوج متزوج من أخريات الخ...».

وإذا كان رأي المسنة متأرجحاً في ما خص القيم المستحدثة في الحياة اليومية، فإن رأيها كان حاسماً بخصوص **المسكن الحديث**، حيث القبول المفرط والاعجاب كمثل ما جاء على لسان إحداهن وهي تبدي إعجابها بمسكن ابنتها الحديث: «بيت بيجنن، منافع للرجال وللنساء، منظم وفي منطقة عمار جديدة». وكمثل ما جاء على ألسنتهن جميعاً في التعبير عن المساكن الحديثة، فإنها مساكن «منيحة كثير».

(1) الفكر العربي ـ ندوة المرأة العربية بين الذات والموضوع ـ عدد 64 ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1991.



الفصل الرابع عشر

تقديم الاستمارة

I ـ وضع الاستمارة

كانت استمارة هذا البحث حصيلة التوجه النظري العام وحصيلة الدراسة الاستطلاعية الأولية، جُمعت أسئلتها في خمس عشرة صفحة، قُسمت محاورها إلى أربعة إضافة إلى بطاقة هوية عامة لكل استمارة كانت قد تصدرت الصفحة الأولى، التي حملت اسم الاستمارة:

«إستمارة بحث إجتماعي حول السكن في منطقة النبطية».

شملت البطاقة معلومات عامة عن اسم القرية والحي والمبنى واسم رب المسكن (والطابق والشقة في حال كان المسكن داخل بناية). كما طلب إبراز أمكنة مميزة في الحي وتحديد موقع المبنى والمسكن على خارطة صُوِّرت بالقرب من هذه المعلومات. .

أما المحاور الأربعة فقد توزعت كالتالي:

أولاً ـ المبنى (**اسم المنطقة العقارية ورقم العقار** ـ ووضعية البناء ونسبة البناء على الأرض ـ إشراف المهندس وكيفية تصميمه وتواجد الملجأ والمولد وغيره. . .).

يتعلق المحور الأول بمعلومات شكلية وهندسية (في كيفية الانجاز)، وإرثية للمبنى بشكل عام؛ لأنه يعبّر عن السلوك وعن «أنا» الشخص الذي قد بناه أو قد سكنه، لأنه أتى في معضلة البحث (أي المبنى) اعتزازاً بالذات وبإبراز هذه الذات مع تواجد لذة في إبرازها. إنه ـ صاحب المبنى ـ يجد احترامه لنفسه في فرض نفسه على الآخرين. إنه محور يدلنا على الواقع

المعماري العام، والولوج الفعلي إلى هذه المعرفة يحتاج أولاً لعملية معرفة الذات الفردية والذات الأسرية. من هنا كان المحور الثاني.

ثانياً ـ معلومات عن الأسرة والمقيمين معها: اختيار الاسرة موضوع مهم نؤكد عليه؛ لأن طريقة تربية الطفل والاجواء التي ينمو فيها تمثل دوراً حاسماً في تعيين نوعية الشخصية من حيث ارتباطها بمجتمع معين ودلالتها عليه؛ ولذا فإن فهم أجواء تربية الطفل المبالغ لاحقاً يؤدي إلى فهم السلوك الاجتماعي ودوافعه في المجتمع.

إن الوضع الاقتصادي للاسرة يحدد المقاييس التربوية، ويؤثر على مراحل نمو الولد داخلها!

وبما أن الهجرة كانت دافعاً أساسياً لأغلب الأسر لتحصيل لقمة العيش ولتحسين المستوى الاجتماعي، فإننا رغبنا في معرفة هؤلاء المسافرين خارج لبنان من أسرتي الزوجة والزوج، كما رغبنا في معرفة إذا ما كان أحد من الأقارب يقيم مع الأسرة لنتمكن من تحديد نوعها وانتمائها.

إن عدد الأولاد ودرجة قرابة الزوج أو الزوجة والمستوى التعليمي والوضع المهني ومصادر الاملاك (أو الارث) كلها عوامل تدخل في تحديد نمط الاسرة ومستواها.

أما في الصفحة الثالثة مكرر (2) وفي نفس المحور، فقد كانت معرفتنا **لقيادة** سيارة ولامتلاكها هي للاقتراب من تحديد وضعية المتغير الانثوي.

أما جدول مراكز السكن المتعاقبة في لبنان أو في الخارج لرب الأسرة من الحالي فالأسبق بالتتالي، فقد حدّد نوع العمل وارتباطه بمسألة الهجرة والتنقل وتحديد مكان تواجد الأسرة خلال ارتباط الزوج بعمله (معه أم في الوطن). وتبعه جدول آخر (ص 6) يبين تكرار سفر الأنثى (زوجة ـ ابنة) لما يقدمه هذا المتغير من إطلالة حضارية مهمة على العالم الخارجي.

كما سعى هذا المحور لتحديد مسألة التمسك بالدين **وبالقيم الدينية** (ص 5) **وبالقيم الاجتماعية التقليدية التعاضدية** (حيرة ـ حل الخلافات ـ قرابة ـ لجان ـ مشاريع الخ. . .)، وبالقيم المدينية (انتقال إلى المدينة ـ هجرة الاسرة إلى الخارج: كندا ـ أميركا ـ أوستراليا أو غيرهم ـ ص 7 ـ تقبّل سكن امرأة عازبة أو مطلقة أو أرملة وحدها ـ ص 8).

أما لجوء الأسرة إلى أمور السحر أو التنجيم أو قراءة الكف أو تأويل وتفسير الاحلام أو غيرها من الحلول (التي ربما كانت دينية) فهو اختبار لها ولأفرادها: إلى أي حد يُخضع الفرد ذاته وواقعه لقوى ولعناصر التجربة المباشرة والعادية، وتتخطى العقل وتكون الملجأ في أيام الشدة. إنها نزعة إلى إيجاد تفسيرات تتخطى المعطيات المباشرة وتصبح هذه النزعة ضرورة نفسية ماسة.

ونربط هذا اللجوء بمستوى ثقافة الاسرة التي ربما بقيت تحت **تأثير بنية التعليم الأولى**، بحيث يكون ميل العالم وحامل الدكتوراه إلى العقلانية السحرية مساوياً لميل أي فرد آخر في المجتمع، كما يقول، د. هشام شرابي - في كتابه «مقدمات لدراسة المجتمع العربي».

احتوى المحور الثاني سبعة عشر سؤالاً، ركزت الأسئلة الـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ 16 ـ 17 على المستوى **العلائقي** ما بين الأسرة (أب ـ أم) من جهة وما بين الأولاد (ونهتم بالأنثى لأنها الدلالة المباشرة على حدوث التغير أو عدم حدوثه): من منهم الذي يستقبل ـ يخرج إلى المقاهي كمكان ارتياد اجتماعي ـ تقرير أمور خاصة داخل الاسرة (سؤال رقم 16)... أما أن هذه العلائقية قد وصلت بتوترها إلى حد الطرد أو التهديد بالطرد من المسكن؟

ثالثاً ـ معلومات تتعلق «بالمسكن»: وشمل هذا المحور ثلاثة عشر سؤالاً إنقسمت إلى: **شكل** (تحديد نوع المسكن ـ الغرف ـ النوافذ ـ توزيع المساحات ـ الحمامات الخ...)، وإلى مضمون يرصد تواجد أدوات كهربائية حديثة كمؤشر على تأمين الراحة العصرية للمرأة في داخله، وكيف تنظف المسكن وبمساعدة من؟ الخ...

إن المتغير الانثوي ظهر في كل محاور الاستمارة لتبيان مجاراة عملية التطور والتغيير التي انطلقت من الشكل للمضمون.

أما الأسئلة التي تتعلق بالشكل فهي ترتد إلى المضمون، ونرتكز في تبرير الاستمارة على التفسير النفسي فيصبح:

- السطح وبناؤه: حالة متقدمة من بناء **الأنا**.
- الطوابق السفلى: تتطابق مع المنزعات البدائية.

- المطبخ هو مكان التحول النفسي، ويُظهر تطور الداخل عند الانسان.
- الابواب ووظيفتها: الدخول in ـ أو الخروج out. إنها مكان عبور لا يهمل قبضان الأبواب هذه.
- الصالون، الذي اشتهر باتساعه في العينة، ويلعب دور الديوان الذي لا نشعر فيه اننا في الداخل ولا في الخارج...
- المدخل وحسب شكله (دائري أو مستطيل أو غيره)، فهو مدروس، وربما تقدمته العتبة، تلك الدرجة المنحوتة التي تربط الانحاء بالمركز، والتي تجمع ما بين الداخل والخارج، بين العالم والأنا.
- الشرفات والنوافذ تغني الاتساع والارتباط أيضاً ما بين الداخل والخارج. إنها إطلالة الداخل على الخارج (dedans et dehors).
- الحديقة هي جزء من مسكن الداخل، وعدم وجودها يعني نقصاً، إنها بعدٌ يرتبط بالورود وبالرياحين وبالتنظيم الداخلي الذي ينعكس عبرها إلى الخارج. وإذا كان يتواجد فيها الماء داخل بركة صغيرة هندسية الشكل فإنها وحسب قول O.Marc، تتحد رمزياً في داخل الانسان المرمّز أو المسجد بالمربع، مربع السكن، وتحمل صفات الانوية والذكورية[1].

رابعاً ـ التعرف على الواقع المحيط بالمسكن: وهَدَف السؤال الأول إلى معرفة الواقع الزراعي (امتلاك حديقة مزهرة ومنظمة للزينة أم للفائدة الزراعية) والحيواني (اقتناء حيوان أليف كظاهرة مدينية حلّت مكان اقتناء الأغنام والابقار؟ ـ اقتناء الدجاج وأنواع أخرى من الطيور؟).

أما السؤالان الثاني والثالث فقد هدفاً لمعرفة الواقع التجاري التمويني للاحياء الحديثة، وعلاقتها بالمركز المديني المجاور لها.

ولأن أغلب رسوم الاطفال كانت ترسم سطح المسكن الأفقي، فقد وددنا معرفة كيفية استغلال هذا السطح ودلالات هذا الاستغلال.

حاولنا جاهدين عبر أسئلة هذه المحاور أن نجمع كافة الدلالات

---

(1) O. Marc المصدر نفسه ـ ص 130 ـ ولقد شبه أيضاً Marc، المسكن الاسلامي وتحديداً ماء «الفسيقة» بأنها شكل ذكوري في حالة نشوة وخصوبة مستمرة.

والمؤشرات النظرية التي انطلق منها البحث ليدرس واقع التغيير السكني، ومن ثم الاجتماعي في منطقة النبطية.

II ـ دفاع عن العينة وعدد المستجوبين

طالبت العينة المساكن التي كانت على **الطريق العام** أو الطريق الدوليّ حسب تسمية وزارة الاشغال العامة والنقل لها، وفي الاحياء الحديثة الممتدة على جانبها وعلى بعد قارب الـ 200 م ـ 300 م كحد أقصى وحسب الانفراجات الجغرافية، وهي بأغلبها مساكن حديثة لم نرصدها من داخل القرية الداخلية القديمة. ولقد أخذنا معدل واحد من خمسة (مبنى من كل خمسة مبانٍ على امتداد الطريق الدولية بين النبطية والمصيلح وآخر زفتا، وأخذنا شقة واحدة في كل مبنى).

ويمكن القول أن العينة هي عينة عشوائية، لأنها امتنعت عن اختيار موجّه للأشخاص، وكان الدافع هو دافع أصناف المساكن ومواقعها الجغرافية. إنها عينة عشوائية لأنها لم تبن على معرفة مسبقة بل على استعراض هندسي جغرافي سريع (استعانة بخارطة يدوية لكافة أقسام الطريق المدروسة) بدأ أولاً باستطلاع أولي، كانت تقنية الملاحظة هي الحاضر الأول فيه، ثم على معاينة استعراضية لم تصل إلى الحدّ الحصري. ولقد أجريت بعض المقابلات والزيارات لعائلات تسكن على هذه الطريق، ولسكنها مواصفات حديثة (كأغلب السكن هناك)، وذلك من أجل اختبار أقسام الاستمارة ومن أجل تحضير للأسئلة التفصيلية.

تم بعدها صناعة استمارة وقدمت لخبير إحصائي ـ إجتماعي أعاد تقويمها وتنظيمها والذي كان له دور لاحق (كخبير إحصائي) في فرز واستخلاص النتائج.

لقد استعملنا الاحصاء في الاستمارة، كتقنية مساعدة للتقنيات الأخرى التي حكمها التوجه النفس ـ اجتماعي.

واعتمدنا في **جمع المعلومات** على فريق مدرب على البحث المونوغرافي وطرق جمع المعلومات الاجتماعية مؤلف من طلاب السنة الثالثة وشهادة الجدارة في العلوم الاجتماعية.

جُمعت المعلومات في ربيع سنة 1990 م وفي يومين اثنين، إذ جُمع نصفها في اليوم الأول ونصفها في اليوم الثاني؛ وذلك بنشر الفريق في وقت واحد بامتداد المناطق المقصودة بموجب خارطة هندسية يدوية، ظهرت عليها المباني السكنية وتميز بوضوح بين المبنى السكني المتعدد الشقق والمباني السكنية المستقلة. وكنا نختار مبنى من كل خمسة (5/ 1 بنايات ومثيلات، كل مبنى حسب تواجده)، حتى وصل عدد المستجوبين إلى المئة.

لذا، فيمكننا القول أننا لم نستعمل طُرق سَحب العينة بالصدفة أو بالطريقة الصُدفية (loi du hasard)، إنما اعتمدنا طريقة عشوائية موجهة واسعة الانتشار.

كيف تم التوزيع على البلدات؟

وُزّع الفريق على القرى تبعاً للانتشار الجغرافي ولم نقرر سلفاً «الكوته» لكل قرية[1]؛ لأننا نتابع خطاً جغرافياً طولياً بصرف النظر عن أراضي القرى الواقعة على الطريق وبصرف النظر عن أماكن قيد النفوس للمقيمين، خاصة إن امتداد الاحياء الجديدة ومبدأ شراء وبيع الأراضي على الطريق الدولية قد عملا على تداخل حدود هذه القرى موضع الدراسة.

لقد كنا في عملنا نقوم بإحصاء الوقائع وهي من أصول العمل الاحصائي، ولم نحاول أن نقيم أية عملية إسقاطية مقررة سلفاً لايجاد توازن مصطنع أو حصص مركبة على أساس القرية أو الطائفة[2]، أو بناء على أي متغير آخر؛ وذلك لانتاج موقف احصائي اجتماعي مرتبط بالواقع الجغرافي السكاني الديموغرافي.

---

(1) نظراً لخصوصية بلدة بفروة قمنا باستبار بعض مساكنها على الخط العام وأدخلنا شخصين من الفريق إلى داخلها لاستبار مسكن أو اثنين (حديثي البناء).

(2) من المعروف من أن كل سكان هذه الطريق الدولية، وكما ظهر في النتائج الاستطلاعية أيضاً، ينتمون للطائفة الشيعية، ما عدا بلدة بفروة التي ينتمي سكانها للطائفة المارونية. كما أن عرب حبوش هم من الطائفة السنية.

رقم الاستمارة

تاريخ ملئها

مكان المقابلة

اسم المقابل

اسم المدقق

استمارة بحث اجتماعي

حول

السكن

القرية . . . . الحي . . . . . .

إسم المبنى . . . .

اسم رب المنزل . . . .

الطابق . . . . الشقة . . . . .

أمكنة مميزة في الحي . . . . . .

. . . .

حدد موقع المبنى والمنزل على الخارطة . . . .

اسم المقابل . . . .

علاقته رب المنزل . . . .

يهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على السكن في منطقة النبطية وتحديداً خطها الممتد حتى الزهراني الذي يشهد نهضة معمارية متزايدة قلبت الكثير من الاحياء وغيرت معالم المنطقة وارتفعت الابنية وتوزعت فيها لأحدث الوسائل والتقنيات.

إن إجابتكم ستغني بحثنا الذي يؤمل منه خدمة العلم والمصلحة العامة، كما أنها ستبقى حتماً في إطار السرية العامة والمطلقة.

أولاً: المبنى

- اسم المنطقة العقارية . . . .
- رقم العقار . . . .
- إسم صاحب المبنى . . . .
- اسم بانيه . . . .
- عدد الطوابق في المبنى . . . .
- عدد الشقق . . . .
- عدد المحلات . . . .
- نسبة البناء على الأرض . . . .
- ممن اشتراها؟ . . . . متى؟ . . . . . .
- تاريخ بدء بناء المبنى . . . .
- إسم المهندس الذي أشرف على البناء . . . .
- من شارك المهندس جلسات عمله وتصاميمه؟ . . . .
- هل صادف وطلب منع التغيير في بعض الأفكار؟ وما هي؟ .
- من ساهم معه بتصميم: المطبخ . . . . .غرفة الجلوس . . . .
  غرفة الاستقبال . . . . . . .غرفة السفرة . . . .
- هل زدت عدد غرف منزلك؟ متى؟ . . . .
- هل لديك: ملجأ . . . . مولد كهربائي . . . . . .
  جماعي . . . فردي . . . بئر ماء . . . مصدر الشرب . . .

ثانياً: معلومات عن الأسرة والمقيمين معها مسافرون خارج لبنان

														معلومات عن المقيمين معها						من أسرة الزوج						من أسرة الزوجة				
الرقم	الزوج	الزوجة	الأولاد	1	2	3	4	5	6	7	8	9		1	2	3	4	5		1	2	3	4	5		1	2	3	4	5
الاسم والشهرة																														
اسم الأب																														
محل وتاريخ الولادة																														
المذهب																														
الجنسية																														
الجنس																														
اسم شهرة الزوج																														
أو الزوجة																														
درجة قرابة الزوج																														
أو الزوجة																														
تاريخ الزواج																														
وقوعات أخرى																														
زواج ثان ـ طلاق																														
فسخ خطوبة																														
آخر صف درسه بنجاح																														

ثانياً: معلومات عن الأسرة والمقيمين معها مسافرون خارج لبنان

الرقم	اسم المؤسسة التي كان فيها	نوع العمل	اسم المؤسسة التي يعمل فيها	تاريخ بدء العمل	مكان العمل	مكان الاقامة	مكان إقامة الاسرة	متوسط الدخل الشهري	مصادر الدخل الأخرى والأملاك
الزوج									
الزوجة									
الأولاد									
1									
2									
3									
4									
5									
6									
7									
8									
9									
1									
2									
3									
4									
5									
1									
2									
3									
4									

ثانياً: معلومات عن الأسرة والمقيمين معها مسافرون خارج لبنان

														معلومات من المقيمين معها						من أسرة الزوج						من أسرة الزوجة				
الرقم	الزوج	الزوجة	الأولاد	1	2	3	4	5	6	7	8	9		1	2	3	4	5		1	2	3	4	5		1	2	3	4	5
اسم المؤسسة التي كان فيها																														
نوع العمل																														
اسم المؤسسة التي يعمل فيها																														
تاريخ بدء العمل																														
مكان العمل																														
مكان الاقامة																														
مكان إقامة الاسرة																														
متوسط الدخل الشهري																														
مصادر الدخل الأخرى والأملاك																														
هل تملك سيارة																														
هل تقود سيارة																														
ملاحظات																														

ثانياً ـ معلومات عن الأسرة والمقيمين معها

مسافرون خارج لبنان

الرقم	هل تملك سيارة	هل تقود سيارة	ملاحظات
الزوج			
الزوجة			
الأولاد			
1			
2			
3			
4			
5			
6			
7			
8			
9			
1			
2			
3			
4			
5			
1			
2			
3			
4			
5			
1			
2			
3			
4			

2 ـ جدول مراكز السكن المتعاقبة في لبنان أو في الخارج لرب الأسرة من الحالي فالاسبق بالتتالي

الرقم	مكان العمل	نوعه	رب العمل	تاريخه من ـ الى	مكان إقامة الاسرة	ملاحظات
1						
2						
3						
4						
5						
6						
7						
8						

ممارسة الشعائر الدينية (دائماً ـ متقطع ـ قليلاً ـ لا)

الرقم	الصلاة	الصوم	قراءة القرآن	قراءة الادعية	زيارة مقامات الأولياء	حضور الاحتفالات والاجتماعات الدينية
الزوج						
الزوجة						
الأولاد 1						
2						
3						
4						
5						
6						
7						
8						

- هل سبق أن سافرت؟

الرقم	سبب السفر	مدته	عدد المرات	وجهته	بمرافقة من؟	ملاحظات
ربة المنزل						
الابنة - 1 -						
الابنة - 2 -						
الابنة - 3 -						
4						
5						
6						
7						
8						
9						

النوع	داخل الحي	خارج الحي	وحيداً	مع الزوجة	مع الأولاد	يومية	أسبوعية	شهرية	سنوية
زيارات عائلية									
زيارات جيرة									
مناسبات عائلية									
صبحيات نسائية									
جمعية عائلية									
لجنة داخل إلى أو البناية									
مشاريع اجتماعية (حدد نوعها)									

5 ـ هل تفكر بتغيير مكان إقامتك؟ لماذا؟

. . . .

. . . .

. . . .

6 ـ هل تفكر بالانتقال إلى بيروت؟ ضمن أية شروط؟

. . . .

. . . .

. . . .

7 ـ هل تفكر الاسرة بالهجرة إلى الخارج؟ أين؟ لماذا؟

. . . .

. . . .

. . . .

8 ـ هل تشارك بـ

في حال مشاركتك بالمناسبات العائلية

ـ ما هو نوع المناسبات؟ . . . .

. . . .

ـ مكان إقامتها: منزل الأهل . . . .

منزلك الخاص . . . .

غير ذلك حدد ـ . . . .

10 ـ من يقوم بحل الخلافات العائلية؟

. . . .

. . . .

. . . .

11 ـ هل يوجد بالقرب منكم امرأة عازبة تعيش وحدها؟ سبب ذلك؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

12 ـ هل سبق ولجأت في حل مشاكلك إلى الامور التالية :

النوع	هدد المرات	بمشاركة الزوج أو الزوجة	بمشاركة الأولاد	بمشاركة أحد الأقرباء	بمشاركة أحد الأصدقاء
السحر					
التنجيم وقراءة الطالع					
قراءة ورق اللعب					
قراءة الكف					
التعاويذ					
النذور وتفسير الأحلام					
سيد أو شيخ المنطقة					
غير ذلك حدد					

13 ـ كثرت إقامة المقاهي والاستراحات والمنتزهات في المنطقة، هل سبق وجلست في إحداها؟

لا . . [. . .] . .   نعم . [. . .] . .

عدد المرات . . . . مع من . . . .

14 ـ هل تسمح لابنتك الذهاب وحيدة اليها؟

. . . .

. . . .

. . . .

15 ـ من اعتاد من أفراد الاسرة على فتح الباب لدى قرعه؟

. . . .

. . . .

16 ـ هل تسمح لأحد أفراد أسرتك العازبين بـ:

الرقم	العمل	ذكر	أنثى
1	العيش وحيداً		
2	استقبال من يشاء في غرفته		
3	تنظيم حفلة راقصة في المنزل		
4	أن يزاول رياضته المعتادة		

17 ـ هل سبق وهددت أحد أولاد أسرتك بطردهم من المسكن؟ لماذا؟

. . . .

. . . .

. . . .

ثالثاً: معلومات تتعلق «بالمسكن»

1 ـ حدد نوع مسكنك

- بيت مستقل ☐
- بيت فوق منزل الأهل أو بجانبهم ☐
- شقة في بناية ☐
- فيللا ـ عدد طوابقها ☐☐
- تعديلات على منزل قديم ☐

2 ـ حدد على المستطيل توزيع المساحات والغرف في المنزل

☐
☐
☐

شمال

3 ـ هل يسكن أحد الأقرباء أو الأصدقاء في:

● نفس الحي . . . ● نفس الشارع . . . ● نفس البناية . . .

4 ـ ما هي الغرفة المفضلة لديك في المنزل؟ لماذا؟

. . . .

. . . .

5 ـ ما هي الغرفة التي تمضي فيها أنت وأفراد أسرتك أغلب وقتكم؟

. . . .

. . . .

. . . .

6 ـ حدد ما يلي:

الرقم	الغرف والمحتويات	العدد	التوزيع
1	غرف المنزل		
2	حماماته		
3	أبوابه		
4	شرفاته		
5	غرفة مونة		
6	غرفة ضيافة		
7	غرفة للفتيات		
8	غرف أو مساحات للاطفال		
9	قناطر		
10	أعمدة خارجية		
11	أعمدة داخلية		
12	مصطبة أو عتبة		

7 ـ اعمل على إحصاء ما لديك من أدوات كهربائية منزلية حديثة

الرقم	إسم الآلة أو الاداة	من يستعملها
1		
2		
3		
4		
5		
6		
7		
8		
9		
10		
11		
12		
13		
14		
15		
16		
17		
18		
19		
20		
21		
22		
23		
24		
25		

8 ـ هل تسمح لزوجتك استغلال كافة مساحات المنزل وكما تشاء؟

. . . .

. . . .

9 ـ هل يتم تنظيف المنزل يومياً؟

. . . .

10 ـ من يقوم بأعمال المنزل اليومية

ـ الام . . . . ـ شخص آخر . . . .

ـ الابنة . . . . ـ غير ذلك حدد . . . . . .

ـ الأقارب . . . .

11 ـ كيف تتم عملية التدفئة في الشتاء؟

. . . .

. . . .

12 ـ هل من صعوبات حصلت لدى إمدادات المياه للمنزل؟

. . . .

13 ـ هل من صعوبات حصلت لدى امدادات الكهرباء للمنزل؟

. . . .

رابعاً: التعرف على المواقع المحيطة بالمسكن

1 ـ هل تملك:

ـ حديقة . . . . ماذا تزرع فيها . . . . من يهتم بها . . . ما هي مساحتها . . . . . .

ـ كاراج . . . . حيوان أليف . . . .

ـ ماشية . . . . أنواعها . . . . . . عددها . . . .

ـ طيور . . . . أنواعها . . . . . عددها . . . . . .

2 ـ من أين تتسوق للمنزل؟ الخضار اللحم السمانة

3 ـ ما هي المسافة التي يبعد عنك أقرب محل تجاري؟

. . . .

4 ـ هل تستغل سطح مسكنك؟ كيف؟

. . . .

. . . .

5 ـ هل تحب أن تضيف شيئاً آخر فيما خص مسكنك؟

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

شكراً لتعاونكم

ـ ملاحظات المقابل:

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

ـ اسمه: . . . .

ـ توقيعه: . . . .

الوقت الذي استغرقته المقابلة

الفصل الخامس عشر

تحليل ومعالجة معطيات الاستمارة

كما سبق وقدّمنا في الفصل الرابع عشر، فإن الاستمارة قد تألفت من خمس عشرة صفحة توزعت أسئلتها على أربعة أقسام أساسية غير المعلومات العامة التي غطت صفحتها الأولى، والتي حوت بدورها معلومات عن القرية - الحي - اسم المبنى - اسم رب المنزل - الطابق - الشقة وأمكنة مميزة في الحي الخ . . .

سعت الاستمارة - إحدى تقنيات البحث المستخدمة - لمعرفة السلوك المعماري ومجموعة عادات سكان العينة وممارساتهم اليومية العلمية والرمزية مهما كانت صغيرة، محاولة الدخول قدر الامكان وبالتدرج: من كبير الاشياء إلى صغيرها، كالأعياد والاحتفالات والطقوس وكيفية تسمية الأولاد؛ لأنها كلها تدل بقوة على تواجد فردي وجماعي.

إن الحركات والعلاقات لكل يوم هي التي تعبّر عن الفردي - الذاتي والخاص (الأشياء - اللغة - اللباس الخ . . . أما **البناء** بداخله، بقديمه وبحديثه فإنه يدلنا على **طبيعة التحول** أو القطعية).

وكما سبق تقديمه، فإن القسم الأول من الاستمارة، قد سعى في الحصول على معلومات حول **المبنى** بشكل عام، وقد طال وجهه الخارجي (سنة البناء على الأرض - معلومات عن المهندس المشرف الخ . .).

أما القسم الثاني فقد قدّم المعلومات التي تتعلق **بالأسرة** والمقيمين معها من أفراد، عن مستواها الاقتصادي والاجتماعي **والعلائقي**.

في حين عَمَلَ القسم الثالث على الحصول على معلومات تتعلق

بالمسكن من حيث توزيعه الداخلي الهندسي والوظائفي.

أخيراً، هدف القسم الرابع والأخير التعرف على الواقع المحيط بالسكن.

المعلومات التي حصلنا عليها بعد القيام بتعبئة خمس وتسعين استمارة[1]، كانت معلومات واسعة ومتشعبة، ربما لن نتمكن من استغلالها جميعها، وسنحصر التقديم في قسمين:

- **أولاً**: عرض النتائج العامة لكل أسئلة الاستمارة (عرض أفقي).

- **ثانياً**: دراسة العلاقات والترابطات بين المتغيرات التي تلقي الضوء على الحياة اليومية للأفراد المبحوثين وما تخفيه من علاقات مسلكية نفس - اجتماعية وتغييرات انتروبولوجية طارئة (عرض عامودي).

هذا وإن الخمس والتسعين أسرة المستجوبة كانت تمتلك مسكناً حديثاً (ولافتاً للنظر في أغلب الأحيان): قصراً أو فيللا أو مسكناً حديثاً مستقلاً أو شقة في بناية حديثة. ويمكن القول أن تجاوب الكثير من أصحاب هذه المباني - أثناء تعبئة الاستمارة - أو من ناب عنهم (ربة المنزل في أحيانٍ كثيرة) كان بدافع التباهي والمفاخرة (عبر إعطائهم المعلومات) رغم المخاوف والمحاذير التي يمكن أن تسببها استمارة مفصلة كهذه في استدراج البحوث في عرض أفكاره.

عرض النتائج العامة

في المعلومات العامة التي أدرجت في الصفحة الأولى والثانية، كانت حصيلة **التوزع السكاني في مكان الاقامة الفعلية** (وليس تبعاً لمكان الاقامة المسجلة):

---

(1) تجدر الملاحظة إلى أن كل القيم الواردة في الجداول التي تعطي في مجموعها 94 أو أحياناً قليلة 95 تعتبر نسباً مئوية مع أنها المجاميع الواقعية. هذا وقد كان عدد المجموعة الاحصائية التي نوينا تجميعها مئة عنصر بقي منها 95 استمارة، استثنينا الباقي بسبب عدم الاجابة؛ مما أثبت عدم صلاحية هذه الاستمارات.

1 ـ القرية

اسم القرية	(95) المجموع
زفتا	18
بفروة	7
دير الزهراني	27
حبوش	43

جدول رقم ـ 4 ـ

هذا وقد غلب على تسمية **احياء** هذه القرى أسماء **أمكنة** بنسبة **51٪**، إلا أن 15٪ لم يتمكنوا من تحديد أسماء احيائهم بسبب حداثة البناء فيها وعدم تذكر الاسم القديم للمكان أو للأراضي ما قبل البناء.

2 ـ المبنى

أغلب المباني كانت إماً شققاً في بناية أو فيللا أو ما شابه الفيللا (نصعد اليها بدرج؛ مما حدا بالمستجوبين إلى ذكر تواجدهم في الطابق الأول بنسبة 41٪). هذا **ولم تتضح نسبة البناء على الأرض بشكل دقيق**؛ لأن الاهتمام كان بالبناء وليس بباقي المساحة التي كانت تترك بدون أي استغلال.

هذا وقد أثارت الاجابة عن اسم المنطقة العقارية لغطاً. لأن الكثير ورث عن الآباء والأجداد (33٪)، أو انهم اشتروها من بائع محدد ولم يتذكروا هذا التفصيل الاداري (كان ذلك بنسبة 47٪). ولقد تم الشراء في السنوات الست الأخيرة. وهذه النسبة أعلاه تؤكد طفرة البناء وشراء الأراضي التي رافقت إرتفاع الاسعار وهبوط سعر صرف الليرة، خاصة بالنسبة إلى من كان خارج البلاد.

ولقد كان 69٪ من العينة من ملاكي المنازل الأساسية (دون إيجار)، منهم من بدأ البناء في الثمانينات (ما بين 1982 ـ 1985). ومنهم ما زال يبنى أو يكمل البناء حتى الآن.

لكن من أشرف على البناء؟

- 22٪ كان هو نفسه صاحب المبنى.
- 54٪ كان المهندس.

- مقابل نسبة 7٪ لم تستعن بمهندس و12٪ لم توضح الجواب بشكل دقيق، ونلفت النظر إلى أن الأغلبية **لم تزد على غرف المسكن غرفاً أخرى** منذ بدء البناء، وكما كان سائداً في الخمسينات والستينات (كما قدمنا في فصل سابق من القسم الأول).

تؤكد هذه النسب تواجد **المهندس** وليس المقاول أو معلم العمار ـ كما ساد سابقاً ـ في تنفيذ عملية البناء. ويمكننا تفسير الأجوبة غير الدقيقة إلى أنهم ربما استعانوا برسام هندسي أو مقاول قديم أو غيره، نسبوا إليه صفة الهندسة، وهذه استمرارية لوضعية قديمة كانت سائدة ولم نتخلص منها نهائياً بعد.

أما المستوى التعليمي: فقد توزع بشكل عام كالآتي:

المستوى التعليمي المجموع	أمي	حتى رابع ابتدائي	خامس ابتدائي	حتى ثالث متوسط	رابع متوسط	أول وثاني ثانوي	بكالوريا قسم ثاني	حتى سنة ثالثة جامعية	إجازة	دكتوراه	لا جواب
	5	17	21	9	13	3	9	3	4	2	8
	94	94	94	94	94	94	94	94	94	94	94

جدول رقم ـ 5 ـ

ولقد طغت **الأعمال** الحرة والوظائف الحكومية التي غالباً ما مورست، إضافة إلى أعمال أخرى (حرة وحرفية في أغلب الأحيان).

المهنة المجموع	عمل حكومي	عمل شركة	عمل حر	عمل زراعي	عمل مؤقت	لا جواب
	7	28	40	2	8	9
	94	94	94	94	94	94

جدول رقم ـ 6 ـ

إلا أن الاجابات التي تخص مصادر الدخل الاخرى (إضافة للوظيفة أو العمل الاساسي) لم تتضح أو تقترب من الصراحة؛ مما يخفي الانطباع بتواجده بوفرة، خاصة تلك المتعلقة بالاعمال الحرة. إلا أن المستجوب فضل عدم البوح عنها؛ مما يبرر تسع إجابات غير محددة أو سلبية.

من شارك المهندس في تصاميمه؟ لقد كان في أغلب الأحيان من أحد أفراد الاسرة دون تحديدهم 35 من أصل 95.

حول تواجد الملجأ في المبنى، توزعت الإجابات عنه كالتالي:

- 28٪ (من أصل 95) ـ نعم (وهي نسبة لا بأس بها من حيث وعي الباني بالضرورات الأمنية).
- 48٪ (من أصل 95) ـ **كلا**.
- 19٪ (من أصل 95) ـ **لا جواب**.

حول **تواجد مولد كهربائي**، لقد كان المولد **الجماعي** حتى ساعة إنهاء الاستمارات قليل التواجد، بحيث غلب **الفردي**، **وقلت آبار المياه** (8٪) مقابل شراء لها وقت الحاجة. ولقد كَثُرَت هذه الحاجة بعد تعذر مد نبع الطاسة كل المباني الحديثة بالمياه اللازمة.

3 ـ الصفحات 3 ـ 4 و5، كانت بمثابة **إخراج قيد جماعي للأسرة** من زوج وزوجة وأولاد مقيمين معها (من أسرة الزوجة ومن أسرة الزوج) أو مسافرين خارج لبنان (من أسرة الزوجة والزوج أيضاً).

كانت **أغلب أسر العينة أسراً شابة** توزعت أعمار الزوجين ما بين سنوات 1940 ـ 1949 و1960 ـ 1969، وشهدت أعلى نسبة ولادات سنوات **الخمسينات**؛ مما يبرر أن أغلب الأزواج في العينة هم من الفئة العمرية التي سافرت لتحصيل الرزق في الخارج.

جدول رقم ـ 7 ـ

	تاريخ الولادة	الزوجة	الزوج	تاريخ الزواج	عدد المتزوجين
1	1929 ـ 1920	2	10	1949 ـ 1940	5
2	1939 ـ 1930	11	21	1959 ـ 1950	19
3	1949 ـ 1940	20	21	1969 ـ 1960	18
4	1959 ـ 1950	27	28	1979 ـ 1970	25
5	1969 ـ 1960	26	10	1989 ـ 1980	24
6	1970	8	4	لا جواب	3
	المجموع	94	94		94[1]

(1) 94 إستمارة من أصل 95 استمارة، واحدة منها لم تكمل المعلومات في كثير من الأسئلة.

- كان **عدد المقيمين مع الأسر** المستجوبة لا يتجاوز **العشرين** عنصراً، ومنهم من المقربين للزوج أو للزوجة؛ هذا وكانت الاقامة بداعي سفر الأهل أو وفاة أحدهم أو بفعل تهجير سبق حدوثه. أما عدد المسافرين من أسرة الزوج فقد وصل إلى 53 عنصراً مقابل 73 عنصراً من أسرة الزوجة، وأغلب هذه العناصر هي عناصر شابة نسبياً (أخ - أخت - عم - الخ...).

وهم مسافرون بداعي العمل إلى السعودية أو افريقيا أو غيرهما...

- أما بالنسبة **إلى عدد الأولاد** فقد تغير تبعاً لأعمار الزوجين، فالذي وُلد ما بين 30 - 40 كان أكثر إنجاباً (من 5 إلى 9 أولاد)، أما الذي ولد ما بين أواخر 50 و60، كان أكثر ميلاً لتحديد نسله (حتى ساعة تعبئة الاستمارة)، وبدأ يقلل عدد أفراد أسرته (إلى 4 أولاد وما دون)، ولحظنا أن العائلات المسيحية قللت من الانجاب، حيث لم يتجاوز عدد أولادها الخمسة كحد أقصى (حالة عائلات بلدة بفروة).

بمن كان يتم الزواج آنذاك؟

	درجة القرابة	العدد	المجموع
1	ابنة العم	9	94
2	ابنة العمة	5	94
3	ابنة الخال	3	94
4	ابنة الخالة	2	94
5	من العمومة	8	94
6	من الخؤولة	3	94
7	لا قرابة	46	94
8	حالات أخرى	18	94

جدول رقم - 8 -

هذا وقد **قلت عدد الزيجات** الثانية، **كان 7٪ من أصل العينة**، كما قلّت حالات **فسخ الخطوبة** قبل الزواج تبعاً للاجابات المعطاة: نسبة 8٪.

ومن بين هؤلاء نجد أن نسبة **50٪** من نساء العينة **يَقُدنْ** سيارة، سواء امتلكنها أو لم يمتلكنها.

أما في ما يخص **جدول مراكز السكن المتعاقبة** في لبنان أو في الخارج لرب الاسرة من الحالي فالاسبق بالتتالي (صفحة الرابعة من الاستمارة)، فهي كما سبق وأشرنا، لتحديد عدد المهن المختلفة التي يزاولها الشخص ذاته لكشف نسبة الاستقرار المهني، وبالتالي السكني، بهدف معرفة الهجرة الداخلية والخارجية ومعرفة نوع العمل الذي تذبذبت المهن فيه وتغيّرت بداعي السفر وتغيير الاقامة. ومع ذلك فقد ركز البعض على مهنة واحدة مارسها منذ 25 سنة مثلاً. وبالفعل فقد كانت النتائج كالتالي.

- 118 من أصل 205 مارس مهنة واحدة
- 42 من أصل 205 مارس مهنة أخرى
- 5 من أصل 205 مارس مهنة ثالثة

ورقم 205 هو رقم جمع بين كل أفراد الاسر المنتجين، من رب الاسرة الاساسي ومن الأولاد والأقارب المقيمين والمسافرين.

أما البطالة أو المهن الأخرى فقد توزعت على ما تبقى من النسبة العامة، وتراوحت نسبة **سنوات العمل** بين 35 سنة وسنة واحدة توزعت على:

- الجنوب: 71٪
- غيره في لبنان: 38٪
- في الخارج: 44٪

هذا وقد كانت أغلب أسر هؤلاء المبحوثين تقيم في الجنوب: (أثناء عملهم في الخارج).

وسجلت نسبة الصلاة والصوم أعلى نسبة إيجابية في ما خص ممارسة **الشعائر الدينية** التي غالباً ما كانت الزوجة تمارس أغلبها. إلا أن قراءة القرآن والادعية لم تشكل نسبة عالية من العينات مقارنة مع زيارة مقامات الأولياء وحضور الاحتفالات الدينية.

- خصصت الصفحة رقم 6 **للسفر**، سفرْ الزوجة والبنات. لقد برهنت العينة على سفر الكثير من الزوجات لعند الزوج حيث يعمل، وكانت تطول

أحياناً مدة سفر الزوج للعمل، وكانت تتجاوز في كثير من الأحيان العشرين سنة، للإقامة عنده أو لزيارته. هذه الزيارة التي ربما تستمر أشهراً، إذ سبق وصودف أن نشبت الحرب في تاريخها، ولقد رافقت الزوجة أحياناً ابنتها.

كانت وُجهة السفر أولاً وبشكل أساسي بداعي عمل الزوج إلى السعودية فالكويت (أغلب مسافرين بلدة حبوش يقصدون الكويت مثلاً)، فباقي دول الخليج (العراق - دبي - أبو ظبي). كما أن السفر إلى افريقيا لعند الأهل حيث يتواجدون منذ زمن (كثرت حالات الاغتراب إلى افريقيا في الخمسينات والستينات).

وإذا كانت وجهة السفر، أوروبا، فقد غلب التوجه إلى ألمانيا والسويد بداعي الهجرة، ولقد تدرّج السفر إلى أوروبا كالتالي.

1 - بلغاريا.
2 - روسيا سفر سياحي نسبته 5٪.
3 - رومانيا.

وكانت وجهة السفر السياحي أيضاً إلى **مصر** أو **سوريا** حسبما جمع لدينا من نتائج رقمية ولمدة أسبوع أو يزيد.

ونلاحظ حالة واحدة من أصل 95 سافرت فيها الزوجة وحدها إلى سوريا في إطار رحلة كشفية وبدون الزوج.

إنها معلومات كانت بهدف إلقاء الضوء على **مسألة السفر** كمؤشر أساسي في عملية التغيير لما له من قدرة على دفع عملية التدامج والتكيف بين الجماعات وتبيان قدرة الفرد في جمع الثقافات (ووضع المرأة في هذا التغيير).

- تابعت أسئلة الصفحتين السابعة والثامنة المعلومات حول الاسرة وحول أربعة أسئلة:

أ - حول تغيير مكان الاقامة: أجوبتها كانت تتسم بالاستقرار وبثبات في العمل (خاصة من عاد إلى بلدته بعد اضطراب وضع بيروت الأمني)، **فقط 10٪** يفكر في تغيير مكان الاقامة، إما لدوافع أمنية مصدرها إسرائيل، وإما **للتغيير** فقط.

ب - **حول الانتقال إلى بيروت**: لم تبد رغبة في الانتقال إلى العاصمة نظراً لتوافر كافة المستلزمات المعيشية والحياتية في بلداتهم. فكرة الانتقال راودت 16٪ فقط، وحدد هذا الانتقال بالأولاد وبالشباب من الأسرة (خاصة إذا كان عمل أحدهم هناك).

ج - **الهجرة إلى الخارج**: كانت أجوبة نعم بنسبة 19٪ من أصل95, و3٪ منهم كانوا من الشباب، والهجرة أتت بداعي الأمن أو الاقتصاد أو للحاق بأحد.

نلحظ **الثبات** في وضعية العائلات المستجوبة، القليل من يفكر بالهجرة الداخلية أو بالهجرة الداخلية والخارجية أو تغيير مكان الاقامة، وربما كان السبب في هذا التعلق امتلاك مسكن وتواجد عمل واتساع توافر احتياجات الافراد في الخط الذي يجمع قرى العينة العربية من مدينة النبطية.

د - **قلة المشاركة بـ:**

- **المشاريع الاجتماعية**، وهذا يعود لواقع الحال في المنطقة، حيث يقل العمل الاجتماعي والجماعي ويحل محله العمل الافرادي (خاصة إذا كان يخص الاعمال الخيرية أو الدينية الخ. . .).

- **مشاريع اللجان داخل الحي أو البناية**، وذلك لعدم انتظام مثل هذه الأعمال بشكل واسع بعد، ولا سيما مع توافر البنايات. لكن الفردية هي الطابع الذي يسودها حالياً هناك، وكل ساكن في أي مبنى يسعى للاستقلالية عن جيرانه (حتى في ما يخص أمور المياه والكهرباء).

- **الجمعيات العائلية**، وقد حل مكانها اللقاءات العامة والعادية، وأيضاً بعض **التنافس العدائي** (في كثير من الأحيان) ليس فقط على السلطة، بل على **العلم** والعمل.

- **الصبحيات النسائية**، كانت متوسطة في العينة، بحيث أخذت نسبة نصفية من مجموع العينة. هذا مقابل إبقاء على العلاقات الأسرية القريبة (من نفس العائلة)، وما يتبع من مشاركة في مناسبات وزيارات أسرية حميمة بالضرورة مع الأولاد، ولا تقتصر أن تكون في نفس الحي تتم بمشاركة الزوجة، شرط ألا تكون يومية بل أسبوعية أو شهرية، حسب ما جاء في

العينة. لكن هذا الانكفاء العائلي لم يقابله انكفاء واضح على صعيد علاقات الجيرة التي قلت، لكنها كانت بارزة في العينة.

- أما عن السؤال رقم 11 من الصفحة الثامنة من الاستمارة، الذي يسأل عن تواجد امرأة عازبة تعيش وحدها، فقد تمكنا من رصد إحدى عشرة حالة ناتجة عن وفاة الوالدين أو وفاة الزوج، إضافة إلى ثلاث حالات فقط لنساء مطلقات.

- إجابات الصفحة التاسعة تعلن أن أغلبية المستجوبين لا تؤمن بأمور السحر والتنجيم وقراءة الكف والتعاويذ الخ. . .، بحيث أن ردة فعلهم ركزت على اللجوء إلى العقل وإلى قوة الإيمان بالله. مثل عن هذه الاجابات الأولى: «نحن لا نؤمن بهذه الأمور». . . وهي ردة فعل احتراسية لدرء الخطر والحكم. هذا وان مسائل السحر وقراءة الكف وقراءة ورق اللعب أصبحت حالياً تعابير مدينية أكثر منها ريفية، بورجوازية أكثر منها عمالية.

وقد حلت «الرقوة»(*) وبشكل واضح محل الأمور الأخرى، تليها كثرة النذور والقرابين بمشاركة الزوجة والأولاد في أكثر الأحيان، أو مع الأقارب في أحيان أخرى قليلة. هذا ونلحظ إضمحلالاً لدور سيد المنطقة أو شيخها: 10٪ من أصل 95 حالة قد لجأوا إليه. وتفسير ذلك مرتبط باضمحلال دور رئيس العائلة أو عميدها وتواري دور الجمعيات العائلية وما شابه.

تنهي الصفحة العاشرة، المعلومات الخاصة بالأسرة، ولقد تناولت خمسة أسئلة، حول كثرة المقاهي والاستراحات والتنزهات العامة. يمكننا القول انها مظاهر عيش غربية ومسيحية حالياً. من اعتاد على ارتيادها شكل نسبة 54٪ (عدد مرات ارتيادها لم يكن يغلب عليها التكرار) من أصل 95. أما من لم يعتد عليها فقد شكل نسبة 37٪ مقابل 4٪ بدون جواب.

ولم تتضح الاجابة في السؤال رقم 15 ـ حول من **يفتح باب المسكن** لدى قرعه، حيث أن النسبة الكبيرة قالت **الموجود** (ذكوراً وأناثاً من الأولاد = زوجة أو زوجاً) نسبة 58٪، ولقد قل مفهوم استخدام الخادمة (شكل نسبة 2٪ فقط، رغم اتساع المساكن).

(*) الرقوة باللهجة في بلدات العينة. اما فصيحها فهو الرقية.

هل يُطرد الأولاد من المسكن؟

طرد الأولاد	العدد	المجموع
نعم	13	95
كلا	67	95
لا جواب	15	95

جدول رقم ـ 9 ـ أ

وتنوعت الأسباب بين :

دراسية	سياسية	مسلكية خلافات بالرأي	خلقية
3	1	3	3

جدول رقم ـ 9 ـ ب

4 ـ المسكن :

الصفحات من 11 حتى 14 تتعلق بأمور المسكن وتفصيلاته الداخلية. في ما يخص تحديد نوع المسكن، فقد توزعت الاجابات كالتالي :

نوع المسكن	العدد
بيت مستقل	55
بيت فوق منزل الأهل أو بجانبهم	9
شقة في بناية	35
فيللا	10
تعديلات على منزل قديم	11
	95

جدول رقم ـ 10 ـ

وقد ظهر أن الاحياء الجديدة ما هي إلا امتداد عائلّي جديد، وان تغيّر مع الزمن من حيث المضمون والمحتوى.

سكن الأقارب والأصدقاء في:

ـ نفس الحي	66
ـ نفس الشارع	53
ـ نفس المبنى	33
المجموع	90

جدول رقم ـ 11 ـ

أما الغرفة المفضلة في المسكن فكانت كالتالي:

غرفة الجلوس	73
الصالون	5
السفرة	14
النوم أو الشرفة	3
المجموع	90

جدول رقم ـ 12 ـ

وكثرت في مساكن المستجوبين الشرفات والأبواب، وغابت القناطر والعتبات، وتعددت الأعمدة الخارجية (81٪)، وكثرت في بعض المساكن الحمامات (دورات المياه التي وصل عددها أحياناً إلى **تسع** في المسكن الواحد). ولم تُلحظ المساحات المخصصة للاطفال بشكل دقيق أو مميز.

ـ حول سؤال **هل تسمح لزوجتك باستغلال كافة مساحة المسكن** وكما تشاء:

ـ أجاب بنعم 93 من أصل 95، ونورد فيما يلي نصاً حرفياً لبعض هذه الاجابات: «نعم ـ طبعاً ـ طبعاً المنزل لها ـ كل المنزل مباح لزوجتي ـ نعم دون أي مانع ـ نعم البيت للمرأة ـ طبعاً فهي أم العائلة ـ لا يوجد أشياء سرية ـ ليس هناك ممنوعات»، ما عدا إجابتين، حيث خصصت غرفة سرية للزوج دون معارضة الزوجة.

وكلها إجابات تتأرجح بين القبول التقليدي بأنثوية المسكن وبين ملكية

الرجل التقليدية أيضاً له، الذي يسمح لها ربما ظاهرياً بالتصرف بحرية داخل المسكن، وربما أتى كقبول راضخ لسيادة المرأة للمسكن.

هذا، وان **تنظيف المسكن** ما زال يتم يومياً وعدة مرات أحياناً في النهار ما عدا نسبة 11٪ إجابت أن ذلك يتم حسب الحاجة وحسب الفصول. إن الأم غالباً هي من يقوم بتنظيف المسكن مع مساعدة «الابنة» أو «الكنة»، عدا تسع حالات قامت الخادمة فيها (وأحياناً بمساعدة أحد بنات المسكن) بهذه العملية، وهي هنا، إما خادمة مقيمة أو عاملة مأجورة (مياومة).

- يهدف السؤال عن عملية التدفئة في الشتاء لمعرفة مدى انتشار الوسائل الحديثة المريحة، وكانت الاجابة، استعمال المواد التالية وبالتدرج:

- غاز - مازوت - كهرباء - رصدت ثلاث حالات تدفئة بواسطة الـ Chauffage، والقياس في هذه الحالة غير دقيق كلياً؛ لأن الواقع فرض نفسه. بفقدان التأمينات والخدمات الواجبة من الدولة حتى لو جُهز المسكن واستبعد لاستقبالها. وأخيراً استخدام الفحم.

إلا أن الجميع شكا من امدادات المياه والكهرباء في الأماكن المبنية حديثاً؛ وهذا يرجع إلى بُعد المساكن عن الطريق العام وعدم وجود شبكة كافية لهذا التمدد المناطقي. وقد قال أحدهم بهذا الصدد: «لو أردنا نحن تهيئة الشبكة الخاصة بنا لدفعنا خمسة عشر ألف دولار أميركي»...

5 - التعرف على الواقع المحيط بالمسكن

تتسوق أكثرية الساكنين من الأماكن القريبة منها (حيث كثرت المحلات في الاحياء، ولا تبعد سوى أمتار، كضواحي حبوش الجديدة بدل الذهاب إلى الساحة القديمة أو قلب البلدة. فإنهم يتجهون إلى النبطية أو دير الزهراني تبعاً للمجاورة أو من تواجد على الخط العام في دير الزهراني فهو يتسوق من هذا الخط الرئيسي)، والتي تحوي كافة أنواع الخُضَر واللحوم والسمانة (اكتفاء ذاتي)، خاصة بعد افتتاح الكثير مما يسمى بـ Super-marché وبعد ما كثر الباعة المتجولون.

ما هو دور **سوق النبطية**؟ 3٪ من العينة يتسوقون منه (مع حالة واحدة برزت في العينة ولا تشتري الخُضَر «لأنها تزرع أمام منزلها»...)؛ مما يدل

على أن النبطية كمركز قلت قيمتها التجارية والخدماتية.

أما عن **سطح المسكن** فالأغلبية لم تستغله إلا في حالات نادرة (للخزانات - للعريشة - لنشر الغسيل - لتنظيف السجاد. . .).

هذا وقد رصدنا مجموع 3 حالات فقطْ تستغل سطح المسكن لأعمال التموين (المونة) أو لتجميع مياه الشتاء. إنها نسبة قليلة جداً إذا ما قيست في الماضي حول كيفية استغلال المسكن (من تخييم صيفي ومن تجميع للمونة).

هذا وتجدر الاشارة إلى أنه تبين أن حالة واحدة استُعمل فيها السطح لأجهزة التقاط موجات لاسلكية.

أخيراً، في ما يخص السؤال الأخير حول إضافة أي شيء آخر في ما يخص المسكن ومن قبل المستجوب، فلم نلحظ أي تفصيل مهم أو محبة في التغيير أو التعديل (ما عدا - وفي أحيان قليلة - إضافة غرفة للمسكن).

الفصل السادس عشر

دراسة علاقات التقابل والمقارنة في أجوبة الاستمارة

أردنا لإبراز دلالة النسب الاحصائية المتعلقة بالاستمارة اللجوء إلى المقارنة ونظراً لقلة - ويمكن القول لانعدام - الدراسات الاجتماعية - الهندسية المماثلة لميدان هذا البحث، فإن المقارنة بوضع سابق في المنطقة نفسها (أو في لبنان عامة) قد التغت. لذلك ستقتصر المقارنة على:

1 - مقارنة بين الفئات المعيّنة في الاستمارة.

2 - مقارنة مع دراسة مماثلة أجريت في المغرب بعنوان:

«ملاحظات حول التغير السكني والتغير الاسري في المغرب»[1].

وأول ما قمنا به علاقات التقابل في أجوبة الاستمارة، هو دراسة **الأسرة** معتبرين أن مسائل الزواج والعلم والعمل هي من أهم المتغيرات السوسيولوجية التي تؤثر على نموها وعلى نوعيتها. وبناء عليه فقد عمدنا لدرس علاقات الزواج:

- حسب فئات أعمار الزوجين.
- علاقة تاريخ الزواج وعمر الزوج.
- علاقة تاريخ الزواج وعمر الزوجة.
- علاقة تاريخ الزواج ودرجة القرابة.
- علاقة الدراسة والعمل.

---

(1) مختار الهراسي - من ندوة المرأة بين الواقع والتصور. الدار البيضاء 10 - 13 شباط 1992.

من هنا تبرز لنا تلك العلاقة الاحصائية التي تربط فئات الأعمار والمتحولات الأخرى.

1 ـ دراسة علاقات التقابل في النسب الاحصائية

أ ـ الأسرة في الزواج والعلم والعمل.

قبل عرض الجدول الخاص، نعرض لمصطلحات الترميز المستعملة في النسب الاحصائية.

أولاً: تاريخ الولادة للزوج وللزوجة

الرمز	التاريخ
1	1929 ـ 1920
2	1939 ـ 1930
3	1949 ـ 1940
4	1959 ـ 1950
5	1969 ـ 1960

ثانياً: تاريخ الزواج

الرمز	التاريخ
1	1949 ـ 1940
2	1959 ـ 1950
3	1969 ـ 1960
4	1979 ـ 1970
5	1989 ـ 1980

ثالثاً: فئة القربى

1	بنت العم
2	بنت الخال
3	بنت العمة
4	بنت الخالة
5	من العمومة
6	من الخؤولة
7	لا قرابة
8	لا قرابة
9	لا جواب

رابعاً: آخر صف درسه بنجاح

1	أمي
2	حتى رابع ابتدائي
3	خامس ابتدائي
4	حتى ثالث متوسط
5	رابع (بريفيه)
6	أول وثاني ثانوي
7	بكالوريا قسم ثانٍ
8	حتى سنة ثالثة جامعية
9	إجازة أو ماجستير
10	دكتوراه

ب ـ علاقات الزواج حسب فئة أعمار الزوجين

زوجة زوج	1920 1939	1930 1939	1940 1949	1950 1959	1960 1969	لا جواب ـ غير محدد	المجموع
1920 1929	2	4	1	1	ـ	2	10
1930 1939	ـ	7	11	1	1	1	21
1940 1949	ـ	ـ	7	12	1	1	21
1950 1959	ـ	ـ	ـ	12	16	ـ	28
1960 1959	ـ	ـ	ـ	2	7	1	10
لا جواب غير محدد	ـ	ـ	1	ـ	1	2	4
المجموع	2	11	20	28	26	7	94

ـ جدول رقم 14 ـ

طغت **فئة اعمار الشباب** (تمت ولادتهم ما بين سنوات الخمسين والستين) على المتزوجين في العينة أناثاً وذكوراً. تليها حالات ولادة في الأربعينات. وهذا ما يبرر فهم التحولات الحاصلة الباقية وتقبل «**الحداثة**» بشكل سريع.

ولمزيد من التفصيل سنقارن بشكل منفصل في الجداول اللاحقة مسألتي:

- ولادة الزوج وتاريخ الزواج.
- ولادة الزوجة وتاريخ الزواج.

ج - علاقة تاريخ الزواج وعمر الزوج

ولادة الزوج تاريخ الزواج	1920 1929	1930 1939	1940 1949	1950 1959	1960 1969	لا جواب غير محدد	مجموع
1940 ـ 1949	4	1	-	-	-	-	5
1950 ـ 1959	5	13	1	-	-	-	19
1960 ـ 1969	1	6	8	1	.	2	18
1970 ـ 1979	-	-	10	15	-	-	25
1980 ـ 1989	-	1	2	12	8	1	24
لا جواب غير محدد	-	-	-	-	2	1	3
مجموع	10	21	21	28	10	4	94

جدول رقم ـ 15 ـ

أغلب الأزواج من الفئة العمرية 1930 ـ 1949/ 1950 ـ 1959 تزوجوا ما بين السبعينيات والثمانينات، وهم من فئة الشباب التي بنت مساكن حديثة لها خاصة (1950 ـ 1959)؛ وهذا دلالة على توافر المال أو الارث.

د ـ علاقة تاريخ الزواج وعمر الزوجة

ولادة الزوجة تاريخ الزواج	1920 1929	1930 1939	1940 1949	1950 1959	1960 1969	لا جواب غير محدد	مجموع
1940 1949	2	2	-	-	-	1	5
1950 1959	-	9	6	3	-	1	19
1960 1969	-	-	12	2	-	4	18
1970 1979	-	-	1	16	8	-	25
1980 1989	-	-	-	6	18	-	24
لا جواب غير محدد	-	-	1	-	-	2	3
مجموع	2	11	20	27	26	8	94

جدول رقم ـ 16 ـ

بدت الزوجة أكثر شباباً (ما بين الخمسينات والستينات كسنة ولادة)، وتزوجت ما بين السبعينات والثمانينات. لكن الفارق العمري ليس كبيراً بين الزوجين. إلا أننا نلاحظ عدم دقة الأجوبة لأن الكثير من المستجوبات كن من الزوجات اللواتي لم يشأن الافصاح عن أعمارهن أو انهن تناسين تحديد سنة الولادة.

هـ ـ علاقة تاريخ الزواج ودرجة القرابة[1]

درجة القرابة تاريخ الزواج	ابنة العم	ابنة العمة	ابنة الخال	ابنة الخالة	من العمومة	من الخؤولة	لا قرابة	لا جواب	المجموع
40 ـ 49	1	1	-	-	1	-	2	-	5
50 ـ 59	1	2	1	-	2	1	11	1	19
60 ـ 69	2	-	1	-	1	1	9	4	18
70 ـ 79	2	1	-	-	2	-	12	8	25
80 ـ 89	3	1	1	2	2	1	11	3	24
لا جواب	-	-	-	-	-	-	1	2	3
مجموع	9	5	3	2	8	3	46	18	94

جدول رقم ـ 17 ـ

عكس التقليد السائد في الزواج: الزواج من **ابنة العم من الأقارب**، فإن الزواج من خارج الاسرة قد سجل أعلى نسبة في العينة، وتوزع عَقْدَه ما بين السبعينات والثمانينات. وترصد العينة تغييراً ليس فقط على صعيد السائد العام، بل أيضاً على صعيد السائد الخاص في منطقة النبطية والجنوب بشكل عام.

(1) عندما تكون هناك درجة قرابة فإنّ ذلك يتعلق ويرتبط بالمرحلة الزمنية، وقت حدوث هذا الزواج؛ لأن العينة أظهرت تعدد حالات الزواج من خارج العائلة الواحدة.

و ـ علاقة الدراسة والعمل

آخر صف بنجاح / نوع العمل	أمي	1ـ 2ـ 3ـ 4 ابتدائي	خامس ابتدائي	متوسط	بريفيه	أول وثاني ثانوي	بكالوريا قسم 2	1ـ 3 جامعي	إجازة ماجستير	دكتوراه	لا جواب	المجموع
حكومي	1	-	1	1	1	-	2	-		1		7
بشركة	2	2	4	4	5	1	3	2	2	1	2	28
عمل حر	-	12	10	3	5	-	4	1	2	-	3	40
عمل زراعي	-	2	-	-	-	-	-	-	-	-	-	2
عمل مؤقت	2	-	3	1	2	-	-	-	-	-	-	8
لا جواب	-	1	3	-	-	2	-	-	-	2	3	9
المجموع	5	17	21	9	13	3	9	3	4	4	8	94[1]
	38			22								

(60) لم يصلوا للثانوين
(94)

جدول رقم ـ 18 ـ

(1) نظراً لكثرة المتغيرات التي حصلنا عليها فضلنا اعتماد الاستمارة كوحدة: لأن اللجوء إلى تفاصيل أفرادها سيحتم علينا الخوض في تفاصيل لا مجال لذكرها في هذا البحث.

إنها فئة عمرية شابة وفتية، ورغم ذلك فإن مستوى تحصيلها العلمي قد تركز ما بين الابتدائي والبريفيه وعرف أكبر نسبة له في الصف الخامس الابتدائي أو السرتيفيكا، بعد أن كانت في الخمسينات درجة العلم هي التي يسعى إليها الفرد وهي التي تحدد انتماءه الاجتماعي.

لقد حل محل العلم، **العمل** أو المهنة الحرة، **وأصبحت هي محدد الارتقاء الاجتماعي والدافع الأول لبناء المسكن الحديث.**

ز ـ مراكز السكن المتعاقبة في لبنان أو في الخارج

فئة / متغير	الجنوب	غيره من لبنان	في الخارج	لا جواب/ غير محدد	المجموع
مكان العمل	71	38	44	52	205
مكان الأسرة	102	40	19	54	205

جدول رقم ـ 19 ـ

سائر عناصر أفراد الاسرة (أب وأبناء)

وقد غلب على هذه الأعمال مهنة واحدة عمل بها رب الأسرة أو أحد أفراد أسرته معه، وقلما أرفقت بمهنة أخرى (ودامت بين 35 ـ 25 سنة كحد أقصى ومن 5 إلى 3 كحد أدنى وتبعاً للفئة العمرية). لقد قل عدد أفراد الاسرة التي تقيم في الخارج مع رب العمل، وهذا ما ساعد على إنجاز المساكن بتواجد الاسرة أو الزوجة بشكل محدد في الوطن، تلك الزوجة التي اختارت بأغلبيتها للعمل المنزلي كمهنة لها، يلحقها التدريس في المؤسسات الخاصة أو الرسمية. والتي فصلت ما بين العلم والعمل أي يمكنها أن تتعلم دون أن تعمل.

ح ـ سفر الأنثى!

لابراز واقع التغيير الحاصل مع الماضي حيث كانت الاسرة منغلقة ومقيدة لافرادها (راجع القسم الأول)، فإننا سنورد في ما يلي جداول متتالية لوقائع سكنية (محتويات المسكن الحديثة ـ توزيعات المسكن الخارجية ووجهة الاستعمال)، وهي وقائع لم نوردها سابقاً بالتفصيل.

أتت نتائج السفر على الشكل التالي: ـ عدم التحديد هي النسبة الغالبة.

ـ كان سفر إلى الدول العربية بأغلبية (للعمل).

ـ وكان برفقة الاسرة أو اللحاق بها.

هذا ولقد كان يقتصر السفر سابقاً على الرجل وللعمل أو للسياحة عكس ما يظهر هنا، فإن عدد الاناث اللواتي سافرن للسياحة قد بلغ 27، وهي نسبة لا بأس بها إذا ما اعتبرنا أن الوضع هو وضع متحول لم يحسم أمر حداثته.

أ ـ من يقوم بحل الخلافات العائلية

لقد غلب اللجوء إلى الحل الداخلي (داخل الاسرة) بنسبة 57٪ دون اللجوء إلى كبيرها أو إلى وجهاء البلدة كما كان يحدث من قبل (تراوحت هذه النسبة ما بين 18 و7٪).

ب ـ حول ارتياد المقاهي والعلاقة مع الأولاد داخل المسكن

	متغير / فئة	نعم		كلا		لا جواب		المجموع	
1	الجلوس في المقهى	54		37		4		9	
2	السماح للابنة الأنثى بالذهاب وحيدة	26		57		12		95	
		ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث[1]
3	العيش وحيداً	28	14	41	47	26	34	95	95
4	استقبال من يشاء في غرفته	43	3	24	31	28	34	95	95
5	تنظيم حفلة راقصة في المنزل	33	25	34	34	28	36	95	95
6	مزاولة رياضته المعتادة	58	42	7	14	30	39	95	95

جدول رقم ـ 21 ـ

(1) حول كل استمارة إجابتين للذكور وللاناث.

إن السماح للذكور هو الذي غلب في العينة رغم بعض ظواهر الحرية المعطاة للأنثى، كقيادة السيارة أو السفر. إنه التأرجح ما بين الماضي والحاضر، أو حسب قول د. هشام شرابي: إنها «الابوية المستحدثة»، إذ سيطر التعلق بالشكل الحديث دون تغيير المحتوى والفكر (وتعلق بالبناء الحديث وإبقاء على العادات القديمة خاصة في ما خص استعباد المرأة واضطهادها: إنه استعباد من نوع آخر). ويمكن القول بأن العلاقة هي علاقة صراع مع الأنثى أكثر منها مع الذكر. لقد علق أحد الآباء في إحدى الاستمارات وبهذا الخصوص: «أنا لا أسمح لابنتي العمل خارجاً أو بالذهاب إلى استراحات وحدها، مع أنها تقود سيارة خاصة بها». وعندما تدخل أحد الموجودين ونبس بكلمة تحرر، وقف الرجل مذعوراً لدى سماعه ذلك.

أما في الجدول الذي يلي جدول المقاهي والعلاقة مع الأولاد، فإننا سنورد إحصاء لما ورد في العينة من أدوات كانت ذات استعمال مشترك من قبل الزوجة والزوج والأولاد ما عدا ماكينات الخياطة. إلا أن مشكلة واجهناها في الاجابة على هذا السؤال، هي في عدم تمكن كافة المستجوبين من رصد كل ما لديهم من أدوات كهربائية، فأتت بعض الاجابات ناقصة أو غير متممة، أو أنهم تمنعوا خوفاً من الاجابة (بداعي السرقة). إلا أنه ـ ومع ذلك ـ فقد برزت أهمية وسائل الراحة الحديثة في حياتهم اليومية وحتى العلائقية (وقد استعملها الرجل في كثير من الاحيان)، كما برز انتشارها في أغلب المساكن (رغم اللا دقة نتيجة الخوف).

ج ـ مدى انتشار الأدوات الكهربائية الحديثة

1 ـ تلفزيون: 82
2 ـ براد: 75
3 ـ غسالة: 88
4 ـ فيديو: 37
5 ـ ماكينة لحمة: 56
6 ـ خلاطة مع عصارة: 39
7 ـ مكنسة كهربائية: 44
8 ـ مروحة: 4
9 ـ راديو ومسجلة: 41
10 ـ مكواة: 41
11 ـ مدفأة: 5
12 ـ «سخان سندويش»: 4
13 ـ أتاري: 6
14 ـ كومبيوتر: 1

15 ـ ستريو : 12
16 ـ فرن كهربائي : 14
17 ـ سيشوار «وفير» : 18
18 ـ ماكينة خياطة : 4
19 ـ آلة مساج : 1
20 ـ آلة تصوير فيديو : 3
21 ـ مكيف : 2
22 ـ مطحنة بن : 2
23 ـ مضخة ماء : 2
24 ـ طنجرة كهربائية : 4

نورد الملاحظات التالية بخصوص هذا السؤال :

1 ـ تفسيراً للمجموع : يمكن أن يلجأ الشخص نفسه ـ المستجوب ـ لعدة حلول مشتركة .

2 ـ أُلغي دور سيد المنطقة ـ أو انه في طريق الالغاء ـ أو شيخها أو أكبرها سناً (ما عدا عرب حبوش، المجموعة غير المتجانسة مع محيطها)، وحل مكانه نموذج غربي جديد. واضطر الأول إلى التنازل عن كثير من امتيازاته لصالح أناس جدد.

3 ـ ازدواجية التوجه عند عامة الناس في العينة، إنهم يلجأون للسيد أو للكبير ويلغونه في الوقت نفسه. وهذا ما نجد له مبرراً بربطه مع الواقع السياسي والاقتصادي في بلادنا : واقع التخلف والتنمية.

4 ـ إزدواجية التمسك بالدين : قلة التمسك وكثرته في نفس الوقت. وهو ينم عن ضياع بين قيم الاتباع وقيم الابداع، ويرى د. «حليم بركات» بهذا الخصوص أن الثقافة العربية، التي تنتمي إليها الثقافة الجنوبية، ليست في جوهرها «ثقافة تقليدية» بل هي ثقافة صراع بين القديم والجديد. إن الثقافة العربية تتمحور حول الصراع بين قوى متناقضة وليس حول الماضي أو حول المستقبل أو حول أي طرف من أطراف الصراع. إن الصراع هو المحور دائماً[1].

لقد بقيت هذه القيم الدينية؛ لأن المتغير الطائفي لم يغب عكس التحول في المتغير الاقتصادي الذي يظهر بوضوح وبتغييراته وبتحولاته في العينة.

---

(1) د. حليم بركات ـ المجتمع العربي المعاصر ـ مصدر سبق ذكره.

م ـ التعرف على الواقع المحيط بالسكن

ـ تم امتلاك حديقة من قِبَلِ 64 عنصراً في العينة مقابل 15 لا يمتلكونها.

ويزرع فيها وتبعاً للترتيب التالي:

1 ـ الخضار.

2 ـ الفاكهة والأزهار.

3 ـ الأشجار.

وغالباً ما يهتم بها الزوج، إما عن أنواع الماشية والطيور فإن الاجابة بـ 85 (لا يوجد من أنواع اهتم بها) قد طغت.

نستنتج أن الطابع التقليدي للقرية قد ذهب وتوارى، وغابت معه:

- العلاقة الحميمة بين الفلاح وأرضه، فالكرامة في الأرض تتخذ طابعاً خاصاً من علاقة الفرد مع أرضه الزراعية المتواجدة، لكن ليس بالمفهوم القديم لها.

- غابت القيم والتقاليد الريفية، فقيم الأرض لم تعد تشكل عنصراً مهماً في «**خيال المواطن** (أو في صوره الشعرية ومخزوناته النفسية اللاواعية»، حسب قول د. بركات. ولم تسد فكرة الخوف من فقدان الأرض وحل محلها الخوف من فقدان المسكن).

وغابت قيم المعيشة أو تناقصت (كمفهوم الجيرة والتعاون والتكاتف).

أما **القيم العائلية** من الشرف والعرض فهي قد أخذت منحى آخر يركز على القبول والرفض في نفس الوقت ويقوم على انتقائية لهما.

وبذلك بدأت تطغى القيم المدينية على القيم الريفية.

2 ـ مقارنة مع دراسة «التغير السكني والتغير الأسري في المغرب»

إنها دراسة ألقيت في ندوة «المرأة بين الواقع والتصور» التي أقيمت في الدار البيضاء في المغرب (10 ـ 13 شباط 1992 م)، وقدمها «المختار الهراس» في كلية الآداب والعلوم الانسانية في الرباط ـ المغرب.

يعتبر «الهراس» أن طرح العلاقة بين التغير الأسري والتغير السكني إنما

ينطلق من «مسلمة الترابط الوثيق القائم بين هذين الطرفين».

فالعائلة باعتبارها ثقافة ومجموعة من التفاعلات تعبر عن نفسها أيضاً عن طريق امتدادها في المجال، حيث تقيم السكن الذي يبدو لها الأكثر استجابة لقيمتها ولنمط عيشها. لكن في الحالات التي تضطر فيها العائلة - وهي عديدة - إلى اقتناء سكن جاهز، فإنها تتكيف آنذاك مع ضغوطه، «إلى حد يصير إحتواء المسكن للعلاقات العائلية أقوى من التأثير من الاتجاه المعاكس»[1]. لقد سعى البحث إلى معرفة ما إذا كانت العائلة المغربية تتجه حالياً نحو الانغلاق على حميمتها أم نحو تفتح متزايد على المجال الاجتماعي الخارجي، ومعرفة ما إذا كانت العائلة تسير باتجاه فسح المجال أمام النزعات الفردية أم باتجاه تدعيم الأواصر الجماعية.

قد وجد - عكس ما وجدناه في عينة البحث - انه رغم التغييرات الحاصلة في المجال السكني بالمغرب، فإن العديد من المنازل لا زالت تجسد في بنيتها الشكل الدائري، تشير إليه كلمة الدار نفسها (الدار من فعل دار - يدور)، بحيث نجد مجموعة من الحجرات تحيط بمجال مركزي يسمى «وسط الدار»[2]. إن تعلق قاطني الدار بمركز هذا المجال الداخلي يختلف حسب مدى إلحاحهم على صيانة الحميمة العائلية، وحسب ما لديهم من استعداد على الانفتاح الخارجي.

خصصت حجرة للضيوف تقع بمعزل عن باقي أقسام الدار.

إن وسط الدار هي العنصر الأهم في التوزيع الداخلي لاقسام الدار وفي وضع الحدود والمسافات الفاصلة بين المجال الخارجي والمجال الداخلي وداخل الدار، بين المجال الذكوري والمجال الأنثوي.

بين هذا الفصل أن الداخل والخارج لم يكون جادين في عينة مساكن النبطية، كما لم يكن الفصل واضحاً بين المجال الذكوري والمجال الأنثوي رغم نزعة التدين والمحافظة التي لم تخل منها هذه العينة.

---

(1) المختار الهراس - من المقدمة - ص 1.

(2) المصدر نفسه - ص 2.

ولقد ركز «الهراس» على عملية الامتداد والتواصل بين المجال السكني القروي التقليدي والمجال المديني، فالمجال السكني القروي ما زال على وظيفة الفصل بين المجالات المختلفة وارتبط بـ:

1 - «**العتبة**» التي نجدها عند الباب الرئيسي للدار، ثم عند مدخل كل حجرة ذات أهمية خاصة.

2 - الانتقال من المجال العمومي إلى المجال الوسيطي، ثم إلى مجال النساء[1]، مروراً بالمجال العائلي.

أما المجال السكني المديني الحديث فقد شهد تطوراً للحميمية دون تغيير واضح لتوزيع الحجرات وللدار: من الحجرة المخصصة للضيوف إلى المجال المخصص للأكل والنظافة والترفيه وصولاً إلى مجال النوم (الأطفال والأبوين)[2].

كما أن زائر السكن المديني - وقبل أن يصل إلى عتبة الدار - يصطدم بالسور أو السياج الخارجي أو بالجرس و«الانترفون» في بعض المساكن الجديدة. **فالهالة شبه القدسية التي تضيفها العائلة على الدار باعتباره مجالاً محرماً على الآخرين هي نفسها سواء تواجد المسكن في القرية أو في المدينة.** ومقارنة، فإن ما سمي بقدسية العائلة لم يظهر في دراسة البحث الاستطلاعية، التي ركزت بدورها على حميمية مرادفة **للفردانية** وليس **للقدسية**.

واحتفظ في المسكن المغربي الحديث بالصالون المغربي التقليدي (الذي استبدل في العينة بغرف شرقية حديثة الطراز لم تستمد استمراريتها من أصول الماضي الجنوبي).

إنعكاسات التغيير (ما بين الثبات والتحول)

1 - حدثت تغييرات في المجال السكني الحديث (قروي ومديني) اما: بتغيير نمط السكن من مسكن إلى آخر، أو بتعديلات تجريها العائلة في ذات المنزل الذي تقيم فيه الأسرة. وتختلف الانعكاسات السكنية لهذه العلاقة

(1) ومجال النساء لم يرصد في العينة حتى لدى التعرض للمسكن التقليدي القديم.

(2) المصدر نفسه - ص 3.

المتغيرة حسب الحي ونوع الملكية وحالة الدار.

2 ـ من عوامل التغيير: مغادرة الأطفال منزل الآباء ـ الخلافة بين الزوجة والحماة. وتقلص السلطوية التقليدية ما بين الآباء من جهة والبنات والابناء من جهة أخرى.

3 ـ التطلع إلى حياة الاستقرار في المدن والتزايد الديموغرافي في المدينة (ومراكش بالتحديد) بداعي الهجرة.

4 ـ أسهم النمط العمراني الجديد في بروز الاسرة الفردية واستقلالها النسبي عن الأسرة الممتدة.

5 ـ بقاء أيديولوجية القرابة وقيم العرض والتضامن العائلي.

غير البنية العائلية والبنية السكنية في المغرب كانت في سيرورة مستمرة ودينامية متواصلة يتفاعل في سياقها الطرفان ويتبادلان التأثير.

أوجه التقارب[1] مع نتائج العينة

ينطلق التقارب من جدلية التغير بين البنية العائلية والبنية السكنية والتفاعل الدينامي بين البنيتين.

لقد تقاربت النتائج بين الدارسين رغم بعض الاختلافات التي برزت في نزوع عينة السكن في المغرب إلى الابقاء على بعض مظاهر القديم.

1 ـ تشابه في التوجه نحو الأسرة النواتية مقابل تفكك في الأسرة الممتدة.

2 ـ تقلص العلاقات الاجتماعية ما بين الأفراد والجماعات في الدراستين والتوجه نحو تقليص عدد الأصدقاء.

3 ـ متغير حضاري لم يرتبط بالمستوى التعليمي بقدر ما ارتبط بمسائل السفر والهجرات، فأضفى قيماً حديثة تركزت أول ما تركزت بترك المسكن الأبوي.

4 ـ تزايد الهجرة باتجاه المدن.

---

(1) سنطال أوجه التقارب في نطاق ما تمكنا الحصول عليه من تفاصيل تخص المجال السكني المغربي.

5 ـ تناقص مسائل الاحتفالات العامة وتقلص حجم الوحدات المنزلية.

6 ـ إعادة توزيع الحجرات المستقلة لكل من الاناث والذكور؛ مما يسمح ببناء شخصية مستقلة على الصعيد التربوي، وعقل قادر على التميز.

7 ـ تواجد نماذج سكنية جديدة تحمل العائلات على بناء حجرات متخصصة الوظيفة.

التشبث «بوسط الدار» في المسكن المغربي، قابلة التشبث بحجرة الجلوس أو المعيشة في المسكن الجنوبي، كمجال احتضان الحياة العائلية الجماعية.

تنامي التوجه، توسيع فتحات الدار والشرفات والأبواب، وزيادة عدد القناطر؛ مما يدل على انفتاح على العالم الخارجي، فأصبح الدار جزءاً من كيان أوسع رغم التوجه لسيادة النمط الفردي للاسرة. ونلفت أن ساكني الفيللات والمساكن المستقلة (في العينتين) يتجهون إلى توسيع المساحة المسكونة.

10 ـ المزاوجة بين الاستقلال الفردي الظاهر وبين استمرار التواصل بين أعضاء الاسرة والمجتمع.

11 ـ انتشار التلفزيون وأثره على تصور العائلة لمجالها السكني.

12 ـ ارتبط مفهوم السكن الحديث بمفهوم قرار جديد للانجاب (الاقلال منه).

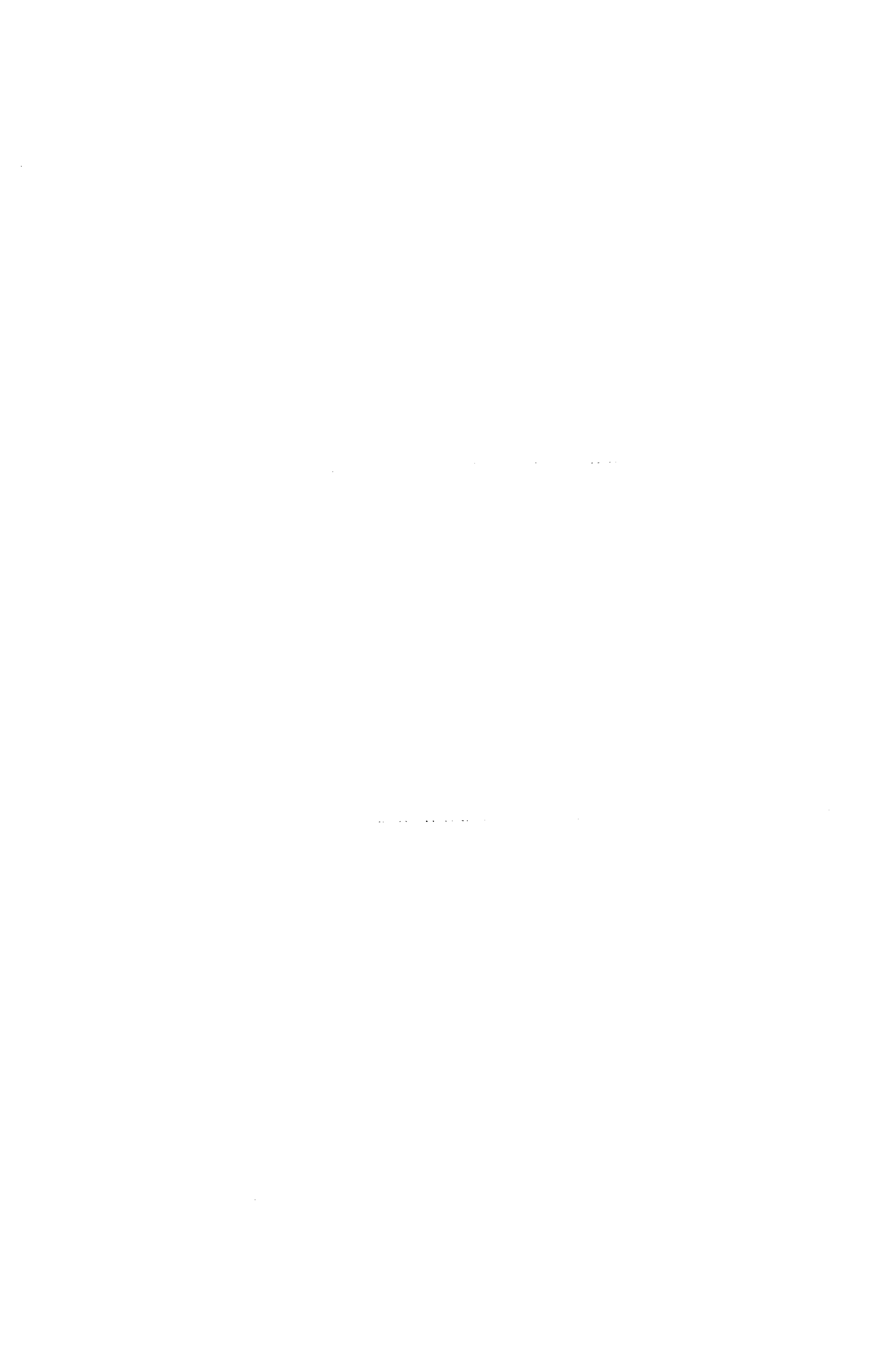
من هنا السؤال التالي: هل تتوافق هذه البنية السكنية الحديثة المتحولة المغربية والجنوبية ـ اللبنانية والتي تتراوح بين قطبي الاتساع والانحسار المساحاتي أن تخفف من أعباء المرأة وجهدها المضاعف في وقت تتجه فيه المرأة إلى خوض ميداني العمل الخارجي والداخلي معاً؟ وهل ينم عن تغيير عميق في العينتين يبدو سابقاً لأوانه؛ لأن انتماءهما لمجتمع مصنَّف بمجتمعات العالم الثالث يقلل من عامل الحسم في التوجه وفي الخيار ويعرف في التوجه نحو نظام أبوي مستحدث متجاذب بين القديم والحديث.



القسم الثالث

استنتاجات واقتراحات

- الفصل السابع عشر: استنتاجات عامة
- الفصل الثامن عشر: خاتمة



الفصل السابع عشر

استنتاجات عامة

أصبح البناء في هذا البحث ظاهرة اجتماعية تتجه نحو عصبية تتقلب التي يستبعد فيها فهم الاحتياجات، ويستبطن الحديث عنه في الثقافات الاجتماعية وفي المناخ الفكري العام.

ويحتاج الولوج إلى معرفة الواقع المعماري معرفة (الذات ـ البانية) أولاً؛ لذا كان التقرب تقنياً من الأطفال ومن المسنات وصولاً إلى صاحب البناء، كي نتعرف إلى بعض الدوافع الكامنة وراء (الذات ـ البانية) للمسكن، والتي خلقت جواً اجتماعياً عاماً تسود فيه فكرة الرغبة ببناء المسكن كأساس في عملية الترقي الاجتماعي.

وبعد قراءة وتحليل معطيات الزيارة والدراسة الميدانية للموقع السكني في هذا البحث، قسمنا استنتاجاتنا إلى أقسام تختص: بالمجال العام، بالمجال السكني الخاص.

I ـ على صعيد المجال السكني العام

أ ـ جغرافياً: غياب الفصل النظري، ومن ثم التطبيقي ما بين كل من المدينة والقرية، فكيف نحدد هذا المجال العام من الناحية الجغرافية؟

إنه مجال غير خاضع لشروط المدينة كلياً (لغياب المراكز الإدارية الكبرى مثلاً، ولقيامه على المبادرات الفردية وليس المؤسسات الضابطة)؛ إلا أنه مجال ينمي وظائفه المدينية أكثر من وظائفه الريفية (يتوجه نحو بناء المصارف والمراكز التجارية والخدماتية والسياحية، ويسير نحو الاكتفاء الذاتي)، وتنمو الأولى (الوظائف المدينية) على حساب الثانية بحيث تركت

وتآكل معها **المحيط الريفي الذي لم يعد سوى مشهدٍ متخيلٍ** (sur le plan imaginaire). لكي نحدده نقول أنه أكثر من متصل حضري - ريفي وأكثر من مجال نصف مديني؛ لأن ميزان المدينة يطغى على النصف الآخر فيه، ألا وهو الوجه الريفي.

إنه مجال متحول، تحوّل من المجتمع الريفي إلى مجتمع مديني، ولقد ظهر هذا التبدل أو التحول بسيرورة تمدين عفوية **استعارت** أشكالاً متعددة.

إنها حالة القرية ذات الجذور الريفية التي أصبحت مدينة يُحتذى بها، تركت بنيتها التقليدية وهي في طور إعادة بناء بنية أخرى تتماهى أصلاً بالنموذج المديني الحديث.

ومما لا شك فيه، أن كل بنية مساحاتية تخضع لمبدأ التطور الطبيعي، ولدى دخول عدة عوامل تسمح بهذا التطور. إلا أن التطور المديني الحاصل متأثر بالوضع اللبناني العام المتحول في نمطه والذي اعتمد ولسنوات طوال على القطاع الخدماتي والتجاري العام، ومتأثر بالوضع الخاص للمنطقة الذي منحه الكثير من التمييز والخصوصية، والذي أذاب معه الشخصية الفلاحية التقليدية، ونشر نسقاً قيمياً حديثاً ما زال في طور التفتيش عن هوية له. فهل نسميه مدينياً؟

ب - هندسياً، لم تُحترم قوانين التنظيم المدني وما تقدمه من مساهمات في تنظيم وتخطيط البناء السكني؛ وغير السكني، مما أدى **الى قيام التناحر وليس التكامل بين المدينة ومحيطها «الريفي»** (مع الحذر في استعمال كلمة ريفي)، وإلى تنوع في صناعة البناء. هذا التنوع ينقصه **التطوير**؛ مما أدى مضافاً إلى عوامل أخرى إلى فوضى في المجال، وتحديداً في الامدادات والشبكات الخاصة بالأمور الحياتية.

ولقد بُني هذا كله على فهم خاطئ لقوانين التنظيم المدني، وفي تصور خاطئ من المواطن «لمسألة الملكية العقارية على أنها حرية مطلقة، ويستعمل الأرض كما يشاء بغض النظر عن مصلحة الآخرين ومصلحة الوطن»[1].

---

(1) د. محمد فواز - التنظيم المدني والاسكان - من وقائع مؤتمر إنماء لبنان الاجتماعي - المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى - بيروت 1991 - ص 122.

استعمال هذه الحرية المطلقة مرفقة بفقدان **الرادع والضابط**، ألحقت فوضى في المكان وطفرة في المجال الذي لم يكن مؤهلاً لاستيعاب هذا التطور ليس من الناحية الجغرافية، بل من الناحية الهندسية والاجتماعية؛ مما يؤكد فرضية الانطلاق في الدراسة.

ولقد غاب دور المهندس الوظائفي، واقتصر دوره على الدور الجمالي، فلم يبذل جهداً تخطيطياً خاصاً بغياب التخطيط والتنسيق العام للدولة؛ مما زاد في هذه الطفرة العمرانية، فكثرت الأبنية التي يشرف عليها المهندسون بدون أدنى المقاييس التنظيمية المدنية (امدادات المياه والكهرباء - المرآب - النفايات - المجارير وكافة الامدادات الصحية - غياب أمور الصيانة). وكأننا أمام مهندس حُرم من التعبير فصبّ كل أمانيه وتخيلاته للمسكن الحلم داخل مشاريعه الجديدة التي أصبحت موضوعاً موحداً للتجاوزات الهندسية (الانفلات) وللتخيلات النفسية. لقد كان بإمكانه أن يجمع ما بين طلب صاحب المشروع وخلفيته بالتباهي **وبالاستعراضية** وبين المقاييس الهندسية التنظيمية التي لا رقابة عليها بغياب الدولة، فيكون دوره دوراً توافقياً تطابقياً، بدل أن يقتصر على السلبية.

ج - إدارياً: إذا اعتمدت مقاربة وزارة الاشغال العامة والمباني في تحديدها للطريق الدولية، فهو تعريف إداري غير ملم بأنظمة السير وبمصطلحات الطرق الحديثة؛ وعليه يمكن اعتبار أغلب طرقات لبنان طرقاً دولية، ويمكن أن تصل لبنان بسوريا وبفلسطين.

ألا يجب أن تؤدي هذه الطرق بامتداداتها، لوصل البلد بدول أخرى، وظيفة هندسية حديثة؟

ولقد نتج عن هذا الغلط الاداري التخطيطي عدم فهم شعبي لمفاهيم الطرق العامة والدولية والتمييز بينها؛ والدليل أنه لا يوجد في لبنان أي طريق مخصص فقط للسيارات دون المارة سواء على صعيد البنية أو على صعيد التطبيق والاستعمال. إن الكل يعبر الطريق الدولية أو الاتوسترادات بدون تواجد أية فاصل ما بين الاتجاهين. إن الطريق الدولية النبطية - الزهراني هي طريق عريضة وحديثة، لكنها خالية من التنظيم ومن الأنظمة، حتى في عدم انتظام أشجارها على الطرفين.

إنها طريق كانت تمر في البداية في «الأراضي البور»، ويتفرع منها طرقات القرى، ولقد أصبحت الآن طريقاً امتلئ جانباها بالمباني السكنية والتجارية[1]: ظاهرة المدينة الطولية أو «مدينة بالطول». وهكذا فقد أصبح كل لبنان مدناً بالطول[2]؛ لأنه المجال الخدماتي الرسمي البنيوي ناتج من الخلل التخطيطي، وأصبحت القاعدة أينما يتواجد الطريق يتواجد العمار، وتتواجد التجارة، عكس التاريخ القديم الذي يحكي لنا عن ابتعاد التجمعات عن الشوارع للحماية من ممر الغزوات والجيوش.

د ـ **اقتصادياً**: من العوامل المحددة التي لعبت دوراً في عملية التغيير، مجموع العوامل الاقتصادية المنتجة داخل المجال العام:

في المنطقة، في الحي أو على جانبي الخط كما هو حاصل في بلدة دير الزهراني مثلاً.

. ما هي وظائف هذه البنى المنتجة؟ ما هو الدور الذي تلعبه؟

إن البارز حالياً، هناك، هو قطاع خدماتي تجاري حرفي انتقل من المدينة والعاصمة إلى المناطق، وقام على حساب غياب:

- واهتراء النمط الزراعي التقليدي القديم (كزراعة التبغ مثلاً)، نظراً للاغراءات التي قدمتها المدينة والهجرات بأنواعها، وما نتج عنها من قلة في اليد العاملة وفي رأس المال.
- رقابة الدولة وإشرافها لتنمية القطاعين: الزراعي والاقتصادي، وما ينتج عن هذا الاشراف والتخطيط (فيما بعد) من إعادة تمركز القوى العاملة (خاصة الزراعية منها)، وزيادة الانتاج وتحسين الوضع الاجتماعي العام.
- إستهلاك منظم للأراضي وهدر لرأس المال.

ومما لا شك فيه أن **نمو المصارف** في منطقة ـ وهي لا تنشأ بفعل حاجة

(1) خاصة المحلات التجارية التي حجزت الطوابق الأرضية من الأبنية السكنية بالقرب من الخط العام.

(2) إضافة إلى الطريق الدولية في العينة، هناك على سبيل المثال، الطريق الدولية بيروت ـ عاليه ـ المديرج ـ شتورة ـ المصنع التي تصل العاصمة بسوريا.

فعلية لها إن الحاجة هي التي تحدد التواجد المصرفي ـ وانتشار مكاتب السفر والمطاعم والاستراحات و«السوبر ماركت» والمراكز التجارية ونمو الصناعات المختلفة ـ التي سبق ذكرها ـ هو نتيجة لعملية تغيير طالت المجال الاجتماعي العام. وتكمن مشكلة التغيير في عدم وعيه، فغابت المشاريع الخدماتية الاجتماعية التي تعود بالمنفعة على عامة الناس. من هنا نؤكد الفرضية التي تحدّثت عن الانفلات **الذاتي** أكثر من **الجماعي**. لقد تضخم الخاص على حساب العام، ولقد طال التنافس الشكل وليس المضمون. كما لم تعد المسألة الاقتصادية هي التي تجعل الشخص يختار مأجوراً ـ أو يبني مسكناً ـ يتناسب مع دخله إجمالاً، فأصبح وكأن كل الناس يبغون مساكنهم ويعبرون عن نفوسهم وسلوكهم بطراز هذه المساكن.

هـ ـ سياسياً، انحسر وأفل نجم الاقطاعي القديم الذي باع أرضه لأهل ولسكان البلدة الأصليين أو غير الاصليين. وانكسرت بانحساره صورة البيك أو السيد أو الوجيه، حيث كان التنافس محلياً وموجهاً ضد الجميع، وكأن السعي للحصول على الشهادة وعلى تحصيل العلم للأولاد قد تحوّل اليوم ليصبح تنافساً مناطقياً طال الحرفة والمهنة وفي الأوساط كافة، وأصبح المال في متناول أكبر عدد ممكن من الناس؛ مما حدا على جعله المؤشر الباعث على التغيير والتحويل. وهذا ما سنعمل على إبرازه في مكان آخر.

كما أن العمل السياسي داخل الطوائف عشية الحرب الأهلية والانخراط في حركات وأحزاب متعددة، والتمركز حول القيادات المنظمة التي تمكنت من القيام بتحريك جمعي للجمهور دفع إلى بروز الكيانية وإلى انقلاب في المراتب الاجتماعية وإلى كسر التركيبة السياسية التقليدية، وإلى تعزيز النزعة الفردية الذاتية بعد طول حرمان وقهر. ولقد أدى هذا الوضع إلى إنتشار وضع سلطوي أبوي يحمي تحت جناحيه الاقليات في المناطق (كحال بفروه في العينة).

تواجد الأقليات هذا، في مجالنا الاجتماعي العام الذي نحن بصدده، لم يؤثر على مجرى الاحداث والتطورات (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية)، فشعورهم إلى الحاجة للحماية والأمن والاحساس بعدم الاستقرار دفع بالشباب إلى الهجرة الداخلية والخارجية، وإلى بقاء الآباء ومن تبقى من الأجداد داخل

منازلهم المتواضعة، للحفاظ على منتوجاتهم الزراعية التي تعتبر غنية إذا ما قارناها بمنتوجات القرى المجاورة (نشاط زراعي ظاهر ـ جو زراعي ـ أصالة ريفية)، مما ساعد على الابقاء على مجال ريفي محض في بلدة بفروة فقط، التي شملتها العينة. وهذا ما يحمل على الاستنتاج أن تواجد النمط الخدماتي لا يحمل، في العينة، تواجداً فعلياً لنمط انتاج آخر، ألا وهو النمط الزراعي، فإمّا هذا وإما ذاك... التكامل مرفوض. ويصح القول بهذا الخصوص ان التحول المفاجئ الذي طرأ على بنية الانتاج في مناطق النبطية ألغي معه النمط القديم، عكس ما يحدث في أوروبا مثلاً ـ وفي فرنسا تحديداً clermont-ferrand تجمع بين الزراعة والمرعى وبين الصناعة ـ وكأن الانتاج الزراعي هو مجسد للحرمان وللقهر (زراعة التبغ مثلاً)، والانتاج الخدماتي الحالي هو رمز انحلال **السلطة** والقمع، إنه تعويض وبديل عن واقع غير محبب. وبالفعل فإن العمل الزراعي إنقرض لحساب العمل الحر الذي شكل بنسبة 40٪ من العينة (أو العمل في شركات خاصة الذي شكل بنسبة 28٪). ولقد رافق هذا الانقراض تناقص في نسبة العمل الحكومي الوظائفي الذي ساد قبلاً، والذي كان له الدلالة والأهمية الاجتماعية والسياسية والفكرية.

كنتيجة، قلت المساحات الزراعية، وحتى تلك التي تحيط بالمسكن الحديث، وقلّ الاهتمام بها من قبل العائلة (زوجة وأولاد وزوج)، وانقرضت المواشي والطيور (عدا قلة من الدجاج للاستفادة المنزلية).

أما في ما خص حالة «عرب حبوش» ـ وهم من الأقليات أيضاً ـ فنجد أنه رغم تأثر مجالهم السكني بالجوار فإن نمط العلاقات القبلي ظل سائداً في ما بينهم، وفضلوا الابقاء وبإصرار على مرجعيتهم السياسية الخاصة بهم، والتي في حال أرادت النصرة أو الدعم، فإنها تلجأ إلى الخيار الطائفي، فيكون المرجع عند ذاك مدينة صيدا وليس مدينة النبطية.

و ـ اجتماعياً، التواصل الحاصل ما بين المدينة والريف، هو تواصل حاصل ما بين الحديث والقديم، وإذا حُسم أمر خيار التوجه المديني، فإن أمر خيار الحداثة هو توجه محسوم ظاهرياً، صراعي داخلياً. إنه احتذاء بالغرب - المثل الأعلى ـ لم يمر بمرحلة الادراك الذاتي أو المعرفة النقدية أو حتى الوعي الاجتماعي الذي طالب به د. شرابي. إن التغير الاجتماعي الحاصل في

المنطقة العربية كلها هو نفسه الحاصل في النبطية (مع بضع التعديلات والخصوصيات). . .

فالكيان العربي الحالي قد بُني أساساً على مجموعة من الخيبات المتتالية التي صبغت مصيره وجعلت المفكر العربي يكرس اهتماماته في تفكيره وبحثه على الذات العربية[1] التي لم تحسم أمرها بعد. فالغرب قد نجح في إعطاء الحداثة بعداً غربياً، في حين فشلنا نحن؛ مما جعل البعض يخلط بين الحداثة والاستعمار، ويدعي أن الحداثة دخلت مجمعاتنا عن طريق السلاح والحروب[2].

إن تحديث نمط عيشنا وتفكيرنا هو تأصيل لكياننا، لكن أين نحن من هذا الكيان؟ إن بناء كياننا ما زال بناءً قلقاً؛ «لأن الفكر السياسي ما زال يتمحور حول الشعور بالقلق»[3].

فرغم إنقطاع المجال المبحوث مع الماضي، لكنه إنقطاع يفصل بين المعنى والكلام ـ على حد تعبير أدونيس ـ على صعيد التعبير واللغة، واعتبار المعنى سابقاً عليه، وليس الكلام إلا صورة أو رسماً تزيينياً. إن العربي ما بين حاضره وماضويته يفضل «الكتابة على الخطابة؛ لأن الأخيرة أقرب إلى محاكاة النطق الالهي أو الوحي أي المعنى من الكتابة. . . إن الكتابة قناع النطق، أي أنها لا تمثل لحظة حضورها الكامل إلا بغياب الكامل»[4]. إن الفصل السابق بين الكلمة والمعنى يقابله. في العينة، فصل ما بين الرسم المعماري والمعاش الاجتماعي. فعمارة الجنوبي (أو حتى العربي)، لا تؤذن كثيراً عن معاشه. وهي تظهر ثنائيته الفكرية ما بين قبول الحديث: الشكل، ما بين رفضه؛ مما يظهر تأرجحاً في الحياة اليومية وفي المضمون، وهذا ما ظهر في عينة البحث.

وعليه فإن التغييرات الحداثوية هي تغييرات شكلية لم تنفِ التعلق بالماضي. فظاهرياً نجد أن المسن، وخاصة المسنة، قد تأقلمت مع حديثها

(1) فتحي ورشيدة التريكي ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 35.

(2) المصدر نفسه ص 32.

(3) المصدر نفسه 32.

(4) أدونيس ـ مصدر سبق ذكره ـ ص 29.

ولا تحن كثيراً إلى قديمها، مرجحة كفة الحاضر على كفة الماضي، وتركت بدورها مسكنها القديم ومجالها القديم كي تعيش في «البناء الحديث - الموضة». . . لكن قبولهن المفرط للشكل السكني الحديث أخفى قبولاً حذراً للواقع العلائقي الجديد. والطفل لم يرسم أية معالم لأية رؤية معمارية قديمة. . . والاستمارات قد توزعت على أبنية حديثة اقتحمت بجرأة المجال هناك. . . والآلة الكهربائية - أحد متغيرات الدراسة - لم تدخل فقط المسكن الخاص بل المجال الاجتماعي بشكل عام، فكثرت أماكن اللهو والتسلية للكبار وللصغار، ودخل التلفزيون كل القطاعات وأغلب مساكن العينة، فكان الأداة الأولى والأكثر عدداً (82٪ من أصل 95، مع لفت النظر إلى أن 13 منهم لم يحددوا إجاباتهم لدواعٍ لم تُعرف مفصلة).

وهذه هي مخازن وبيع كافة الأدوات الكهربائية المنزلية التي تخفف من أعمال ربة المنزل (كالغسالة والجلاية والمكنسة الكهربائية، وما شابه) قد تكاثرت خاصة على طريق عام دير الزهراني - حبوش.

ولقد دخل «الكومبيوتر» أو العالوم في الكثير من المجالات الخدماتية والسكنية. لكن العلاقة ما بين الرجل والمرأة من جهة وما بين الأب والأولاد من جهة أخرى لم تخف دونية المرأة ولا الدور القمعي من قبل الأب على الابناء - الاناث خاصة. كما أن المرأة - رغم تحصيلها العلمي - ما زالت تفضل البقاء في المنزل كربّة له، وبتواجد المال، على أن تخرج وتنمي شخصيتها (أغلب النساء كن في المنزل بغياب أزواجهن - أثناء تعبئة الاستمارات - وكن يترددن في الاجابة عن أمور تخص الزوج، مع أنها فعلياً تخص سكنهما).

أما من رواسب الحداثة الظاهرية، فذلك الانفلات (أو الرفض أو اللامبالاة)، الذي تجسد في عدم القدرة على إيجاد قيادة جماعية تنظم وتدير شؤون الجماعة بغياب الدولة: كتكاثر النفايات مثلاً وتراكمها داخل كل بلدة: إنه غياب للحس الجماعي وللادارة الجماعية وللافراد في ما بينهم على حد تعبير Depaule[1].

(1) J. Charles Depaule- Territoires de l'urbain et pratiques de l'espace. in politiques urbains dans le monde arabe- Maison de l'orient - Sindibad 1984. p. 486.

وما دام التغيير قد طال مستويات العلاقة بالمرأة ـ بالأطفال وببعضنا البعض (مستويات ثلاثة يؤكد عليها شرابي)، لكنه لم يحررها[1]؛ فإنه لا يحسب على أنه تغيير اجتماعي جذري رغم الطاقات المادية الهائلة، فتحقيق التغير يتطلب ـ كما سبق وأشرنا ـ إرادة ذاتية قادرة على استيعاب اللحظة التاريخية والعمل بمقتضاها.

II ـ على صعيد المجال السكني الخاص

لقد تغيرت وظيفة المسكن التقليدية وتحولت بنيته الزراعية؛ مما اتبع تغيراً في الشكل السكني. وتأثر المسكن؛ وحدة الاسرة، بالتغييرات الحاصلة في المجال الاجتماعي العام، وأصبحت له فلسفته الخاصة في البناء، والتي انقطعت كلياً مع الماضي، وكثر عمل المهندس المعماري هناك، رغم أنه لا يتم التقيد كلياً في بعض الاحيان برأيه، ورغم إشرافه الفعلي على المشروع. لكن المهندس الداخلي (مهندس الديكور) غاب كلياً، وتم التركيز على ذوق الزوجين وما يجب أن يبرزوه وليس ما هما بحاجة اليه، وتواجدت بعض النواقص في داخل المسكن ـ رغم التركيز على **الابهة والفخامة والاتساع** ـ فغابت أحياناً الستائر والثريات، وأحياناً كثيرة رسومات ولوحات الحائط... الكتب والمكتبات (التي ان وُجدت فهي للزينة). وغابت أيضاً الوظائفية في أثاث هذه المساكن التي خلت من «الحميمية» التي يتحدث عنها حسن فتحي؛ وبذلك فإن الداخل تفاوت مع الخارج (داخل شرقي مقابل خارج غربي)، خاصة من حيث الابهة، وطغت رؤية اغترابية يتيمة غير مبرمجة للمسكن وللسكن.

إن أهم نتائج التغيير انعكست على العلاقات داخل المسكن، أي على العلاقات ضمن الاسرة التي تسكنه؛ مما نم بالتالي عن اختلاف في الشخصية

(1) أظهرت العينة أنها ليست بحاجة فعلية لعملها حتى لو تعلمت المرأة، وقد اقترنت ـ رغم التحولات الطارئة ـ في كثير من الأحيان فكرة ارتباط عمل المرأة بالحاجة المادية له ـ أي للعمل ـ وليس بالحاجة الفكرية والثقافية له. والمرأة في العينة تنتظر الرجل كي يرسل لها المال من مكان إقامته. لذا لا تجدر المطالبة فقط بوجوب إعطاء الفرص المتكافئة كي تساهم في إعادة البناء، بل يجب نشر الوعي؛ لأن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: ما هو موقف المرأة نفسها في العمل؟

القاعدية، تحمل ملامح عنيفة ومتفجرة على الصعيد الواعي واللاوعي:

أ ـ **طرأ تحول** على بنية الاسرة. إنه تحول وليس تطوراً لأن التطور يشير إلى الاغتناء بالتنوع وإلى وجود حركة طبيعية بطيئة تنتج تغيراً يؤدي إلى بروز نوع جديد... ويتم هذا التطور بموجب عملية متصلة ذاتية... وهذا ما لم يحدث في العينة أو في لبنان كله[1].

لم يكن هذا التحول حاسماً أو نهائياً، خاصة أن التعديلات التي حصلت طالت الخارج أكثر من الداخل؛ مما أدى إلى **«مثنويات متعاكسة داخل المجال** الواحد، مسجلة اتجاهات متفاوتة تصل إلى حد التناقض»[2]. وترعرعت **الأسرة النواتية**، رغم الصعوبات الفعلية التي واجهت تطورها واستقلاليتها، إلى جانب الاسرة المتحولة، وإن بدأت الأولى تغلب الثانية. وتجدر الاشارة إلى أن الأسرة النواتية تنوعت بسلوكها، وأخذت الكثير من الأسرة الثانية على صعيد مستواها العلائقي والمسلكي. بمعنى آخر، إن مقومات الأولى (خاصة الهيكل)، تواجدت لكن العلاقة تداخلت. من أهم العوامل التي ميزتها:

- احتقار السكن في القرية القديمة (بالقرب من الجامع والحسينية والساحة والعين الخ...).
- انفصال عن سكن العائلة الاصلية (بسبب نزاعات عائلية ـ اجتماعية أو عائلية ـ إرثية الخ...). فتشكلت مع هذا الانفصال الوحدات السكنية المستقلة التي أعلنت صعوبة التعايش بين الأجيال، وتطلعت باصرار إلى حياة الاستقرار المديني (حتى عرب حبوش أنفسهم فإنهم قد ملّوا حياة الترحال، وانتقلوا إلى مجال يجمعهم ويُقِرُهُمْ).
- إنحسار للايديولوجية القرابية وقيم العرض والشرف وقيم التضامن العائلي دون غيابها كلياً، مما يعمل على دمج علائقي واضح ما بين العائلة الواسعة والاسرة النواتية أو النووية.

ب ـ لم يعد المستوى التعليمي هو المحدد، فرغم أن نسبة الأمية لم

---

(1) د. زهير حطب ـ مظاهر التحول في الاسرة في زمن مضطرب ـ وقائع مؤتمر إنماء لبنان الاجتماعي ـ المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى ـ بيروت 1991 ـ ص 189.

(2) المصدر نفسه.

تظهر في العينة، لكن الانكفاء والانحسار في المستوى التعليمي كان واضحاً، ويمكن لمن حصّل الدراسة حتى الصف الثالث أو الرابع الابتدائي وتوقف عنها منذ فترة أن يعود ويصنّف في خانة الأميين. لقد قلت نسبة التحصيل العلمي بين الأهل والأولاد لصالح الأهل بعد أن سيطر سابقاً مفهوم التنافس في التحصيل العلمي (قبيل الاستقلال) بين أولاد الاسر الجنوبية، وحلّ مكانه التوجه نحو العمل الحرفي المبكر بدل نيل الشهادات العليا. كما أن العلاقة واضحة في العينة بين السلوك المعماري المتضخم وبين المستوى المهني والتعليمي، حيث أن أغلب أصحاب هذه المشاريع هم من فئة لم تكمل تعليمها الثانوي أو العالي: إنه نوع من التعويض المادي يحمل الكثير من صفات الثأر والانتقام الموجّه ضد «البيك» وضد «المدنية»، ويتنفس عبر الهجرة. ولم توجد مشكلة عند هؤلاء في حال كان مستوى الزوجة العلمي أعلى من مستواهم:

- 21٪ حصلوا على الخامس الابتدائي.
- 17٪ لم يحددوا مستوى الدراسة الابتدائية.
- 13٪ بريفيه.

ج ـ أسر العينة هي أسر شابة ينتمي أغلبها للعمر الثاني[1] من حيث عمر الزوجين ومن حيث تاريخ الزواج ومن حيث المستوى الاقتصادي (المرتاح) بفعل الاعمال الحرة والحرفية والهجرات. كما قلت فيها نسبة الزواج من الأقارب[2].

- وجدنا 46 زيجة من أصل 95 زيجة خارج إطار القرابة.

(1) تبعاً للمعايير الديموغرافية التي تعتمد الجانب البيولوجي الفيزيولوجي كعامل محدد في تقسيم الاعمار:
- من صفر حتى 15 ـ 16 سنة = العمر الأول
- من 20 حتى 60 سنة = العمر الثاني.
- من 60 سنة وما فوق = العمر الثالث.
واما مسألة اقتناء قصر أو فيللا في بدايات العمر الثاني فإنها ظاهرة غريبة نسبياً لم تحدث مع أبويهما وتعلن حرقاً للمراحل.

(2) بدأ هذا النوع من الزواج خارج إطار العائلة منذ سنة 1950، وشهد على نسبة في السبعينات.

- في حين وجدنا 9 زيجات من ابنة العم.

- زيجات قرابة العمومة كانت أكثر من زيجات قرابة الخؤولة.

د - لم يعد مسكن الأهل هو المسكن الأساسي للتجمع ولاقامة المناسبات؛ مما يدفعنا للاستنتاج أن نمط العلاقات القرابية بدأ بالتحول، وأصبحنا نقترب من نظام علاقات أسرية نواتي - كما سبق وحددنا - يتقاسم بالتساوي نظام علاقات أسرية متحولة. وغادر الابناء مسكن الآباء، بحيث يمكن الحديث عن تطور للحميمية في مساكنهم (أي الأبناء):

من حجرة الضيوف أو الصالون إلى غرفة السفرة إلى حجرة المعيشة، ثم إلى مجال النوم(حجرات الأولاد والأبوين).

لقد ألغت هذه الحميمية وظيفة الفصل بين المجالات الداخلية المختلفة (والخارجيّة أيضاً)، وقد ارتبطت عملية الفصل هذه «بالعتبة» في المجتمع اللبناني والعربي القديم، التي تتواجد عند الباب الرئيسي للمسكن أو عند مدخل كل حجرة ذات أهمية خاصة، وقد سبق وأشرنا إلى أنها علاقة فصل والتقاء أيضاً (تقاطع) بين الداخل والخارج، ويمكن اعتبارها حدوداً يتحقق عبرها الانتقال بين المجالين الانثوي والذكوري.

ولقد تعدّدت نوافذ هذا المسكن الحديث «المنتقل اليه»، بحيث أنها صارت واقعاً سائداً، وبحيث أن دلالتها تشير إلى انفتاح على العالم الخارجي تخفي مبدأ الاستعراض وعلاقة التعلق بالحداثة. ولقد زينت هذه النوافذ بأشكال شتى من أمور الزينة (ورود وأزهار وزجاج حاجب أو ستائر معدنية خارجية الخ...)، ودون أن تكون بحاجة دائمة لستائر داخلية.

وحلت النوافذ بأشكالها المتعددة والمتنوعة وبقناطرها الحديثة محل الكواير في الداخل، والتي كانت تأخذ أشكال: المثلث والمربع والدائرة - نسبة إلى O.Marc[1]

لكن الطفل حين رسمها، أقفلها بكاملها تقريباً. هذا الاقفال هو علاقة صراع وأزمة علائقية نفسانية، سنردها إلى الداخل أي إلى الاسرة؛ لأنها - أي النوافذ - هي بدورها علاقة انفتاح على الخارج الذي رسمه الطفل في الدراسة بوضوح وبتركيز.

هذا التناقض في نتاج الطفل هو تناقض محمول ومنقول من واقع عيش الاهل المثنوي المتعاكس الضائع ما بين قطبي: الحداثة والاصالة. فهل هو طفل مغرّب عن واقعه(aliéné)؟

أما صحن الدار فقد ألغي نهائياً من المسكن الحديث ـ مسكن الأبناء ـ وتم استبداله «بالسطيحة» Terrasse أو بالبلكون balcon تماشياً مع الموديل الغربي.

ولقد أصبحت غرفة القعود أو الجلوس هي الغرفة الأكثر أهمية في المسكن. ويطلق عليها اسم غرفة التلفزيون، وتحلّ محل الصالون، وتلعب نفس وظيفته. هذا الصالون المتواجد بإصرار، قلت وظيفته نسبة لتقلص العلاقات العائلية وحتى الاجتماعية في ما بين الافراد والجماعات.

إلا أن تقلص الحياة الاجتماعية لم يقلص المساحة السكنية الحديثة بل زادها إتساعاً مع تقليل من وظائفيتها.

هـ ـ أغلب الخلافات كانت تحل داخلياً (داخل الاسرة بنسبة 75٪ مقابل حل الأقارب بنسبة 18٪). وإذا حسم أمر حل الخلافات وعدم عرضه علناً، فإن أمر اللجوء إلى التنجيم وقراءة الطالع وغيرها هو أمر لم يُحسم بعد وضاع ما بين التقليدي المتوارث وبين الحديث ذي النزعة العلمية الموضوعية. وهي مسائل يلجأ اليها الشخص في حال الغبن: فعندما يشعر الانسان أنه مغبون فهو لا بد من أن يعترف ويقر بها ويلجأ إليها حسب قول «د. حجازي» في كتابه «سيكولوجية الانسان المقهور». وشعور ابن العينة بالغبن هو شعور متناقض مع إحساسه بالراحة وبالأمان وبالفوقية الناتج عن بنائه لمسكنه المميز.

و ـ تحملت المرأة قسطاً من المسؤولية لم تكن ممنوحة لها من قبل؛ وهذا ما فرضه وضع الزوج المسافر ـ وليس وضع النضال التحرري ـ طلباً للرزق، وعمله في الخارج، وبقاؤها داخل مسكنها ومنطقتها، فساهمت في بناء القرار الزوجي والعائلي والسكني؛ مما عزز شخصيتها ومبادرتها، وغير من تطلعاتها، خاصة في مسألة الانجاب، إذ بدأت بتنظيم أسرتها وبتحديد عدد أولادها. لم يكن تحررها إذاً مطلبياً ونضالياً ولا حتى معرفياً علمياً أو مهنياً؛ لكنه جاء نتيجة لوضع قائم فرض نفسه، واستفاد بشكل لا واع من التوجهات النسائية المطلبية وقطف ثماره، وأعلن الحرية والاحساس بالكيان

الذاتي[1] (الذي يفضل القيام «بصبحية» على الذهاب إلى العمل غير الاضطراري). علماً أنه سبقت الاشارة إلى أن بعض النساء حصلت على شهادات من اعلى أزواجهن في العينة، فأصبحت القاعدة: للزوجة العلم وللزوج المال[2].

وبالمناسبة فإننا نورد هنا إحدى ملاحظات فريق تعبئة الاستمارات، وهي ميل الزوجة إلى تدخين السجائر عكس الزوج الذي لا يدخّن، وقد جرت العادة على أن التدخين هو عادة ذكورية أساساً.

ونختصر القول أن هذا الواقع العمراني في الريف السابق غيّر وضعية المرأة، فجاء تغيير نقيسه نوعاً وليس كماً؛ لأنه حمل تغير وضعها الاقتصادي والثقافي والسياسي، وتغيرت معه الزاوية المفضلة لديها التي اعتادت ارتيادها في المجال الخاص، وانتقلت من المطبخ إلى غرفة الجلوس التي أصبحت زاوية مشتركة للجنسين بعد أن كانت زاوية ذكورية. . .

ورغم ما حققته المرأة من نجاح نسبي، هو برأينا موضوع نقاش، (في متابعة أمور زوجها المسافر في العينة أو في مهنتها وعملها خارج العينة)، فإن نجاحها هذا ما زال يتعثر، وامتيازاتها محرومة بسبب مواقف المجتمع عامة.

ز ـ أكدت الدراسة على بديهيات عُرفت مسبقاً وهي أن إنجاب الاسرة المسلمة يفوق انجاب الاسرة المسيحية (الفرق بين أسر زفتا مثلاً وأسر بفروة)، مع الاشارة إلى التغييرات الحاصلة في تحديد الانجاب لدى الأسر المسلمة في العينة.

ح ـ لم تلحظ العينة وجود سياسة تربوية هادفة ـ كما هو الحال من ظاهرة السياسة العمرانية ـ للأطفال وللأولاد داخل البناء الحديث، مهما عظم وتباعدت مساحاته، سياسة تغطي نشاطاتهم وتغطي أوقات فراغهم. لماذا؟ هذا يعود لسببين:

---

(1) لكن بشكل مغلوط.

(2) ما دام ان الزواج للمال فهو يقبل فوقيتها عليه بالتعليم، لأنه سيعيد امتلاكها وعبر مادياته المغرية والتي تتداعى معها كل فوقية.

1 ـ ح ـ إن المظهر الخارجي للبناء قد طغى على الأمور «التنظيمية الداخلية»؛ فأصبح الهم هو التباري والتسابق في العمران وليس معرفة احتياجات الاسرة وتنظيم البناء بناءً على هذه الاحتياجات. وكأننا أمام سياسة عمرانية حزمت أمرها، وحددت هويتها مقابل رجرجة وتأرجح سياسة عائلية أبعد عمقاً، لكنها أعطت الأهمية الثانوية:

شكلاً حسم أمره **ومحتوى** متجاذباً، ما بين الحسم والارساء تظهر الحاجة لتطور ولنضوج اجتماعي أكبر.

2 ـ ح ـ رغم التنظيم الظاهري لإعادة الحميمية إلى أجواء السكن الحديث، فإنها لم تنجح هذه الاعادة، وانعكس الفشل في عدم توزيع الادوار توزيعاً سليماً ما بين الأهل والابناء، وفقد الواقع بدوره علاقة حميمة مع الذات والأهل. ولقد برز هذا الصدع في رسومات الأولاد التي لم تحدد أية مساحة خاصة بهم ولا أية مساحة تفصيلية أخرى بل كان التركيز على الخارج مقابل إغلاق وتكتم عن الداخل. لقد نقل في رسمه تضخيم عملية المباهاة لدى الأهل الخالية من التراث ومن القاعدة الفكرية المعمارية حيث «أصبح الشكل الخارجي للعمران والكسب التجاري للعمارة هما الهدف والوسيلة في آن»[1].

ط ـ قلت المؤشرات الصدامية داخل الأسرة الواحدة وفي إطار علاقتها مع الابناء، لكنها لم تختف. لقد تقلصت العلاقات السلطوية الوالدية التقليدية ولعبت الام ـ نسبياً ـ دوراً قيادياً إلى جانب الأب (كما عبرت عنها رسومات الأطفال). وقلّ العنف الثوري في صفوف الأولاد. إلا أن حرية الذكر كانت أكبر من حرية الأنثى في كثير من المجالات، رغم بعض التفهم من قبل الأهل لأولادهم ولمتطلباتهم الحديثة.

وتكمن المشكلة في أن هذا التفهم هو تفهم حداثوي **شكلي مادي تلقائي**[2] غير مبني على قناعة تربوية منطقية هادفة وعلى وعي وتخطيط مستندين إلى معرفة بعض من عالم الطفل ونفسيته.

أخيراً، واستناداً إلى ما تقدم، نعمل على عرض أهم ميزات السلوك

(1) د. محمود شرف الدين. أي مسكن لأية مدينة. مجلة النقطة ـ العدد 3 ـ 1992.

(2) متأتٍ من الانفتاح على العالم المديني والاغترابي.

المعماري[1] الحاصل في لبنان بشكل خاص يمكن أن يحصل في بلدان أخرى عام:

1 - إنه سلوك «استعراض هتاكي» Exhibitioniste، وهو سلوك اضطرابي (أساس الاضطراب: اضطراب جنسي)، يتلخص في الاستعراض كوسيلة للحصول على اللذة بدل الحصول عليها من خلال الفعل[2]. والسلوك التهاكي يكتفي بالاغراء وبالاثارة مع أخذ الطابع القهري والسادي؛ لأنه في الحالة القهرية يقف الفاعل موقف الضعف ويستعرض ما عنده بشكل اضطراري وتحت شعار الخجل. أما في الحالة السادية فيحاول الفاعل أن يصدم من خلال النظر اليه[3].

والسلوك المعماري الهتاكي فيه الكثير من الرغبة ومحاولة السيطرة من خلال الاثارة: إثارة الآخر بعرض ممتلكاته العمرانية وبإظهارها بطريقة استفزازية كي يُصدم بها وكي يتمنى الحصول على مثلها (سواء أكانت نهاية اللذة جنسية أم غير جنسية).

2 - إنه سلوك اهتياجي يصل في كثير من الأحيان لحد الانهيار والمرض. والسلوك الاهتياجي (هرج اهتياجيك agitation maniaque)، وهو حالة تتسارع فيها كل العمليات العقلية والنفسية ويستثار الجهاز الحسي الحركي، فينطلق الشخص في نشاط عارم ومفتت منتقلاً من فكرة إلى أخرى بدون أي ترابط سوى تداعي الأفكار والألفاظ. إنه شعور بالسعادة وبالوفاق مع الوجود والرضى عن الذات وتضخيمها. إنه رد فعل نفسي وجداني من الاحساس بالقوة والجبروت والسطوة على العالم الخارجي، ترافقه مشاعر غبطة ورضى عن الذات. وقد يكون الاهتياج رد فعل على مشاعر العجز والتقصير والمهانة ما تولده من قلق شديد. إنه نوع من القلب السحري للمعادلة الوجودية لمصلحة الانسان المسحوق والعاجز[4].

---

(1) ويمكن القول وبعد قراءة أهم ميزات هذا السلوك بأنه سلوك عصابي (névrotique).

(2) يقول p.fedida، إن اجتياح «الجواني» «للبراني» في مظاهر الاستعراض التحريضي (لدى مريض paranoia) ما هو الا فقدان «الجواني» لدى اسقاطه على «البراني» (l'absence ص 169).

(3) د. مصطفى حجازي - التخلف الاجتماعي - مصدر سبق ذكره - ص 278 - 279.

(4) المصدر نفسه - ص 252.

والسلوك الاهتياجي عند اللبنانيين هو مظهر من مظاهر التكيف مع الحرب المدمرة[1] (تلك الحرب وما تركته من آفاق وحرمان وتفاوت طائفي واجتماعي وسياسي).

فبدل الاقبال المفرط على وسائل الادمان أو غيرها من الوسائل التي تساعد على الهرب من صعوبات الحياة، فإن الالتفات هنا للتفتيش عن سلوك نهم لاجتياف الحياة وليس فقط التذوق من ملذاتها، بل امتاع العين بما يبهجها ويبهج غيرها من اسراف في الشكل والمظهر والمادة للتعويض عن شعور عميق بالدونية وبالقهر وبالغلب.

إن هذا السلوك المعماري هو سلوك اهتياجي باحث عن المتعة، يقترب من الاستعراضية. فتمتيع الناظرين بالمسكن أو بالفيللا أو بالقصر هو حالة تعويضية اجتماعية عن فقدان مرجع سلطوي (فقدان الأرض وغياب الدولة في الجنوب وما ألحقته بتفكيك داخل الأسرة القديمة)، ينغمس أحياناً برفقة سلوك ديني (أغلب أسر العينة ملتزمة دينياً). وما حالة العودة إلى عاشوراء في أغلب أسر العينة إلا عودة تتفق مع ثنائيات التوجه الحاصلة، فهي في نفس الوقت سلوك تعبيري وحالة تعبير عن حاجة لاستمرارية ولحماية مثل في غياب المرجعية الأولى.

ونلفت النظر إلى أن هذا التعويض المركز على الشكل في هذا السلوك المعماري الاهتياجي ـ الاستعراضي أعاد التوازن إلى أساس الشخصية التي أكدت عبره ذاتها ومساواتها حيث أصبحت شعار البناء السكني الهندسي: أنا أمتلك إذاً أنا موجود (والامتلاك يعني امتلاك السكن).

---

(1) د. عباس مكي ـ المشكلات النفسية للاسرة. وقائع مؤتمر انماء لبنان الاجتماعي، المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى ـ بيروت 1991 ـ ص 217.



الفصل الثامن عشر

خاتمة واقتراحات

لقد تضخم السلوك المعماري ـ موضوع الدراسة ـ وأنبت سلوكاً حياتياً يومياً، يَجْهَدُ على أن يُدْرَجَ في خانة السلوك الحداثوي وفي صلب عملية التغيير.

- وكان ميدان هذا السلوك في هذه الدراسة «منطقة الجنوب» في لبنان التي عُرِفَت بمآزمها السياسية والأمنية والاجتماعية، مما انعكس سلباً على بنيتها النفسانية، فعاش الجنوبي حالة مأزقية نفّس عنها عبر سكنه؛ لأن المسكن هو الأنا، هو الذات، هو الهوية وهو التباهي... وبرز فعل السكن عند الجنوبي هذه المرة ـ وكحقل صراع ـ على أنه جزء مهم من التعبير الصارخ عن **الأنوية**، وبدا **كأوالية توازن نفساني** في دوامة البحث عن هوية وطنية واجتماعية (السلطة والأب والمرجع).

ولعب أيضاً دور التعويض المكاني الذي لم يخلُ من التنافس[1]، وكأننا به نعلّق وساماً على صدره استحقاقاً عن دار فخمة تمكن من بنائها.

والسياسي المقهور، عبر عمارة حديثة، يصل إلى بعض من التوازن النفسي يعمل على امتصاص مآزم الوضعية الراهنة ـ كما مرّت به سابقاً دول الخليج، إلا أن بناءه السكني هذا، رأى تعبيراً عن سلوك مرضي ألغى معه صفة التوازن.

لكن، هل هذا السلوك المعماري الحاصل في الجنوب هو لصالح المنطقة أم ضدها؟

---

(1) تنافس بين المغتربين أنفسهم على سبيل المثال.

هل ينم فعلياً عن تحسن أحوال أهله أم انهيار لها؟ أم أنهم مصابون بحمى «وهذيان» المسكن والبناء؟

إن ما يحدث في الجنوب[1] من طفرة معمارية، أعاد النظر ببنيته الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية - مضافة اليها عوامل تحول أخرى -، وخرطته في النمط المديني - الريفي (Système ruro-urbain) بغياب دولة مشرفة ومخططة عقب عليها مدير عام التنظيم المدني[2]:

«بأنها جريمة بحق لبنان كلمة» متسائلاً هو بدوره:

«هل هي ظاهرة تعبّر عن واقع اجتماعي معين أم أنها أتت بنتيجة تطور اجتماعي معين»؟

وأجاب بنفسه - وحسبما يراها - بأنها حالة تعبير عن سلوك سياسي سلطوي لا علاقة له بمبدأ التطور؛ «لأن وضعنا السياسي أنتج كارثة اجتماعية معمارية ولم ينتج قفزة نوعية. والتجربة قبل النبطية، كانت في صور حيث دُمّرت المنطقة الأثرية رغم محاولات الاونيسكو لحمايتها، وتجاوز البناء الخمسة عشر طابقاً بدون أن تُسكن حتى الآن...»!

مما لا شك فيه أن أحوال الجنوب تحسنت، لكن الفهم سائد فعلياً في التفتيش عن المال والسلطة بهدف الرقي الاجتماعي.

إن الحرب التي سادت في البلاد وطفرة البناء الحالية التي واكبت آخر مراحل هذه الحرب الأهلية، **أنتجت شريحة اجتماعية جديدة لها علاقة بالعمل وبالحرفة، ولا علاقة لها بالفكر وبالثقافة وبالوظيفة.**

لقد انقلبت المراتب الاجتماعية والسياسية وتغيرت التشكيلة الاجتماعية التقليدية التي كانت سائرة نحو الانحلال. **وبدخول الرأسمالية اللبنانية إلى الريف** (والتي جرّت ربما إلى إقطاعية جديدة!!) وتفتتت ملكية الأرض، وانتشرت التجارة الصغيرة، كما انتشر التعليم والوظيفة، وتوسعت الهجرات، وتعددت مقاصدها[3]؛ مما أدى إلى ظهور التاجر المغترب جنباً إلى جنب مع

(1) وتحديداً الخط الممتد من الزهراني حتى مدينة النبطية.

(2) مقابلة أجريت مع د. محمد فواز - بتاريخ 7/ 6/ 90.

(3) د. أحمد بيضون: ما علمتم وذقتم. المركز الثقافي العربي - بيروت 1990.

صاحب المهنة الحرة، الذي ولدى عودته للبلد، موّل أبنية فخمة تتناسب مع ما جمعه من مال.

فبالفعل، لم يكن تشييد الفيللا في القرية ينفصل عن تحصيل مرتبة اجتماعية في المدينة. واليوم وبفعل الاثراء، وبفعل أغنياء الحرب الذين استفادوا من الوضع الاستثنائي والميليشيات، شيدت الفيللات الضخمة في القرى الجنوبية بشيء من الثأر والانتقام وعدم الانضباطية وغياب العقلنة، والافراط في الابهة والمظهر الذي أصبح المقياس في بلادنا، مما دفع بأن «تنتفي الكوابح الخلقية وتصبح كل وسيلة تعجل بالوصول مشروعة ومبررة... ومن هنا يقع الانسان المتخلف في الزيف الخلقي وينخرط في عملية الاحتيال والكذب والتضليل، وكلها على النقيض الكامل للتحرير من خلال التغيير الوجودي والاثراء الحياتي الداخلي...»[1] [2]، على أن لا ننسى بروز الفرز الطائفي والمذهبي والعودة إلى العشيرة «والربح» للاستقرار!.

لقد أصبح العمار والبناء في الجنوب ظاهرة نفس - اجتماعية، والظاهرة النفس - اجتماعية هي في «نهاية التحليل صدى ومؤشر لظاهرة سياسية قانونية. والظاهرتان مترابطتان بشكل بالغ التعقيد. إن الصيغة السياسية تخط الصيغة الاجتماعية، وعلى العكس، وتحدد لها توجهاتها، وتختار لها ألوانها، وترسم لها منحنياتها، وتصمم لها صيغة التسوية المعتمدة في حال إنفجار الصراعات بين عناصر الجماعة والمؤسسة»[3].

---

(1) د. مصطفى حجازي: سيكولوجية الانسان المقهور. معهد الانماء العربي بيروت 1989. ص 218.

(2) قسم Poulantzans - الذي كان وفياً لماركس مع إدخال بعض التطويرات على فكرة الطبقة الوسطى إلى مجموعتين: البورجوازية الصغيرة التقليدية، والبورجوازية الصغيرة الجديدة. تتشكل الأولى في نظره من الذين يملكون رأس المال ويراقبون بأنفسهم سير عملية الانتاج دون لجوء إلى عمل مأجور، في حين يمثل المجموعة الثانية أولئك الذين يتحكمون نسبياً في عملية الانتاج، ولكن يكونون في الوقت نفسه عرضة لاستغلال ما، حتى وإن قلّت درجته عن الاستغلال الذي تتعرض له البروليتاريا، إلا أن «رايت» Wright اختلف معه عن مفهومه من البورجوازية الصغيرة الجديدة، ورأى تواجد مجموعات تحركها دوافع ومصالح مختلفة، وقسمها إلى 3 طبقات: بورجوازية رأسمالية - بورجوازية صغيرة، وبروليتاريا:

F.O. Wright-classes Worfolk, U.K. Thetford Press- 1985.

(3) د. عباس مكي - محاولة في علم النفس السياسي اللبناني - النهار - الثلاثاء 21/ 1/ 92 - عدد 18137.

وعليه لقد أنتج الجنوبي ـ كما أنتج العربي سابقاً ـ ظاهرة الادمان على القصور والتراخي والتقاعس وعدم بذل الجهد في محاولة لتغيير الواقع الأمني الراهن، كما اتجه أيضاً نحو محاولة عقلنة القصور الامني بتفسيرات سياسية وفلسفية شتى من ألوان المواقف الانهزامية[1].

أما إذا كان للعربي مجال حنين للماضي ولأمجاد هذا الماضي[2]، فإن الجنوبي قد ألغى حنينه لمنزله القديم، وحاول تغيير واقعه (القَلِق والمحبط) دون محاكاة للماضي، فاتجه نحو بناء القصور والفيللات مقابل عملية الغاء[3] لهذا الماضي بكل قديمه وتفاصيله التي تخص عملية السكن، وأبدع من ثم في تساميه الهندسي، ووصل إلى إنشاء تجسدات[4] شكلية مساحاتية لم تعد فقط نتاجا بل منتجة للأنساق الاجتماعية.

وربما كان رفض الحنين وإلغاء الماضي، عملية اقتصرت على المساحة المبنية، أي على الشكل، حيث لم تبرز أية مقاومة للتغيير في هذا المجال.

من ناحية أخرى، وحسب المفهوم الجشطلتي (مبدأ التوازن والتوازي والتطابق بين الحقول الثلاثة: الفيزيائي ـ الفيزيولوجي ـ السيكولوجي ـ مبدأ الايزومورفسيم»[5]، فإن المساحة المبنية والمجال السكني الخاص هما من المساحات غير المنظمة بطريقة عقلانية جشطلتية، تعكس عدم تنظيم المجال

---

(1) د. عباس مكي ـ المجال النفس اجتماعي العربي ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1991 ـ ص 109.

(2) المصدر السابق، ص 107، ويُعتبر الحنين «نتاج العمل النفساني الجمعي الذي يعبر عن محاكاة حاضرة وراهنة للماضي بهدف استعادته والتحالف معه لتغير الواقع الراهن المحيط والقلق».

(3) الإلغاء أو الـ annulation، هو أوالية نفسية، يجهد الشخص من خلالها أن تصبح بعض الأفكار أو الكلام أو الحركات أو الافعال الماضية وكأنها لم تكن أصلاً. وهو يستخدم لهذا الغرض تفكيراً أو تصرفاً، لها معنى مضاد. يتعلق الأمر هنا باضطرار ذي «منحى سحري» مميز للعصاب الهجاسي على وجه الخصوص... وفسّر فرويد هذا التعارض بأنه تعارض ما بين الحب والحقد...»: د. مصطفى حجازي ـ ترجمة ـ معجم المصطلحات التحليل النفسي ـ مجد ـ بيروت 1987 ـ ص 92.

(4) تعرض لها كلود ليفي ستروس في كتابه الانتروبولوجيا البنيوية.

(5) عباس مكي ـ المصدر نفسه، ص 200.

الاجتماعي العام (من بنية مؤسساتية وخدماتية واحتياجات الحياة اليومية من ماء وكهرباء ومواصلات ـ الخ)[1]؛ مما يعمل على تزايد قلة الانضباطية والانتظام المديني الفعلي في دورة الحياة اليومية، وهذا ما يفسر أيضاً عدم تقيد الأبنية الحالية بقوانين التنظيم المدني.

لقد أتت **حداثة** البناء الجنوبي بناء على **حاجة نفسية** تسعى إلى التمرد على الدولة (بعد **خوف منها**)[2]، **عبر مخالفات** وصفقات سريعة تبتعد عن العمل الدؤوب، في غياب استراتيجية عامة (من قبل الدولة) تعطي الامان وتوحي بالطمأنينة.

فإعادة تركيب الدولة وبنائها مهم جداً، وليس فقط على الصعيد الاقليمي أو المحلي، بل على الصعيد الذاتي (**الصعيد المرجعي للفرد**)، كما أن اشرافها المباشر واشراف جهاز إداري تخطيطي مهم أيضاً، لكن هل يتمكن هذا من كسر ما هو سائر معمارياً ويرد ما شُوّه وما خُرِقَت مراحله؟

للمساهمة في إعادة التعمير والبناء، ولإرساء دعائم عملية السلام، ولحصر التمدد العمراني الفوضوي، ولردّ ما هُدِمَ ولإعادة الوظائفية للشكل المبني، للمكان السكني نقدم سلسلة اقتراحات نقسمها إلى قسمين:

إقتراحات تخص **المستوى الهندسي ـ المعماري**، وأخرى تخص **المستوى الاجتماعي** (معتبرين أنه كُلّ يضم الاقتصادي والسياسي والثقافي الخ. . .)، وتنطلق من أساس **التخطيط المؤسساتي**.

1 ـ على المستوى الهندسي ـ المعماري

1 ـ 1 ـ **إيجاد قانون للتخطيط العمراني** يحقق الانماء ويصون التراث ويحافظ على البيئة، ويكون بإشراف إحدى الهيئات الحكومية أو الأهلية، يعيد

---

(1) نحن لا ننقل المجال النفسلوجي (النفسي) إلى المجال السكني، بل نعتبر هذا الأخير جزءاً منه.

(2) مع لفت النظر إلى أن التمرد على الدولة أثناء الاحداث كان عاماً في لبنان ولا يقتصر على مخالفات البناء في الجنوب فحسب، إلا أن وضع الجنوب السياسي قد زاد من حدة هذا التمرد.

تركيبة الأنا الأعلى الجنوبية المعطلة حالياً أو انها مع وقف التنفيذ[1]. فالتخطيط العمراني يطال السكني، والسكني له احتياجات مختلفة، ولا يكون صالحاً إلا إذا اشتمل محتواه على عملية تأهيل أساسية تدعمه وتُبعد الانظار عنه على أنه وحدة للتباهي.

1 ـ 2 ـ **تطوير قوانين التنظيم المدني** التي أمست بحاجة لاعادة النظر كي تواكب عملية التغيير، وكي تحصر في نفس الوقت الطفرة المعمارية، خاصة في ظل ما يجري من عدم احترام حق الدولة في البناء (والابتعاد عن المشاع)، وفي هتك قوانين الطرقات العامة (بترك فسحة بين العام والخاص)، فإدراك هذه الطفرة المعيشة يحثنا على التأكيد وليس فقط الاعتقاد بغياب قوانين للبناء (ولكافة أمور التنظيم المدني) متطورة وعصرية يسهر على تطبيقها، خاصة في ما يتعلق بالحفاظ على قوانين الصحة العامة والامدادات والشبكات الخدماتية وما شابه من بنى فوقية وبنى تحتية.

ونفصل في ما يلي بعضاً لهذه الجوانب التي يجب أن يطالها التنظيم المدني وبإشراف باقي الوزارات المختصة، وبصورة جدية وحديثة مركزاً فيها على **الأساسيات**، غير مبتعد عن **الكماليات**:

1 ـ 2 ـ 1: الحد من التطور العشوائي للأحياء.

1 ـ 2 ـ 2: مد شبكات نقل وتوزيع المياه على المناطق المحرومة منها، خاصة تلك المناطق الريفية المدينية، أو كما يُطلق عليها المناطق القروية المتحولة[2].

1 ـ 2 ـ 3: إعادة تنظيم المجاري والحفر الصحية وتوسيع شبكات المجاري في المدن الرئيسية[3].

---

(1) نأخذ مثلاً للمقارنة ـ ما يحدث في صيدا وجوارها من مشاريع عمرانية وإنمائية، ولا سيما ما يخص الأمور الخدماتية العامة والطرقات والحفاظ على التراث، ومساهمة من مؤسسات الحريري. ويمكن لهذا القانون أن يستفيد من تجربة هذه المؤسسات الخاصة في هذا المجال.

(2) حسب تعبير الدراسة الصادرة عن مؤسسات الحريري: لبنان الواقع وحاجات التأهيل والتنمية، بيروت 1987.

(3) المصدر نفسه، ص XXI.

1 ـ 2 ـ 4: إعادة تنظيم شبكات الكهرباء. ونتبنى هنا الفكرة الواردة في وثائق «لبنان الواقع وحاجات التأهيل والتنمية» في التشجيع على استخدام الطاقة الشمسية في الاستعمالات المنزلية والصناعية الخفيفة بهدف التوفير في استهلاك المحروقات.

1 ـ 2 ـ 5: إجبار المهندس على التحقق ولدى تنفيذه للمشروع ـ من تأهيل الشبكات الخاصة، وإيجاد مرآب للمساكن الجديدة والبدء بإعطائها عناوين مرقمة أو أي رمز بريدي آخر (وهذا ما هو غير متواجد حالياً حتى داخل الاحياء). وتجدر الاشارة إلى أن هذه المساكن هي مساكن أغلبها بدون هواتف وبدون اتصالات مع العالم المديني الخارجي.

1 ـ 2 ـ 6: المساهمة في إعادة الاعمار والبناء؛ وذلك عبر المحافظة على البيئة والتخفيف من تلوثها، ويتم ذلك بواسطة المهندس الذي يمكن البدء بحل المشكلة وذلك بالاهتمام بمرامي النفايات المنزلية، وإعادة تأهيل المرافق الطبيعية وحمايتها[1]. إن الأسلوب المعماري المتبع في البناء الحديث حالياً لا يحافظ على الثروات الطبيعية ولا يراعي أي أسلوب نظافة أو حماية[2].

1 ـ 2 ـ 7: زيادة عدد الحدائق العامة في هذه المدن ـ القرى، مع زيادة في أماكن الترفيه الأخرى (من أندية رياضية ومراكز ثقافية وصالات سينما ومسارح)، يمكن أن يخفف العبء من التوجه إلى المسكن كمكان إقامة وترفيه على السواء.

1 ـ 2 ـ 8: تحسين الطرقات والمواصلات ووضع أنظمة حديثة للسير مع إشاراتها الخاصة، والعمل جدياً على إيجاد حلول لمشاكل المدينة الطولية المستحدثة بما يتلاءم مع ضرورات الحاجة والامتداد والمرور، مع وجوب الاهتمام بالطرق الفرعية المؤدية للاحياء وللتجمعات السكنية الحديثة.

---

(1) كتشويه الجبال مثلاً ـ ما يحدث على مدخل حبوش الاساسي.

(2) راجع الدراسة الاستطلاعية التي رصدت مشكلة النفايات مثلاً في القرى المدروسة والتي تتراكم على طول الخط ـ العينة، إضافة إلى أن المصانع التي بدأت بالانتشار في العينة لا تراعي المواصفات البيئية التي يجب اتباعها؛ مما يهدد بكارثة بيئية مضافة إلى العوامل الأخرى.

ويفترض إقامة الجسور وتجديد الطرق الرئيسية وتجهيز تقاطعاتها بالاشارات أو بالمحولات الخ. . . كما يجب تأمين المواصلات العامة التي تربط المدن بالضواحي وعدم الاكتفاء بالمواصلات الذاتية الفردية، لما في ذلك من أهمية في المادة وإنماء وتنظيم المنطقة.

1 ـ 3: **إعادة تدريب المهندسين أكاديمياً** وليس مدرسياً وتعزيز ثقافتهم بالبحث الجاد عن إمكانيات التوفيق بين الحداثة والاصالة. وللجامعات هنا دور مهم في تعزيز ثقافة المهندس، وفي العمل بجدية على تطويع مواد البناء المحلية وفي تحسين مستوى التدريس والبرامج وفي بث الروح السيكولوجية في كيفية التعامل مع «**العميل**».

فالأزمة ليست فقط أزمة بناء وعمار، بل انها أزمة مهندس معماري أيضاً. فعليه منع إنشاءات تحول دون تنفيذ المشروع العام (غير المتوفر حالياً)، كما عليه مراعاة قوانين التنظيم المدني في ما خص أنظمة البناء العامة ودرس الامتداد المناطقي والتخطيط له وتطبيق حق الشفعة. كما عليه التساؤل عن طبيعة التغييرات الحاصلة وعن نوعية وطبيعة القطيعة الحاصلة مع الماضي ومفهومها الاجتماعي وتأثيراتها. . .

أليس هو مصمم «بطن الأم الثانية»؟

إننا أمام أزمة بين المهندسين المعماريين أنفسهم تدفعنا للتساؤل: أين نحن من فلسفة حسن فتحي ورفعة الجادرجي وغيرهما؟

كما تدفعنا للالحاح على إعادة تطوير قوانين التنظيم المدني ومراقبتها؛ لأنها، بوجودها الفعلي، هي الوحيدة التي تلزم المهندس وصاحب المشروع بالتنفيذ تبعاً واستناداً لقواعد مدروسة.

1 ـ 4: **المحافظة على مدينة النبطية كمركز إنمائي ومعماري مهم**، والعمل على إيجاد مشاريع معمارية بديلة (غير سكنية محض)، حيث التخطيط المعماري غائب، وتغيب معه المشاريع الاجتماعية ـ الجماعية والخدماتية التي تهدف بالدرجة الأولى إلى إيجاد تجانس بين الظروف المعيشية اليومية وبين التطلعات المادية والمعنوية العامة. (وهو ما يحصل أيضاً في بيروت وفي بقية التجمعات المدينية في ظل غياب الدولة والسلطات المحلية). لذا تجدر

الاشارة إلى أهمية توجيه وتثقيف الناس وحثهم (الأغنياء منهم على الأخص) على تشجيع مثل هذه الأعمال والتفاهم معهم على خطوط عامة متبعة. وربما كان ذلك عبر الفاعليات في المنطقة. ونعتقد أن لوسائل الاعلام المرئي والمسموع دوراً مهماً وحساساً في هذه المرحلة، حيث القطاع العام ما زال مقصراً في إيجاد الخطط التنموية الاقتصادية الشاملة؛ مما يساعد على التقيد بمبادئ وقوانين مصلحة التنظيم المدني، ويعيد تركيب المكان أو المجال المفكك الذي حرق مراحله، ولم ينتظم، ولم يوظف كما يجب.

1 ـ 5: إعادة تنسيق التراث المعماري والمحافظة عليه وليس القطيعة معه، (وهذا ما يطبق في الخارج) وإهماله. وهنا تبرز الحاجة مرة أخرى لقيام دولة قوية تراقب عمليات المحافظة هذه والترميم وإعادة الترميم والحفاظ على العناصر المعمارية القديمة (كالمشتربية والقناطر والقبات والأعمدة الخ. . .). وهذا ما يحدث في دمشق على سبيل المثال، حيث توضع الأسس لمعالجة الزخارف وعدم انتشار التلف ومعالجة الفراغات. . . .[1].

2 ـ على المستوى الاجتماعي

إن الخدمات الاجتماعية الغائبة في العينة بشكل خاص وفي الوطن بشكل عام، تشكل إحدى الحاجات الاساسية المتنوعة، لما يمكن أن تحققه من استقرار وأمان ورعاية ودعم. إنها الحماية والضمان لتمكين الفرد من الاستقرار ومن تحقيق الذات ولتسهيل عملية تفاعله مع الآخرين.

وخلو العينة من المشاريع الانمائية والاقتصادية الخاصة والعامة يدفعنا وبإلحاح إلى المطالبة بتحسين الواقع الاجتماعي[2] وذلك عبر سلسلة اقتراحات:

2 ـ 1: تشجيع المبادرات الاهلية[3] التي تتبوأ الأنشطة الخدماتية الاجتماعية، والتي يتسم عملها بالاندفاع وبالعفوية؛ مما يجعلها ظرفية أو

(1) جريدة الحياة ـ 31 آذار 1991 ـ عدد 10283.

(2) الذي لا ينفصل عن الواقع النفسي.

(3) بتزايد إنشاء المؤسسات الاجتماعية الاهلية بتزايد الحاجة الاجتماعية الخدماتية والانمائية، وتمظهرت بمظهر السياسي: عمل الجهز والاحسان.

موسمية (لأنها ترتبط بالاشخاص وبالأمور الطارئة المستجدة). لا يمنع تشجيع المبادرات الرسمية في هذا المجال ـ وهي ضرورة ملحة ـ القادرة على امتلاك جهاز بشري عامل ومخطط وعلى التمويل وعلى تغطية الحاجات الاجتماعية بشكل أدق.

ورغم تطور مفهوم الحاجات الاجتماعية، فإن ذلك لم يترجم عملياً على مستوى إقامة مؤسسات حديثة متطورة للخدمة الاجتماعية العامة، ولم تمنح أولوية الانشاء ولا الدور الفعال في عملية التنمية.

2 ـ 2: **إعادة تحديد ودرس الفروقات بين الريف والمدينة** على أساس ما هو حاصل حالياً دون إلغاء تمدين الريف، لكن مع التأكيد على الحفاظ على ريفيته وتشجيع الزراعة وتحسين وضع المناطق الزراعية وإقامة الدورات المهنية التدريبية الخاصة في هذا المجال، وتشجيع الاختصاص في الهندسة الزراعية والعمل على إيجاد سوق العمل لهذا التخصص. إعادة تحسين الريف المتمدن هذه، تساهم في عدم الإبقاء على الريف كمشهد متخيّل من الذاكرة فقط، كما تشجع على الحد من الهجرة وعلى لفت أنظار المقيمين المتحولين عن الزراعة إلى أهميتها.

2 ـ 3: إقامة المكتبات العامة المتنوعة على مستوى المدن والمحافظات والأقضية، وإقامة المستشفيات وتحسين الواقع الصحي وامداد المستوصفات الحالية بالتجهيزات اللازمة.

2 ـ 4: **تثبيت توجه أكاديمي جديد**، هو سوسيولوجيا المهندس أو الهندسة (أو حتى المسكن)، وتدريسه في المعاهد والكليات، يعمل هذا التوجه على التعمق والربط بين حياة الفرد اليومية وبين مسكنه الخاص استناداً إلى العلوم الاجتماعية والنفسية والهندسية والجغرافية (وتثبيت دعائم هذا التوجه على الصعيد اللبناني والعربي)، ومن ثم ربط هذا التوجه الجديد بالواقع، على أن نعمل جدياً في درس تغيير أنماط حياتنا اليومية وتنظيمها (كتنظيم أمور العمل والعطل والشيخوخة)، كي تنتظم معها المساحة المبنية. وربما ساهم هذا في إعادة الاعتبار الضائع للعلم[1].

---

(1) هناك اقتراح ربما أتى في غير محله، لكنه اقتراح متمم ومكمل وهو يندرج في خانة اقتصادية=

2 ـ 5: يطال اقتراح هذا البند المسألة التربوية، وسنقسمه إلى قسمين:

2 ـ 5 ـ 1: تحسين وضعية التعليم بتثبيت فعلي لعملية التعلم الإلزامي الذي يحدّ من انتشار الأمية والأمية المقنعة، خاصة في المنطقة المدروسة، حيث تدنى المستوى التعليمي، وربما يساعد على إعادة تنمية العنصر الثقافي، (لأن ما يحدث ليس تطور النماذج الثقافية بحد ذاتها بل بقطيعة عنها ومعها).

2 ـ 5 ـ 2: تطبيق التوجهات التربوية الحديثة والتركيز على قدرات الشخص الذاتية وليس التباهي بالامكانيات المادية، ومراعاة مسألة المكان فيها لما له من تأثير على انطلاق الشخصية وإطلاق قدراتها، كإيجاد مساحات للطفل وللمراهق ـ لم تأخذ بعين الاعتبار، لا من قبل صاحب المشروع المعماري ولا من قِبل المهندس المعماري ولا من قِبلِ أصحاب المشاريع الكبرى ـ إن وُجِدَتْ.

وهذا ما يساعد على مَلْءِ أوقات فراغ الجيل الجديد بما هو مسلٍ ومفيد، فنكون قد ساهمنا في الحد من مشاكل الادمان والمخدرات والضياع والصراع مع السلطة الاسرية ومن تضييق الفروقات الاجتماعية.

2 ـ 6: السماح للمحللين النفسانيين بممارسة دورهم ومسؤولياتهم في عملية التطوير الاجتماعي وتخفيف الكبت والقمع الاجتماعيين، من خلال المساهمة في إيجاد مجتمع سليم ومتوازن والحفاظ على الصحة النفسية لأفراده وتوجيه سلوكهم النفسي التعويضي. وهذا لا يمكن أن يتم وينتشر إلا بعد شرعنة عملهم وترخيصه ومساواتهم ببقية الأطباء.

2 ـ 7: إلغاء الطائفية السياسية: وإعادة النظر في التشريعات الاجتماعية، وصولاً إلى التوازن الاجتماعي، فالاعتراف بالقانون العادي، أو بما سماه «إبراهيم طرابلسي»[1] «طائفة القانون العادي» الخاضعة في أحكامها للقانون المدني، «الذي من شأنه تخفيف أحد أوجه الأزمة التي يعانيها نظام الأحوال

= تنموية تطالب بتحسين وضع الفرد التعلم وذلك بإعلاء بدلات أجوره وبإيجاد فرص العمل له.

(1) د. أنطوان مسرّة: «ابراهيم طرابلسي، توجهات مميزة في دراسة الاحوال الشخصية» النهار ـ الخميس 19/ 7/ 91 عدد 17981.

الشخصية كالخضوع لأحكام القوانين الطائفية أو إنشاء وزارة أو مؤسسة عليا للشؤون الدينية في لبنان على غرار ما هو في بعض البلدان العربية بهدف تعميق التنسيق بين العائلات الروحية اللبنانية»... والتغيير في نظام الأحوال الشخصية لا يقتصر فقط على الزواج وغيره، بل يطال المساواة في كافة الطوائف، مما يساهم في ردود ودفع الشعور بالذنب أو بالدونية عبر سلوك تعويضي سياسي. فالظاهرة الاجتماعية تأخذ لون الظاهرة السياسية..

2 ـ 8: إرساء ودعم مسؤوليات المرأة التي فتحتها لها الحرب والهجرة (وهو اقتراح مرتبط بالاقتراح الذي سبقه)، وقبول المجتمع لها وتشريع المساواة وتكافؤ الفرص بينها وبين الرجل عبر قوانين تخفف من أعباء التجاذب الحاصل. وهذا عمل مطلبي يجب أن يبتعد عن الكلاسيكية والأحادية والانتهازية في طرحه. كما يجب أن يطال هذا العمل تطوير البنى الاقتصادية والسياسية وإدخال التعديلات على عناصرها؛ مما يؤدي إلى تغيير في العلاقات الفردية والعقليات، ومما يسمح ببناء أسرة أفضل[1]. يجب رد أو دفع النقص في الاعتبار خاصة من طرف المثقفين أنفسهم الذين يعون كافياً مكانة المرأة ـ خاصة المثقفة وما لها من دور أسري مهم في إرساء توازن الأسرة ـ في بلاد أخرى.

هذا إضافة إلى ضرورة اعتبار أن الرجل والمرأة ساهما على السواء في إنتاج القيم المجتمعية في المجتمع حيث يعيشان من معاً.

(1) ويحتاج كل هذا إلى رسم خطة مستقبلية تتعامل مع الواقع الاجتماعي والسياسي والنفسي، وتحدد الخطوات وآليات التنفيذ.

خاتمة

كل ما سبق وتقدم من اقتراحات، لا يمكن أن تتم بدون أن تُبنى أساساً على أسلوب علمي تقني متطور يكون أداة التخطيط الذي لا بد من أن تُشرف عليه هيئات وأجهزة حكومية، ونخص بالذكر: وزارة الاسكان ـ وزارة الاشغال العامة والنقل ـ وزارة المباني.

ولا يمكن أن يتم بدون إعادة تسوية وضعيات البلديات المحلية الهرمة وتثبيت الأمن في المنطقة كي نتمكن من التحكم بالتغيير وبإيجاد توازن لإخضاع معدلات التحول هذه؛ مما يسهل علينا معرفة إلى أين سيقودنا التغيير: أي نحو الأحسن وليس نحو الأسوأ.

إن التغيير الحاصل في المنطقة والذي يعمل على الاقتراب من الحداثة هو تغيير غير قاعدي هزّ القيم التقليدية لكنه لم يحسم أمر توجهه وثنائيته بعد.

بمعنى آخر، إن السلوك التعويضي غيّر من واقع الجنوبي، وأرساه في خانة الحداثة من جهة، وأوقعه في مآزم أخرى لا تقل وطأة عن الأولى، ولم تخرجه عن واقع التخيل والتأمل والهوامات.

إن تحديث نمط عيشنا وتفكيرنا هو تأصيل لكياننا؛ لأن الحداثة «كانت ولا زالت حيز الصمود الفعال ضد الهيمنة والتعصب والتقهقر، وهي الوحيدة التي يمكنها أن تقوي مناعة المجتمعات العربية[1] من التراجع إلى نمط من الحياة يسهل استعمارها بأساليب جديدة»[2].

نحن أحوج مما مضى إلى مفاهيم حديثة تخص ميدان التخطيط المديني

---

(1) ومنها لبنان.

(2) التريكي ـ المصدر نفسه ـ ص 32.

عندنا، حيث تسيطر الثقافة «المدينية» و«الموديلات المنقولة»، وهذه حالة مسيطرة ليس فقط في بلدان العالم العربي بل أيضاً في بلدان العالم النامي، حيث تسيطر وحسب قول شرابي الذي تؤكده ـ كافة أنواع الأبوية المستحدثة، ألا وهي غياب التقليدية الاصلية وبالمقدار نفسه غياب الحداثة الحقة، ومن أهم خصائص هذه الأبوية المستحدثة «الوعي المحدث»، وهو ـ حسب قول «شرابي» ـ منحى ثقافي أو نمط إتجاه عام يميل إلى تحويل النماذج إلى أصنام. فالتعامل مثلاً مع التربية أو الملبس أو المسكن، هو تحويل هذه النماذج والشعائر أصناماً مترجمة: إنه وعي صنمي: «وحتى تكون عملية تحويل الوعي فعالة فإنه يتوجب قيامها على استقلالية ذاتية، أي مع استيعاب الأبوية وعلاقاتها النفسية، ومن ثم قهرها والتغلب عليها، أو على الأقل بعد طمس تناقضاتها الداخلية»[1].

ومن الطبيعي أن عملية التغيير المتوخاة ستأخذ وقتاً طويلاً ولا إمكانية لتحول سريع وجذري بين ليلة وضحاها؛ لأنه لا ينسجم مع منطق التاريخ والتغيير. لذا علينا الدخول في تحليل ونقد هذا الواقع وبعد فهمه، وبنظرة حديثة، وعلى العمل الرسمي الحكومي والعمل الاهلي النقابي المستقل أن ينضما ويتكتلا لتحقيق الهدف الذي يجب أن يغير جذرياً وعي الرجل لقضية المرأة، وهذه هي مهمة المثقفين قبل غيرهم، فهل يكتب النجاح؟!

(1) شرابي ـ المصدر نفسه (الأبوية ـ المستحدثة)، ص 42.

لائحة المراجع

أولاً: باللغة العربية

أ ـ الكتب

- إبراهيم عبد الله: المسألة السكانية وبنية المجال العربي ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت 1991.
- أدونيس: الثابت والمتحول: 1 ـ الأصول ـ دار العودة، بيروت 1974.
- أركون محمد: الفكر الاسلامي ـ قراءة علمية ـ مركز الانماء القومي ـ ترجمة هاشم صالح ـ بيروت 1987.
- الأمين السيد محسن: خطط جبل عامل ـ الدار العالمية ـ بيروت 1983.
- باسلامه، حسين عبد الله: تاريخ الكعبة المعظمة ـ الكتاب العربي السعودي ـ جدة ـ 1982.
- باشا أحمد تيمور: المهندسون في العصر الاسلامي ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة 1979.
- بركات حليم: المجتمع العربي المعاصر ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1984.
- البستاني بطرس ـ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ـ دار نظير عبود ـ بيروت 1989.
  - دائرة المعارف ـ دار المعرفة ـ بيروت (لم تذكر سنة النشر).
- بيضون أحمد: ـ بنت جبيل ميشيغان ـ الدار العربية للتوثيق والدراسات والنشر ـ بيروت 1989.
  - ما علمتم وذقتم ـ المركز الثقافي العربي ـ بيروت 1990.

- بيضون أحمد أمين: أزمة السكن ومؤسسات الاسكان في لبنان - بيروت 1991 (لم يذكر دار النشر).
- التريكي فتحي ورشيدة: فلسفة الحداثة مركز الانماء القومي بيروت 1992.
- الجادرجي رفعة: - شارع طه وهامرسمث بحث في جدلية العمارة - مؤسسة الابحاث العربية - بيروت 1985.
- صورة أب - الحياة اليومية في دار السياسي كامل الجادرجي - مؤسسة الابحاث العربية - بيروت 1985.
- جعيط هشام: الكوفة - نشأة المدينة العربية الاسلامية - دار الطليعة - بيروت - الطبعة الثانية - 1993.
- الجوهري محمد - شكري علياء: علم الاجتماع الريفي والحضري - دار المعارف القاهرة - 1980.
- حجازي مصطفى:
- التخلف الاجتماعي - سيكولوجية الانسان المقهور معهد الانماء العربي - بيروت 1989.
- معجم مصطلحات التحليل النفسي - مجد - بيروت 1987.
- حطب زهير: مكي عباس:
- تطور بين الأسرة العربية - معهد الانماء العربي - بيروت 1976.
- الطاقات النسائية العربية - معهد الانماء العربي - بيروت 1987.
- الطفرة والشباب - معهد الانماء العربي - بيروت 1980.
- خليفة عباس: (بإشراف د. نايف عتريسي): الأزمة الاسكانية في لبنان - أسباب وحلول - العلا - بيروت 1993.
- الخماش سلوى: المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف - دار الحقيقة - بيروت 1973.
- داوود حسن:
- بناية ماتيلد - دار التنوير - بيروت 1983.
- أيام زائدة - دار الجديد - بيروت 1990.
- الراسي سلام: لئلا تضيع - مؤسسة نوفل - بيروت 1981.

- رضا أحمد: معجم فن اللغة ـ مكتبة الحياة ـ بيروت 1959.
- سامح كمال الدين: العمارة الاسلامية في مصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مصر 1983.
- السعداوي نوال:
- الأنثى هي الأصل ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1974.
- الوجه العاري للمرأة العربية ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1977.
- المرأة والجنس ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1972.
- سليمان، محمد كامل سليمان: الايديولوجيا الشيعية في رثاء الحسين، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1981.
- الشاب زهير (ترجمة): دراسات عن المدن والأقاليم المصرية ـ وصف مصر ـ مصر 1987.
- شرابي هشام:
- النظام الأبوي واشكالية تخلف المجتمع العربي ـ بترجمة محمود شريح ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1992.
- مقدمات لدراسة المجتمع العربي ـ الطبعة الثانية ـ الدار المتحدة للنشر ـ بيروت 1975.
- شرارة وضاح: المدينة الموقوفة ـ بيروت بين القرابة والاقامة ـ دار المطبوعات الشرقية ـ بيروت 1985.
- صبور امحمد: المعرفة والسلطة في المجتمع العربي ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1992.
- جميل صليبا: المعجم الفلسفي ـ 1 ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1971.
- ضاهر مسعود: الانتفاضات اللبنانية ضد النظام المقاطعجي ـ دار الفارابي ـ بيروت 1988.
- عبد الغني، محمود شحادة (ترجمة): مبان للمدرسة وخدمة أغراض المجتمع ـ أونسكو ـ الكويت ـ 1981.
- عطية، نعيم: ذكاء الأطفال من خلال الرسوم «نسق جديد لاختيار رسم

الرجل - دراسة تجريبية»، دار الطليعة - بيروت 1993.

- عويضة محمد محمود: تطور الفكر المعماري في القرن العشرين - دار النهضة العربية - بيروت 1984.

- غيز هنري: تعريب مارون عبود: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن - الجزء الأول - منشورات المكسوف بيروت 1949.

- Relation d'un sejour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban.

- فاعور علي: - جغرافية التهجير - المؤسسة الجغرافية - الطبعة الأولى بيروت 1993.

- جنوب لبنان - الطبيعة والانسان - الجزء الأول - دار الباحث - بيروت 1985.

- فتحي حسن: العمارة العربية الحضرية بالشرق الأوسط - جامعة بيروت العربية - بيروت نيسان 1971.

- فرويد سيغموند:

- ثلاثة مقالات في نظرية الجنس - ترجمة سامي محمود علي - دار المعارف بمصر، 1963.

- التحليل النفسي والفن - ترجمة سمير كرم - دار الطليعة - بيروت 1975.

- أفكار لأزمنة الحرب والموت - ترجمة سمير كرم - دار الطليعة بيروت 1977.

- قلق في الحضارة - ترجمة جورج طرابيشي - بيروت 1977.

- عسر الحضارة - ترجمة عادل العوا - منشورات وزارة الثقافة - دمشق 1975.

- فريحة أنيس: معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية - مكتبة لبنان - بيروت 1972.

- فواز مصطفى: مبادئ تنظيم المدينة - معهد الانماء العربي بيروت 1980.

- المجلس الثقافي للبنان الجنوبي:

- دراسات حول لبنان - بيروت 1981.

ـ في نتائج العدوان الاسرائيلي على جنوب لبْنان ـ بيروت 1979.
ـ الأبعاد السياسية لقضية الجنوب اللبناني ـ بيروت 1981.
ـ جنوب لبنان، خط المواجهة الأول، بيروت 1980.
- المجلس الاسلامي الشيعي الأعلى، (مركز الدراسات والتوثيق والنشر) وقائع مؤتمر إنماء لبنان الاجتماعي ـ بيروت 1992.
- محمد عبد المعطي علي: فلسفة الفن ـ دار النهضة العربية ـ بيَروت 1985.
- محمد علي محمد: وقت الفراغ في المجتمع الحديث ـ دار النهضة العربية ـ بيروت 1985.
- محمد وهيبة، عبد الفتاح: في جغرافية العمران ـ دار النهضة العربية ـ بيروت 1985.
- المرنيسي فاطمة: السلوك الجنسي في مجتمع اسلامي رأسمالي تبعي ـ دار الحداثة ـ بيروت 1982.
- مصطفى صالح لمعي: ـ التراث المعماري الاسلامي في مصر ـ جامعة بيروت العربية ـ بيروت 1975.
ـ الوثائق والعمارة ـ جامعة بيروت العربية ـ بيروت 1980.
ـ نظرة على العمارة الأوروبية ـ دار النهضة العربية ـ بيروت 1983.
ـ المعجم العربي الحديث: لاروس ـ كندا ـ 1973.
- مكي عباس: المجال النفس ـ اجتماعي العربي ـ معهد الانماء العربي ـ سلسلة دراسات المجال العربي ـ بيروت 1991.
- مكي محمد كاظم: الحركة الفكرية والأدبية في جبل عامل ـ ـار الاندلس بيروت 1982.
- مؤسسة الحريري: لبنان الواقع وحاجات التأهيل وال[illegible] ـ بيروت 1987.
- النابلسي الصفدي الشافعي ـ أبي عثمان: تاريخ الفيوم وبلاده ـ دار الجبل، بيروت 1974.
- نعمه رجاء: كانت المدن ملونة ـ روايات الهلال ـ القاهرة 1990.
- ياسين محمد سعيد: تاريخ الجنوب اللبناني ـ دار الغد العربي بيروت 1985.

ب ـ دراسات غير منشورة:

- الأمين نزيهة: التهجير في لبنان ـ دراسة ميدانية لأحد أحياء المهجرين دراسة أعدت لنيل شهادة دبلوم الدراسات المعمقة في علم الاجتماع الريفي ـ معهد العلوم الاجتماعية ـ بيروت 1986 ـ 1987.
- أوراق عمل المؤتمر الوطني العام للمهجرين: حزيران 1992 ـ الكارلتون ـ بيروت.
- بزي علي: الاقامة خارج البلدة القديمة (بنت جبيل) دراسة أعدت لنيل دبلوم الدراسات المعمقة ـ معهد العلوم الاجتماعية ـ بيروت 1981.
- بزيع اكتمال: البيت التقليدي في قرية زبقين ـ دراسة أعدت لنيل شهادة الجدارة في الانتروبولوجيا ـ معهد العلوم الاجتماعية ـ بيروت 1991.
- حنا موسى خليل: البيت التقليدي في منطقة الدريب الشمالي / عكار دراسة أعدت لنيل شهادة دبلوم في الانتروبولوجيا معهد العلوم الاجتماعية ـ بيروت 1987.
- رشيد الهام: زراعة التبغ في الجنوب ودور المرأة فيها ـ رسالة أعدت لنيل شهادة الجدارة ـ معهد العلوم الاجتماعية ـ بيروت 1974.
- قاسم فؤاد: المدينة الاسلامية ـ دور المسجد في بيروت ـ دراسة أعدت لنيل شهادة الجدارة ـ معهد العلوم الاجتماعية بيروت 1983 ـ 1984.
- القسيس جبرائيل: حزام البؤس والحرمان حول بيروت وعلاقته في الوضع الاجتماعي الاقتصادي في لبنان. بحث أعد لنيل شهادة الجدارة ـ معهد العلوم الاجتماعي بيروت 1983 ـ 1984.
- مصطفى شاديا: البيت التقليدي في بنت جبيل ـ دراسة أعدت لنيل شهادة الجدارة ـ معهد العلوم الاجتماعية ـ بيروت 1981 ـ 1982.
- المعجم العربي الحديث ـ لاروس ـ كندا 1973.
- مكي صادق:

الشعر الوطني العاملي ـ دراسة غير منشورة.

ـ فهرسة المخطوطات العاملية ـ أطروحة دكتوراة اختصاص ـ جامعة القديس يوسف ـ بيروت 1986.

- الهراس مختار: ملاحظات حول التغيير السكني والتغيير الاسري في المغرب ـ ندوة المرأة بين الواقع والتصور ـ الدار البيضاء ـ شباط 1992.

ج ـ المجلات والجرائد:

- مجلة الابحاث التربوية: كلية التربية ـ الجامعة اللبنانيه ـ عدد 1 ـ 1975 ـ 1976.
- مجلة أمل: عدد 23/ 6/ 1993.
- بيان عن شبكة الطرق اللبنانية وزارة الأشغال العامة والنقل ـ دراسة غير منشورة.
- الحياة (جريدة): عدد: 112011 ـ 10237 ـ 10239 ـ 10241 ـ 10243 ـ 10244 ـ 10261 ـ 10283 ـ 10297 ـ 10298 ـ 10299 (1991).
- الرسمية (الجريدة): عدد 23 ـ 6/ 6/ 1991.
- السفير (جريدة): ـ السبت 24/ 5/ 86 (فُقِدَ رقم عدده).

ـ عدد 4336 (1986).

ـ عدد 4338 (1986).

ـ عدد 4339 (1986).

ـ عدد 4495 (1986).

ـ ت2 1988 ـ ملحق خاص (جنوب العطاء).

ـ الخميس 7/ 12/ 89 (بغد رحيل حسن فتحي). عدد 5479 (1990).

ـ عدد 5612 (1990).

ـ السبت 21/ 7/ 1990 (ملف الجنوب).

ـ الخميس 26/ 7/ 1990 (ملف الجنوب). عدد 5479 (1990).

ـ السبت 28/ 7/ 90 (ملف الجنوب). عدد 5479 (1990).

ـ الخميس 23/ 8/ 1990 (ملف الجنوب). عدد 5479 (1990).

ـ السبت 25/ 8/ 1990 (ملف الجنوب). عدد 5479 (1990).

ـ السبت 8/ 9/ 1990 (ملف الجنوب).

ـ الثلاثاء 30/ 10/ 1990 (عدد 5479) (1990).

ـ السبت 3/ 11/ 1990 (عدد 5479) (1990).

اللواء (جريدة) عدد خاص عن صيدا والجنوب ـ بيروت 1989.

- النهار (جريدة) ـ الخميس 18/ 7/ 1991 ـ عدد 17981.
الثلاثاء 21/ 1/ 92 ـ عدد 18137.
- مجلة العلم والتكنولوجيا ـ معهد الانماء العربي ـ بيروت. عدد 20 ـ نيسان 1990 ـ عدد خاص: الفضاء والفلك.
- مجلة العلوم الاجتماعية ـ الجامعة اللبنانية: معهد العلوم الاجتماعية ـ عدد 1 ـ 1991.
- مجلة الفكر العربي: معهد الانماء العربي بيروت:
ـ عدد 29/ 30: مسألة المدينة والمدنية العربية.
ـ عدد 37 ـ 38/ ك2 ـ أيار / 1985.
ـ عدد 50 (الصحافة العربية).
ـ عدد 52 (الآثار).
ـ عدد 62 (تجارب التسيير الشعبي الذاتي).
ـ عدد 64 (المرأة العربية بين الذات والموضوع).
ـ عدد 67 (ك2 ـ آذار) 1992.
- مجلة الفكر العربي المعاصر: ـ مركز الانماء القومي بيروت ـ عدد 17 ـ 24 ـ 45 ـ اللغوي ـ الفكري في خطاب الحداثة.
- مجلة فنون عربية ـ عدد 3 ـ 1981 (حسن فتحي والعمارة العربية).
- مجلة قضايا وشهادات: الحداثة (1) ـ صيف 1990 (4) مؤسسة عيبال للدراسات والنشر.
- مجلة كتابات معاصرة ـ عدد 10 ـ 1991.
- مجلة المجلة ـ عدد 321 ـ نيسان 1986.
- مراسيم رقم 15299 ـ 1742 ـ 10619.
- مجلة المستقبل العربي: مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت عدد 136 (1990).
- مجلة المقاصد ـ جمعية المقاصد الاسلامية في بيروت، عدد 11ـ 13ـ 16ـ 17ـ 18ـ 1983.
- النهار (ملحق): عدد 29 (1992).
- مجلة النقطة: عدد 2 (1992) ـ عدد 3 (1992).

- مجلة نون: جمعية تضامن المرأة العربية ـ عدد 1ـ 2ـ 3ـ 4 (1990) ـ مصر.
- مجلة الهندسة: (للانشاءات والصناعة والتكنولوجيا) ـ بيروت ـ عدد 35 آذار 1990.

ثانياً: باللغة الأجنبية(*)

أ ـ الكتب

- Abdel-Nour A.: Introduction à l'histoire urbaine de la syrie ottomane (XVI- XVIII =S). publications de l'université libanaise Beyrout- 1982.
- Bachelard G.: La poétique de l'espace- P.U.F. Paris 1967.
- Bachelard G.: l'eau et les rêves - Librairie José Corti/ Paris / 1942.
- Bastie J.: La croissance de la banlieue Parisienne- P.U.F. Paris 1964.
- Benoît P.: La châtelaine du liban- livre de poche (roman)- Albain Michel, Paris, 1929.
- Bouhdiba A.: la sexualité en Islam. P.U.F. Paris 1979.
- Bouhdiba A.: et chevallier D. (sous le direction): la ville arabe dans l'Islam, tunis 1982.
- Bourjol M.: Les districts urbains, éd, Berger-Levrault- 1963.
- Boutrol G.: Biologie sociale - P.U.F. Paris 1964.
- Brigode G. de: l'architecture scolaire, P.U.F., Paris, 1966.
- Calame - Griaule G.: Ethnologie et langage, Institut d'ethnologie, Paris, 1987.
- Candilis G.: Bâtir la vie - stock-Paris, 1977.
- Catells M.: la question urbaine- éd. François Maspero. Paris, 1972.
- Cazeneuve J.: Bonheur et civilisation- Gallimard, Paris, 1966.
- Centre d'études et de recherches sur le moyen orient contempor-

(*) ضم الى هذا القسم بعض المراجع باللغة الانكليزية نظراً لأننا لم نرصد لها قسماً خاصاً بها.

ain: (Cermoc): Migrations et changements sociaux dans l'orient arabe, Beyrouth, 1985.
- Credà I.: la théorie générale de l'urbanisation/ éd./ du Seuil-Paris, 1979.
- Chevallier D.: (sous la direction), l'espace social dans la ville arabe, Maisonneuve et larousse- Paris, 1979.
- Choay F.: l'urbanisme, utopies et réalités. éd. du seuil-Paris, 1965.
- Choay F. (et autres): le sens de la ville. éd. du Seuil-Paris, 1972.
- Chombart de lauwe P.H. pour une sociologie des aspirations-Denöel-Gonthier- Paris 1971.
- Choppy J.: Dictionnaire de l'industrie routière- Eyrolles-Paris, 1977.
- C.N.R.S. (sous la direction de G. Martin). Approches du changement social, Paris, 1983.
- Depaule J.Ch. (et autres): A travers le mur- centre G. pompidou, Collection alors- Paris 1985.
- Dreyfus C.: les maladies de l'environnement- Denoël Paris 1971.
- Dumazedier J.: Vers une civilisation du Loisir? éd. du Seuil-Paris 1962.
- Duvignaud J. lieux et non lieux. éd. galilée- Paris 1977.
- Eleb M.: Espaces des autres-lectures anthropologiques d'architectures- coll. penser l'espace- éd. de la villette, 1987.
- Eleb M.- Chatelet A.M.: Penser l'habité - le logement en questions P. Mardaga- éd. Paris- 1988.
- Eleb M.- Debarre- Blanchard A.: Architectures de la vie privé-A.A.M. éditeurs Bruxelles, 1989.
- Encyclopédie pratique de la construction et du bâtiment-Quillet-Paris, 1959- Tomes- I- III.
- Fathi H. Construire avec le peuple- éd. sindibad- Paris 1970.
- Fedida p.: L'absence- Gallimard- Paris- 1978.
- Flandrin J.L.: Familles, parenté, Maison, Sexualité dans l'ancienne Société. Hachette- Paris, 1976.
- Foulquié p.: Dictionnaire de la langue pédagogique- P.U.F. Paris 1971.
- Fréal J.: L'architecture paysanne (La maison en France). éd. Serge. Paris, 1977.

- Freud S.: psychopathologie de la vie quotidienne-Payot-Paris, 1960.
- Geertz C.: Meaning and order in Moroccan Society-Cambridge university, press-Cambridge- 1988.
- Kalaya H.: L'habitation au liban (association pour la protection des cités et des anciennes demeures)- Beyrouth 1966.
- Ledrut R.: Les images de la ville- éd. Anthropos- Paris, 1973.
- Ledrut R.: Sociologie urbaine- P.U.F. Paris, 1979.
- Le fèbvre H.: la pensée marxiste et la ville, Casterman- Paris, 1972.

  - Critique de la vie quotidienne- l'arche éditeur Paris, 1985.
  - La vie quotidienne dans le monde moderne-Gallimard- Paris 1968.
  - du rural à l'urbain, Anthropos, Paris 1970.
  - la révolution urbaine-Gallimard- Paris, 1972.
- Lossier J.G.: le rôle social de l'art selon proudhon. librairie philosophique- Paris, 1937.
- Lynch K.: l'image de la cité- Dunod- Paris 1971.
- Mantran R.: La vie quotidienne à constantinople au temps de soliman le magnifique et de ses successeurs XVI et XVII, S. Hachette- Paris, 1965.
- Marc O.: psychanalyse de la maison- Seuil-intuitions- paris 1972.
- Massu C.: Droit au logement. Mythe ou réalité éd. sociales-Paris, 1975.
- Mauret e.: pour un équilibre des villes et des campagnes. Dunod- Paris- Bruxelles-Montréal- 1974.
- Maurice M. et autres: Travail-mode de vie et espaces sociaux-C.N.R.S. Aix-en-provence- 1972.
- Michel A.: Femmes, Sexisme et sociétés, P.U.F. Paris, 1977.
- Ministère Libanais de l'information: Liban- Sud 1984- 1988, faits et réalités- Beyrouth- 1986.
- Mission de la ligue arabe: la femme libanaise, témoin de la guerre- Paris, 1987.
- Moley C.: Les structures de la maison-publications orientales de France, Paris, 1984.
- Paul-Lévy F. (et autres): Anthropologie de l'espace-centre G.

pompidou, collection alors, Paris 1983.
- Politiques urbaines dans le Monde Arabe: Maison de l'orient, Etudes sur le monde arabe no. 1- Sindibad, Paris 1990.
- Poulantzas N.: political power and social class- London- Free press- 1973.
- Quatremère de Quincy M.: Dictionnaire historique d'architecture- Librairie d'Adrièn le clerc, Paris, 1932 (2 tomes).
- Ragon M.: Les erreurs monumentales, Hachette, Paris 1971.
- Rambert C.: constructions scolaires et universitaires Fréal et cie éditeurs. Paris, 1955.
- Rapoport A.: pour une anthropologie de la maison-Dunod-Collection Aspects de l'urbanisme- Paris 1972.
- Reich W.: l'irruption de la morle sexuelle, Payot, Paris, 1972.
- Sillamey N.: Dictionnaire usuel de psychologie, Bordas, Paris, 1983.
- Stierlin H.: Architecture de l'Islam, office du livre. Suisse, 1979.
- Strauss. C. L.: Anthropologie structurale, Plon, Paris, 1963.
- Toyn bée A.: Les villes dans l'histoire, Payot, Paris, 1972.
- Virilio P.: l'espace critique, Christian Bourgeois éditeur, Paris, 1984.
- Wesker A.: La cuisine, Gallimard, Paris, 1967.
- Wrigth E.O.: Classes-Wolfolk U.K. thetford-Press- 1985.
- Young I.: L'Islam- éd. Alain Moreau, Paris, 1979.
- Young M.: le village dans la ville, Centre G. pompidou collection alors, Paris, 1983.
- Zakaria M.: Mouvements communantaires et espaces urbains du Maghreb-Cermoc-Beyrouth- 1985.

ب - الدوريات

- Architecture d'aujourd'hui-no. 171- 172- 173- 174 (juillet Août, 1974) no. spécial.
- Autrement «villes en guerre» no. 83 oct. 1986- paris.
- Cahiers de la recherche architecturale no. 10- 11- 1982 no. 14- 1984.
- Cahiers internationaux de sociologie - vol LXXII- 1982- Paris P.U.F.
- Cahiers pédagogiques no. 72.

- Communications no. 27 (1972) éd. Seuil-Sémiotique de l'espace.
- Habitat social: no. spécial- Novembre, 1982.
- La pensée, no. 194 - Août - 1977- Paris.
- Maghreb- Machreck: Espaces et sociétés du monde arabe. Janvier- Février - Mars 1989- la documentation Française, France.
- Psychologie clinique- recherches cliniques- université- Paris 7 No. 11- 19 (1983- 1984).
  No. 12 (1986).
- Santé mentale no. 94- 95 (l'homme et la ville).

ج ـ دراسات غير منشورة

- Charaffeddine M.: L'aménagement ruro-urbain à Jabal-Amel, contraintes et particularités. thèse de doctorat en aménagement du terretoire- Paris I- 1986.
- Eleb M.: Habilitation à diriger des recherches (documents de synthèse)- Paris VII- Janvier 1991.
- Eleb M.: Se construire et habiter: thèse de doctorat de 3; cycle de sociologie de la connaissance- 1980- Paris VII.
- Frangié Z: L.'intégration socio-culturelle d'un groupe en zone urbaine, Etude préparée pour l'obtention de la Maîtrise, Inst. des scienes sociales-Beyrouth 81- 82.
- Mouchati S.: Typologie de l'habitat à Beyrouth- Maîtrise en sociologie- Inst. des sciences sociales- Beyrouth- 78- 79.
- Najjar M.: The changing role of woman in selected rural communities of lebanon.
- دراسة أعدت لنيل شهادة الماجستير في العلوم (حزيران 1971) ـ الجامعة الاميركية.
- Najjar S.: Changing status of woman in a lebanese Moslem village.
- دراسة أعدت لنيل شهادة الماجستير في الفنون من قسم العلوم الاجتماعية والانتربولوجية في الجامعة الاميركية ـ بيروت ـ حزيران 1967.
- Rizkallah R.: Contribution à une approche psychologique d'un rite chez les chiites du liban-sud- «Aschura». Thèse de doctorat de 3e cycle-Paris- 7- 1977.

فهرس

الموضوع | الصفحة

القسم الثاني: الدراسة الميدانية

القسم الثالث: استنتاجات واقتراحات

1995/2/527

هذا الكتاب

يدرس موضوع هذا الكتاب ظاهرة اجتماعية لم تركز حتى الآن، فهي ما زالت في طور الغليان وتطرح حكماً الصلة ما بين العلوم النفسية والاجتماعية والعلوم الهندسية والمعمارية. إنها صلة تطرح آفاق توجه جديد يطال مجال الحياة اليومية.

وعليه؛ فالمقاربة هنا ليست فقط مقاربة نفس ـ اجتماعية؛ إنها مقاربة هندسية: أين نحن من نتاج المهندس؟ ما هو موقع الحداثة والتغيير في هذا النتاج؟ كيف يتعامل مع التحول السريع وبالتالي مع منطق التغيير والتاريخ؟

أوليس للمهندس دور وطني ومهمات وطنية في إعادة البناء وفي عملية التنمية؟ أوليس لعالم الاجتماع ولمثقفيه دور في تجسيد أقوالهم عملياً وفي ممارساتهم الاجتماعية؟

المطلوب هو تعاون علمي بين مختلف هؤلاء في إطار تنوع يهدف لتواصل مجتمعي أعمق. وتعميق البحث بين الكليات النظرية والتطبيقية هي خطوة يجب أن نعيها في معالجتنا لمسائل متعددة الاختصاصات.

فالكتاب يطال إذاً النفسي ـ الاجتماعي ـ الهندسي والتنموي وانطلق من إشكالية دراسة الشخصية والسلوك المتأثر طبعاً بمحيطه إلى طرح بداية لإشكالية أكثر تعقيداً:

إشكالية البحث العلمي

قضايا المناهج

أيضاً مسيرة الإنماء والإعمار

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع